سلسلة

ومضات إعجازية من القرآن والسنة النبوية

الكتاب الأول (1)

الآثار والتاريخ



الدكتور المهندس

خالد فائق العبيدي

منشورات محمد علي بيضون

دار الكتب العلمية

بسم الله الرحمن الرحیم

الآثار و التاريخ

كاتب:

خالد فائق العبيدى

نشرت فى الطباعة:

دارلكتب العلمیۀ

رقمی الناشر:

مرکز القائمیۀ باصفهان للتحریات الکمبیوتریۀ

الفهرس

الآثار و التاريخ

اشارة

نام كتاب: الآثار و التاريخ نويسنده: خالد فائق العبيدى موضوع: اعجاز غيبى تاريخ وفات مؤلف: معاصر زبان: عربى تعداد جلد: ١ ناشر: دارالكتب العلمية

الإهداء

الإهداء بسم اللّه الرّحمن الرّحيم أهدى هذا الجهد المتواضع إلى روح من أرسله اللّه رحمة للعالمين، إلى خير معلم و أشرف رسول، إلى روح سيد الأولين و الآخرين رسول اللّه المصطفى سيدنا محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و إلى أرواح إخوانه من الرسل و الأنبياء أجمعين، و الى أرواح آله الطيبين الطاهرين و صحابته المجاهدين و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ... و إلى أرواح شهداء الأمة على مر العصور الذين رووا بدمائهم الزكية الأرض لتكون كلمة اللّه هى العليا ... و إلى أمتى و وطنى و أهلى. إلى من هى نفحة من رحمة اللّه تعالى التى حملتنى من وهن و أعانتنى من ضعف، و إلى الوالد الذى كان لى السند فى كل الشدائد، عسى اللّه أن يجعل هذا العمل صدقة جارية لهما و أن يغفر لى تقصيرى فى حقهما ... و إلى كنز الحياة الدنيا الزوجة العزيزة التى كانت لى نعم العون بعد طول عناء ... و إلى أولادى الأحباء عسى اللّه أن يجعلهم من أهل الصلاح و الخير. راجيا من اللّه أن يتقبله عنده و أن يجعله كله خيرا و يكون ذا فائدة جمّة للناس أجمعين .. الآثار و التاريخ، ص: ۵

مقدمة السلسلة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم مقدمة السلسلة الحمد للّه رب العالمين و الصلاة و السلام على أفضل و أشرف رسله و أنبيائه سيدنا محمد صلّى اللّه عليه و سلم، و على آله و صحبه أجمعين، و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، و بعد. لن آتى بجديد إذا ما قلت إن السبق العلمى و الإعجاز العلمى و العددى فى القرآن الكريم و السنة المطهرة هو أوسع من أن يكون مجرد إشارات فى آيات مباركات تعطى حقائق علمية ظهرت فى عصر التكنولوجيا الحاضر، و كأن اللّه تعالى يتحدى الخلق كما تحدى أهل اللغة فى عصر الرسالة الأول أن يأتوا بسورة من مثله. و رغم أن آيات الإعجاز تصل من حيث العدد إلى حوالى خمس القرآن (أكثر من ألف آية)، إلا أن عملية تعداد آيات الإعجاز بمعناه الشمولى لهو من العسر بمكان لأنه لا تكاد آية قرآنية واحدة تخلو منه. هناك كتب كثيرة تحدثت بوجه العموم، كما و أن بعضها تخصصى أخذ جانبا واحدا من جوانب العلم كالطب و الهندسة الوراثية و الأحلام و الجيولوجيا و الفلك و الرياضيات و غيرها فضلا عن المؤتمرات و المجلات و المطبوعات و الصحف و الحلقات المرئية و المسموعة و البحوث و المقالات العديدة التى أجريت و كتبت فى مختلف أنحاء العالم. و كان جراء كل هذه البركات إسلام عدد كبير من علماء الغرب من كافة الاختصاصات، كان ۳۰ منهم فقط فى مؤتمر الإعجاز العلمى العالمى الخامس الذى عقد فى قاعة غورباتشوف بموسكو عام ۱۹۹۳ م، ليشكل صفعة كبيرة توجه لأعداء اللّه مصداقا لقول اللّه تعالى: هُوَ الَّذِى أَرْسَلَ رَسُولَهُ، بِالْهُدى وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ، عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (۳۳)، (التوبة: ۳۳). و قوله صلّى اللّه عليه و سلم فى الحديث الذى يرويه لنا سيدنا على رضى اللّه عنه: (ألا إنّها ستكون فتنة فقلت ما المخرج منها يا رسول اللّه قال كتاب اللّه فيه نبأ ما كان قبلكم و خبر ما بعدكم و حكم ما بينكم و هو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبّار قصمه اللّه و من ابتغى الهدى فى غيره أضلّه الآثار و التاريخ، ص: ۶ اللّه و هو حبل اللّه المتين و نوره المبين و هو الذّكر الحكيم و هو الصّراط المستقيم هو الّذى لا تزيغ به الأهواء و لا تلتبس به الألسنة و لا تتشعب منه الآراء و لا يشبع

منه العلماء و لا يملّه الأتقياء و لا يخلق على كثرة الرّدّ و لا تنقضى عجائبه و هو الّذى لم تنته الجنّ إذ سمعته حتّى قالوا «إنّا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرّشد فآمنّا به» من علّم علمه سبق و من قال به صدق و من عمل به أجر و من حكم به عدل و من دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم) «۱» ... يقول الدكتور موريس بوكاى: (لقد أثارت هذه الجوانب العلمية التى يختصر بها الإسلام دهشتى العميقة فى البداية ... لم أكن أعتقد قط بإمكان اكتشاف عدد كبير إلى هذا الحد من الدعاوى الخاصة بموضوعات شديدة التنوع، و مطابقة تماما للمعارف العلمية الحديثة فى نص كتاب منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ... فى البداية لم يكن لى إيمان بالإسلام، و قد طرقت دراسة هذه النصوص بروح متحررة من كل حكم مسبق و بموضوعية تامة، و إذا كان هناك تأثير ما قد مورس فهو بالتأكيد تأثير التعاليم التى تلقيتها فى شبابى، حين لم تكن الغالبية تتحدث عن المسلمين و إنما المحمديين لتأكيد الإشارة إلى أنه دين أسسه رجل، فهو دين عديم القيمة تماما إزاء اللّه. و ككثيرين كان يمكن أن أظل محتفظا بتلك الأفكار الخاطئة عن الإسلام، و هى على درجة من الانتشار بحيث إننى أدهش دائما حين ألتقى خارج المتخصصين بمحدثين مستنيرين فى هذه النقاط. أعترف بأننى كنت جاهلا قبل أن تعطى لى عن الإسلام صورة تختلف عن تلك التى تلقيناها فى الغرب) «۲». لقد حاولت جاهدا فى هذا المسلسل أن أذكر جزءا يسيرا من صور الإعجاز العديدة مركزا على الحالات التى ظهرت مؤخرا فى العقدين المنصرمين لأن ما تم إنجازه فى هذا الصدد كبير بل و كبير جدا (______________________________. ۱) أخرجه الترمذى و قال حديث غريب و أخرجه الدارمى. (۲) دراسة الكتب المقدسة، د. موريس بوكاى، ص ۱۴. و انظر موسوعة الإعجاز العلمى فى الحديث النبوى الشريف، عبد الرحيم ماردينى،- ص ۳۳- ۳۴. الآثار و التاريخ، ص: ۷ و لا- يعنى هذا بأى حال من الأحوال أن ما سيذكر فى المسلسل هو كل ما موجود من سبق قرآنى لعلوم العصر الراهن، لأن القول بهذا هو عدم الإدراك لمفهوم الإعجاز القرآنى الذى لا تنقضى عجائبه و لا يشبع منه العلماء. و لكن لنا أن نقول بأنه قبسات أو ومضات من نور هذا الكتاب الذى شرفت هذه الأمة به، لذلك ارتأيت تسمية هذه السلسلة بهذا الاسم (ومضات إعجازية من القرآن و السنة النبوية)، و هى تشمل ومضة هنا و أخرى هناك من علم القرآن الواسع فى علوم عصرنا الراهن المليء بالمكتشفات و الحقائق المذهلة، و كأن اللّه تعالى قد أذن لنا بأن نصل لهذه المكتشفات ليقول للبشرية إن ما وصلتم إليه بإذنى قد أنزلته عليكم بكتابى فآمنوا به مصداقا لقوله تعالى سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَ وَ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۵۳)، (فصلت: ۵۳). لم أقصد من كتابة هذا المسلسل التدخل فى اختصاصات ليست لى، و إنما أردت منه توجيه عناية القارئ الكريم إلى تطابق كون اللّه المنظور و كونه المقروء (القرآن الكريم) من جهة، و كذلك ليتعرف القارئ الكريم على عظمة علوم القرآن و سبقه المذهل و تطرقه للعلوم المختلفة على شكل أمثال و إشارات و قصص. و كان كل ذلك اعتمادا على بحوث و دراسات قام بها باحثون و اختصاصيون عديدون كل فى مجال عمله و تخصصه جزاهم اللّه تعالى كل الخير عن دينه و كتابه و سنة حبيبه صلّى اللّه عليه و سلم. تم اختيار حقول علمية مختلفة كالآثار و التاريخ، المادة و الطاقة، علوم الفلك، علوم الأرض، البحار و المياه، السحب و الرياح، النبات، الحشرات و الحيوانات، علوم الطب، الهندسة الوراثية و الاستنساخ و علم الأجنة، الصيدلة و الأمراض، علم النفس، الأحلام و الباراسايكولوجى، الاقتصاد و الاجتماع، و أيضا السبق القرآنى و النبوى فى ما سيكون من أمر آخر الزمان و أهوال القيامة ... و كل ذلك مكتوب بشكل علمى رصين و أسلوب ميسر و مشوق معزز بصور فوتوغرافية و خرائط، و لكنه يظل غيضا من فيض و نقطة فى بحر محيط ليس له نهاية من إعجاز هذا القرآن الذى لا تنقضى عجائبه حتى قيام الساعة. يأتى هذا المسلسل بعد كتابى (المنظار الهندسى فى القرآن الكريم- ۸۵۰ صفحة) الآثار و التاريخ، ص: ۸ طبع و نشر دار المسيرة فى عمان و المتخصص بالسبق الهندسى بكل اختصاصاته و العددى و الرقمى فى القرآن الكريم، ثم كتاب (القرآن منهل العلوم- ۳۳۰ صفحة) طبع الجامعة الإسلامية ببغداد و المتخصص بتأصيل الإعجاز و شروطه و فقهه، فضلا عن كتب أخرى تم الاتفاق على طبعها من قبل الإخوة فى دار الكتب العلمية ببيروت مع هذا المسلسل فجزاهم اللّه ألف خير و من أخيهم، العبد الفقير إلى اللّه تعالى، المؤلف ألف شكر ... كذلك بعد الحلقات المرئية المسلسلة (آيات و حوار- ۳۰ حلقة-

) التى سجلتها مع الإخوة الأستاذ الدكتور أنيس الراوى و الأستاذ رعد الخزرجى و الشيخ الدكتور أحمد عبد الغفور السامرائى و الشيخ الدكتور محمد صالح السامرائى لمحطة راديو و تلفزيون العرب (TRA)- قناة الأوائل و قناة اقرأ الفضائيتين. و قد لاقت صدى و نجاحا طيبا فى جميع الدول العربية و الأجنبية التى عرضت فيها إذ أعيد عرضها لعدة مرات و ترجمت بعض حلقاته إلى لغات أجنبية و الحمد للّه رب العالمين. و كذلك حلقات (العلم فى القرآن- ٣٠ حلقة-) مع الأستاذ الدكتور أنيس الراوى لحساب قناة العراق الفضائية، و حلقات (سر الحديد- ٣٠ حلقة-) لحساب شركة كوديا للإنتاج الفنى. أسأل اللّه تعالى أن يكون عملى كله خير و أن يكون خالصا لوجهه الكريم ... و آخر دعوانا أن الحمد للّه رب العالمين و الصلاة و السلام على أشرف خلقه و صفوة أنبيائه سيدنا محمد النبى الأمين صلّى اللّه عليه و سلم و آله الطيبين الطاهرين و صحابته المجاهدين و من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. المؤلف بغداد- العراق ١۴٢۴ ه/ ٢٠٠٣ م

مقدمة كتاب الآثار و التاريخ

مقدمة كتاب الآثار و التاريخ قد يقول البعض إن الخوض فى قصص تتعلق بأقوام سبقوا من أقوام الأنبياء و غيرهم تطرقت إليها الكتب السماوية السابقة، فما وجه الإعجاز القرآنى فى هذا الموضوع. فنقول و باللّه التوفيق: ١- إن القرآن الكريم فصل فى هذه القصص بشكل لم يسبق إليه أى كتاب سبق، و أوضحت السنة المطهرة ما كان غامضا فى شرح الآيات. بل إن هناك حالات و دقائق لأمور لم تشر إليها الكتب السابقة و أشار إليها القرآن الكريم و فصلها، و هو الكتاب الذى لم و لن يحرف لأنه فى حفظ البارى عز و جل. ٢- هناك تناقضات واضحة و منافية للعقل و المنطق و لمنزلة الأنبياء الكرام عليهم السلام وردت، بل و حتى سوء أدب مع بعضهم فى النسخ التى وصلتنا من هذه الكتب، و هذا أكبر دليل على تحريف هذه الكتب من قبل أقوام لم يفهموا حقيقة التوحيد الذى أرسل به جميع الأنبياء عليهم السلام، فأتبعوا الدين لأهوائهم و شهواتهم، فحرفوا قصص الأنبياء بما لا يليق بهم أو بالمرسل تبارك و تعالى. و إنك لا تجد تشابها بين قصة و أخرى، و بين كتاب و آخر. بينما فى الكتاب العزيز أثبتت التنقيبات الآثارية و الرقم التاريخية دقة المعلومة القرآنية كما سنرى فى هذا الكتاب و فى هذه السلسلة عموما.

الفصل الأول سفينة نوح (عليه السّلام)

الفصل الأول سفينة نوح (عليه السّلام) ذكرت قصة سيدنا نوح عليه السلام فى التوراة و الإنجيل و القرآن. و لقد فصل القرآن الكريم هذه القصة فى سورة خاصة اسمها سورة نوح «١»، و كذلك فى آيات مباركات عديدات أخرى- ذكر كلمة نوح فى الكتاب العزيز فى ٣٣ آية- بدءا من بعثته عليه السلام إلى قومه و تكذيبهم إياه، و من ثم استمراره و صبره الطويل عليهم طيلة عمره الذى وصل إلى ٩٥٠ عاما كما صرح القرآن الكريم: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (١۴)، (العنكبوت: ١۴). و قد أثبت علميا أن الإنسان الأول كان أطول قامة و أطول عمرا من إنساننا الحالى لأسباب يطول شرحها. و قد حاول عليه السلام طيلة هذه الفترة الطويلة أن يقنع قومه- و كانوا من أهل العراق القديم- أن اللّه تعالى هو خالقهم و هو الأولى بالعبادة، و لكنهم صدوه و حاربوه و استهزءوا به و بأصحابه، فحذرهم من عاقبة أمرهم هذا: قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) (هود: ٣٢). و استمر صابرا عليهم حتى أوحى إليه أنه لا أمل من قومه: وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (٣۶) (هود: ٣۶). فدعا عليه السلام ربه أن ينصره على هؤلاء القوم الكافرين: كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ (٩) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) (القمر) .. قالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَ اتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مالُهُ

---

(١) انظر القصة كاملة فى الملحق (١). الآثار و التاريخ، ص: ١٢ وَ وَلَدُهُ إِلَّا خَساراً (٢١) (نوح: ٢١) .. وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى

الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (۲۶) (نوح: ۲۶). فأمره اللّه تعالى بصناعة السفينة، و كلما مر عليه نفر من قومه استهزءوا به، و لكنه توعدهم بأنهم سيندمون على هذا الأمر أى ندم: وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۳۷) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (۳۸) (هود). و أوحى له اللّه تعالى أن الماء سيغمر المكان و أن عليه أن يحمل أهله- إلا امرأته و ابنه- و أصحابه و من كل المخلوقات زوجين اثنين، فإذا استقر عليها حمد اللّه و شكره على فضله بنجاتهم من غضبه على القوم الكافرين: فَأَوْحَيْنا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا فَإِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۲۷) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۲۸) (المؤمنون). و حصل الطوفان الهائل الذى غطى منطقة ما بين النهرين بأسرها و غرق القوم و هم يستنجدون بعد أن أيقنوا بصدق ما جاءهم به نوح عليه السلام و لكن بعد فوات الأوان. و قد أثبتت البحوث الآثارية و الجيولوجية فى المنطقة و التى قامت بها عدة فرق علمية استكشافية من مختلف دول العالم من أن الغرين و الطمى فى المنطقة يدلل من غير أى شك على حصول طوفان عظيم فى الحقبة السومرية من تأريخ العراق القديم. و بعد انتهاء الأمر جاء أمر اللّه تعالى بتوقف تدفق الماء من السماء و من الأرض، فاستوت السفينة على جبل الجودى و هبط منها سيدنا نوح عليه السلام و من معه لتبدأ البشرية رحلة جديدة و بنفس القانون الإلهى الذى لا يتغير، هذا ما نص عليه القرآن الكريم: وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۴) (هود: ۴۴) ... قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا الآثار و التاريخ، ص: ۱۳ وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (۴۸) (هود: ۴۸). هذه التفاصيل ذكرت بعضها فى الكتب السماوية الأخرى و لكن ليس بهذا الأسلوب الرائع و هذه الدقة، فمثلا ذكر العهد القديم أن السفينة استقرت على جبل آرارات الواقع شرق الأناضول و الذى يقطنه أغلبية من الأرمن من سكان تركيا الحالية، بينما صرح القرآن الكريم أن الجبل هو الجودى و الذى يقع فى جنوب شرق الأناضول و كما سنوضح بالخرائط و الصور. هنا يبرز سؤالين مهمين: ۱. أيهما أدق؟. ۲. هل هناك اختلاف و الكتابين من عند اللّه تعالى؟. قامت عدة فرق بحثية علمية من مختلف الجنسيات العالمية تدين الديانة النصرانية بتتبع هذه المسألة حتى حصل الاكتشاف الذى حيرهم. إذ اكتشفوا أن سفينة نوح عليه السلام وجدت لها آثار فوق جبل فى تركيا و لكنه ليس جبل آرارات بل إنه جبل آخر اسمه جبل (الجودى)، فتحيروا و زادت حيرتهم و غضبهم معا عند ما علموا أن القرآن قد صرّح بهذا قبل مئات السنين، بل و أكد القرآن الكريم على أن السفينة بقيت و ستبقى كآية و دليل على صدق القرآن الكريم و على قدرة اللّه تعالى فى تعذيب الأقوام المكذبة و الجاحدة، فهل من معتبر؟. كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَ قالُوا مَجْنُونٌ وَ ازْدُجِرَ (۹) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (۱۰) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (۱۱) وَ فَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (۱۲) وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ (۱۳) تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (۱۴) وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۱۵) (القمر: ۹- ۱۵). فسأل سائل منهم قال (ما هذا القرآن؟)، فأجابه أحد القسيسين أنه كتاب اكتتبه رجل ادعى النبوة فى جزيرة العرب أخذ كلامه من الإنجيل، فزاد عجب الرجل، إذ كيف يأخذه من الإنجيل و ما موجود فى الإنجيل فيما يتعلق بهذه المسألة لا يطابق الواقع الذى توصلوا إليه بالبحث المضنى، بينما كان القرآن دقيقا فى تحديد الواقعة و المكان. كيف الآثار و التاريخ، ص: ۱۴ يمكن لرجل من أهل الصحراء أن يعلم كل هذا إذن؟. فكان هذا الرد البسيط من هذا الرجل أبلغ رد على من لا يعرف حقيقة التوحيد و عظمة الرسول صلّى اللّه عليه و سلم و يدعى أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قد اختط القرآن بيده- حاشاه- ناسخا من أحبار اليهود و قساوسة و رهابنة النصارى. إنه وحى اللّه تعالى و علمه الأزلى بالأشياء، إنه كتاب اللّه المعجز الذى لا يعتريه التحريف لأنه فى عهدة منزله سبحانه، أنظر إلى رد القرآن على أمثال هؤلاء المساكين: أَ فَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَ لَوْ كانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً (۸۲) (النساء: ۸۲) .. وَ لَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّما يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَ هذا لِسانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ (۱۰۳) (النحل: ۱۰۳) .. وَ ما كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتابٍ وَ لا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَارْتابَ الْمُبْطِلُونَ (۴۸) (العنكبوت: ۴۸). الخرائط و

المخططات المبينة أدناه توضح المنطقة التى رست فيها سفينة نوح عليه السلام- جبل الجودى- و الواقعة بين العراق و تركيا، و الفرق بينها و بين منطقة آرارات التى ذكرت فى العهد القديم و الواقعة شرق الأناضول قرب أرمينيا و غرب إيران، و المنظر مأخوذ من ثلاث ارتفاعات وصولاـ للبعد الذى يحدد المنطقة جغرافيا بالضبط. أما الصور التى تليها توضح الفريق البحثى الذى اكتشف المنطقة و حددها بالضبط. الآثار و التاريخ، ص: ۱۵ ارتفاع ۳۵۰۰ كم عن سطح الأرض ارتفاع ۱۵۰۰ كم عن سطح الأرض جبل آرارات منطقة المثلث العراقى- الإيرانى- التركى التى تحوى جبل الجودى جبل آرارات و جبل الجودى الآثار و التاريخ، ص: ۱۶ منطقة جبل الجودى جنوب شرق تركيا قرب الحدود مع العراق (المنطقة المحددة بالدائرة- ارتفاع ۱۰۰۰ كم عن سطح الأرض) منطقة جبل آرارات شرق الأناضول (منطقة إكدير قرب الحدود مع إيران و أرمينيا) كما حددتها موسوعة إنكارتا ۲۰۰۳ م (ارتفاع ۱۵۰ كم) الآثار و التاريخ، ص: ۱۷ لاحظ شكل السفينة على التراب من وسط إلى أسفل الصورة رجال من الفريق البحثى يقفون أمام إحدى الصخور التى كانت مرسى للسفينة بجنوب تركيا الآثار و التاريخ، ص: ۱۸ أشكال توضح آثار السفينة مع الفريق الآثارى الغربى الذى اكتشف موقع السفينة على جبل الجودى فى تركيا و كما صرح القرآن الكريم. و أما لما ذا هذا الاختلاف بين القرآن و الإنجيل و هما من عند اللّه تعالى؟، فهذا هو السبب الرئيسى لتعهد اللّه تعالى بحفظ القرآن الكريم من أن يعتريه ما اعترى الكتب الآثار و التاريخ، ص: ۱۹ السابقة من تدخل البشر و تحريفهم لها، فهذه هى طبيعة البشر و ديدنهم فى تحوير القوانين حتى السماوية منها وفق أهواءهم و شهواتهم رغم تحذير الأنبياء عليهم السلام لهم من مغبة ذلك، فالأنبياء عليهم السلام يبلغون رسالات ربهم للناس، و لكن الناس هم الذين يحرفون كلام اللّه و تعاليمه و يزيدون و ينقصون فى كتبه المنزلة عليهم حسب أهواءهم، و هذا بالضبط ما حصل للتوراة و الإنجيل. و قد صرح القرآن الكريم بهذه الحقيقة موبخا أصحابها و متوعدا إياهم بالويل و الثبور: فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هذا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَ وَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ (۷۹)، (البقرة: ۷۹). أما القرآن الكريم فلا يمكن أن يتبدل و يحرف رغم كل محاولات اليهود القديمة و الحديثة بذلك، كيف لا و قد تعهد بحفظه الرحمن الرحيم الذى أنزله على رسوله: إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَ إِنَّا لَهُ لَحافِظُونَ (۹) (الحجر: ۹).

الفصل الثانى قوم لوط (عليه السّلام)

الفصل الثانى قوم لوط (عليه السّلام) لعل فى قصة قوم لوط التى ذكرت فى القرآن الكريم «۱» فى سور عدة ما يدفع إلى العجب، و قد يشكك الإنسان لوهلة مما ورد فى هذه القصة من آيات و أحاديث و هى مذكورة فى كتب التفاسير و كتب قصص الأنبياء. و ما يهمنا هنا هو ما حصل من عقاب إلهى لقوم هذه القرية و هى قرية سدوم فى منطقة تسمى عمق السديم بأرض الأردن قرب البحر الميت و الذى يسمى ببحر لوط أيضا بسبب ما فعلوه من أعمال قبيحة خبيثة تأباها النفس البشرية، و قد حذرهم منها سيدنا لوط عليه السلام إلا أنهم لم يأبهوا بتحذيره بل و تحدوه أن يأتيهم بالعذاب الذى يعدهم به، بل و هددوه بالقتل رجما بالحجارة إن هو لم يكف عن دعوته. عند ذلك دعا لوط ربه أن ينجيه و أهله مما يعملون فأنجاه اللّه و أهله إلا امرأته كانت من الغابرين فهلكت مع قومها الذين أهلكهم اللّه بالصيحة كما قال تعالى فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (۷۳) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (۷۴) (الحجر) «۲». فقد أرسل اللّه تعالى الملائكة بهيئة بشر و قالوا له أن العذاب سيأتى على قومه فى الصباح فحمل سيدنا جبريل عليه السلام الأرض و هم نائمون (أى أرض سدوم) و قلبها جاعلا عاليها سافلها بينما أهل لوط أمروا بالخروج من المدينة و عدم الالتفات إذا سمعوا الصيحة، إلا أن امرأته التفتت فأصابها ما أصاب قومها جزاء لها بعدم طاعتها لنبى اللّه لوط عليه السلام. فيا ترى هل يعقل أن تقتطع جزء من الأرض و تقلب على عكسها كما جاء فى القصة؟. هذا ما أثبتته الأبحاث الآثارية و الجيولوجية فعلا، فقد أثبتت أن طبقات الأرض (

____

۱) لاحظ القصة كاملة فى الملحق (۲). (۲) المستفاد من قصص القرآن، د. عبد الكريم زيدان، ج/ ۱، ص ۲۳۱.

الفصل الثالث جثة فرعون مصر

الفصل الثالث جثة فرعون مصر «۱» ثم تأتى قصة فرعون المعروفة و تحديه لسيدنا موسى عليه السلام حتى أغرقه اللّه فى البحر الأحمر بعد أن جيش جيشا لاحق به سيدنا موسى عليه السلام و من آمن معه لكى ينالوا منهم و عند ما وصل القوم إلى البحر الأحمر و الجيش وراءهم ظنوا أنهم هالكون إلا أن سيدنا موسى دعا اللّه أن ينجيهم، ففتح اللّه البحر لهم نصفين من الماء كل نصف كالجبل الكبير و عبر موسى عليه السلام و من معه فى ممر يابس غير مبلل أو رطب: وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِي الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى (۷۷)، (سورة طه: ۷۷)، فحاول فرعون و من معه اللحاق بهم حتى اذا عبر قوم موسى كلهم أطبق البحر على جيش فرعون و غرقوا كلهم و طافت جثة فرعون على البحر ثم أخذت و حنطت و هذا ما ذكره القرآن الكريم فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَ إِنَّ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آياتِنا لَغافِلُونَ (۹۲)، (يونس: ۹۲). و قد كان هذا الفرعون المقصود بالآية مجهولا حتى اكتشف مؤخرا أن الفرعون المحنط فى متاحف القاهرة فى أنفه حبات رمل عند ما أخذت و فحصت وجد أنها من حبات رمل البحر الأحمر و هو البحر الذى عبر به موسى مع قومه من مصر إلى الشام.

(____۱) راجع قصة سيدنا موسى عليه السّلام كاملة فى الملحق (۳). الآثار و التاريخ، ص: ۲۳ صورة لتابوت الفرعون مع صورة بالأشعة السينية لها. الآثار و التاريخ، ص: ۲۴ جثة فرعون موسى التى تركها اللّه تعالى آية لكل معتبر فقد كشفت مجلة بارى ماتش الفرنسية الصادرة مؤخرا أن فريقا طبيا فرنسيا يتكون من ۱۱۲ طبيبا أعلنوا أن فرعون مصر فى زمن موسى عليه السلام مات غرقا كما أخبر الآثار و التاريخ، ص: ۲۵ بذلك القرآن الكريم قبل أكثر من ۱۴۰۰ سنة .. أعلنت ذلك الدكتورة كريستسن نيلكوت رئيسة الفريق الطبى الفرنسى، و أضافت أن الفحوص التى أجريت على جثة فرعون المعروضة الآن فى المتحف المصرى أثبتت وجود حبيبات رملية بحرية و صحراوية على جسده و شعره و وجود فطريات على جلده سببت تآكلا- تم علاجه بالأشعة ليبقى بدنه فى ذمة الخلود كما أخبر اللّه تعالى عنه. و قوله تعالى: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً. قال ابن عباس و غير واحد: شك بعض بنى إسرائيل فى موت فرعون، حتى قال بعضهم: إنّه لا- يموت، فأمر اللّه البحر فرفعه على مرتفع، قيل: على وجه الماء، و قيل: على نجوة من الأرض، و عليه درعه التى يعرفونها من ملابسه ليتحققوا بذلك هلاكه و يعلموا قدرة اللّه عليه، و لهذا قال: فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ أى مصاحبا درعك المعروفة بك لِتَكُونَ أى أنت آية لِمَنْ خَلْفَكَ أى من بنى إسرائيل، دليلا على قدرة اللّه الذى أهلكه. و لهذا قرأ بعض السلف: لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً، و يحتمل أن يكون المراد ننجيك مصاحبا لتكون درعك علامة لمن وراءك من بنى إسرائيل على معرفتك و أنك هلكت، و اللّه أعلم، و قد كان هلاكه و جنوده فى يوم عاشوراء، كما قال الإمام البخارى فى صحيحه: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبة، عن أبى بشر، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قدم النبى صلّى اللّه عليه و سلم المدينة و اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: (ما هذا اليوم الذى تصومونه؟)، فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: (أنتم أحق بموسى منهم فصوموا). و أصل الحديث فى الصحيحين و غيرهما، و اللّه أعلم «۱». و جدير بالذكر أن فرعون الذى لاحق بقواته موسى عليه السلام و اتباعه حتى ساحل البحر الأحمر فانفلق البحر ليمر من خلاله المؤمنون ثم انطبق مغرقا فرعون و أتباعه يدعى (منفتاخ بن رمسيس الثانى) الذى اكتشفت جثته فى حفريات الأقصر عام____

(۱) لاحظ الملحق (۳). الآثار و التاريخ، ص: ۲۶ ۱۹۰۰ من قبل علماء الآثار فى قبر لم يكن مهيئا لمثله أبدا، و فسر العلماء ذلك أن المصريين لم يهيئوا له قبر لأنهم لم يكونوا يتوقعون موته نتيجة لادعائه الألوهية و تصديقهم له بالمقابل. و جاءت كشوف الفريق الطبى مؤخرا بناء على طلب علمى فرنسى لإجراء العناية اللازمة بالأشعة و الأجهزة المتطورة لتلافى بعض الضرر الحاصل على جثة فرعون من جراء هذا الزمن الطويل الذى يزيد على أربعة آلاف سنة منذ حادث الغرق، و كل ذلك مصداق للقرآن الكريم الذى ذكر

أن جثة فرعون ستبقى فى ذمة الخلود بعيدا عن التلف، كآية من آيات اللّه تعالى فى خلقه.

الفصل الرابع قصة أصحاب الكهف

الفصل الرابع قصة أصحاب الكهف ذكر محمد بن إسحاق سبب نزول هذه السورة فقال: (حدثنى شيخ من أهل مصر قدم علينا منذ بضع و أربعين سنة، عن عكرمة، عن ابن عباس قال "بعثت قريش النضر بن الحارث، و عقبة بن أبى معيط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وصفوا لهم صفته، و أخبروهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول، و عندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ... فخرجا حتى أتيا المدينة فسألوا أحبار يهود عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و وصفوا لهم أمره و بعض قوله، و قالا: إنكم أهل التوراة، و قد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا. قال: فقالوا لهم: سلوه عن ثلاث نأمركم بهن. فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل، و إلا فرجل متقول تروا فيه رأيكم: سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول. ما كان من أمرهم؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب. و سلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض و مغاربها. ما كان نبؤه؟، و سلوه عن الروح ما هو؟، فإن أخبركم بذلك فهو نبى فاتبعوه، و إن لم يخبركم فإنه رجل متقول فاصنعوا فى أمره ما بدا لكم ... فأقبل النضر و عقبة حتى قدما على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم و بين محمد. قد أمرنا أحبار يهود أن نسأله عن أمور ... فأخبروهم بها. فجاءوا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقالوا: يا محمد أخبرنا ... فسألوه عما أمروهم به. فقال لهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: (أخبركم غدا عما سألتم عنه)،- و لم يستثن- فانصرفوا عنه. و مكث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم خمس عشرة ليلة لا يحدث اللّه له فى ذلك وحيا، و لا يأتيه جبريل عليه السلام، حتى أرجف أهل مكة؛ و قالوا: وعدنا محمد غدا، و اليوم خمس عشرة قد أصبحنا فيها لا يخبرنا بشىء عما سألناه عنه. و حتى أحزن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مكث الوحى عنه؛ و شق عليه ما يتكلم به أهل مكة. ثم جاءه جبريل عليه السلام من اللّه عز و جل بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم، و خبر ما سألوه عنه من أمر الفتية، و الرجل الطواف، و قول اللّه عز و جل (و يسألونك عن الروح ...) الآية. الآثار و التاريخ، ص: ٢٨ هذه رواية ... و قد وردت عن ابن عباس- رضى اللّه عنهما- رواية أخرى فى سبب نزول آية الروح خاصة، ذكرها العوفى. و ذلك أن اليهود قالوا للنبى صلّى اللّه عليه و سلم: أخبرنا عن الروح، و كيف تعذب الروح التى فى الجسد و إنما الروح من اللّه؟ و لم يكن نزل عليه شىء، فلم يحر إليهم شيئا، فأتاه جبريل عليه السلام بالوحى الكريم من قوله تعالى: وَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ ما أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا (٨٥)، (الإسراء: ٨٥) .. إلى آخر الرواية. فى قصة أصحاب الكهف ما يبعث على العجب كما وصفهم اللّه تعالى: أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الْكَهْفِ وَ الرَّقِيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً (٩)، (الكهف: ٩). فهم كما هو معروف فتية ذكرهم القرآن جاعلا من عددهم محل جدل كبير اختلف فيه كثيرا حتى أثبت مؤخرا تطابقه مع ما جاء فى القرآن الكريم. مدخل باب الكهف الآثار و التاريخ، ص: ٢٩ أما مكانهم فظل مجهولا حتى اكتشف مؤخرا، حيث تقول الآيات الكريمات فى سورة الكهف أنهم مجموعة من الشباب هربوا من قومهم لما رأوهم على الباطل و دخلوا كهفا يعبدون اللّه تعالى فيه و معهم كلبهم، فأنامهم اللّه ثلاثمائة و تسع سنين ثم بعثهم اللّه من نومهم ليجعلهم لأهل زمانهم آية على قدرة اللّه على البعث بعد الموت، و بنوا عليهم مسجدا ليجعلوه آية للناس. و قد اختلف فى عددهم و مدة لبثهم فى الكهف، فلما عجز المفسرون عن ذلك قالوا أن اللّه أعلم بهم و بمدتهم و عددهم و مكانهم، حيث قال اللّه تعالى عن قصة هؤلاء الشبيبة: وَ تَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً وَ هُمْ رُقُودٌ وَ نُقَلِّبُهُمْ ذاتَ الْيَمِينِ وَ ذاتَ الشِّمالِ وَ كَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً وَ لَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً (١٨) وَ كَذلِكَ بَعَثْناهُمْ لِيَتَسائَلُوا بَيْنَهُمْ قالَ قائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قالُوا لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَ لْيَتَلَطَّفْ وَ لا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً (١٩) إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَ لَنْ تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً (٢٠) وَ كَذلِكَ أَعْثَرْنا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ أَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فِيها إِذْ يَتَنازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً (٢١)

سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلا تُمارِ فِيهِمْ إِلَّا مِراءً ظاهِراً وَ لا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً (۲۲)، (الكهف). و قد ظل الجدال قائما بين المفسرين حول عددهم و مكانهم و صدق اللّه القائل ... ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ...، فقد توصل فريق بحثى آثارى فى الأردن عام ۱۹۶۳ م إلى اكتشاف الكهف الخاص لأصحاب الرقيم فى مدينة الرقيم الأردنية التى تبعد ۷ كم عن عمان الحالية (فيلادلفيا قديما)، و كذلك المسجد الذى بنى عليهم و وجد فيه ثمانية قبور الآثار و التاريخ، ص: ۳۰ مع صورة تمثل شكل كلب على جدران الكهف «۱»، و إذا ما لاحظت الآية الكريمة فإنها تذكر ... سَيَقُولُونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَ يَقُولُونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالْغَيْبِ ..، أى أن كلامهم غير مبنى على أسس علمية أو يقين ثابت، لكنه عند ما ذكر ... وَ يَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَ ثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ...، فالواو هنا واو الابتداء و عند العرب الأرقام بعد الرقم ۷ تضاف الواو لها فتسمى واو الثمانية كما فى قوله تعالى من سورة الحاقة: سَخَّرَها عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيالٍ وَ ثَمانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيها صَرْعى كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ (۷). ثم اتبع القرآن الكريم سرد القصة بقوله تعالى: ... قُلْ رَبِّى أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِمْ ما يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ...، قال سيدنا ابن عباس رضى اللّه عنه (أنا من هؤلاء القليل). يقول السيوطى فى الإتقان (ج ۲/ ص ۳۸۹): (أصحاب الكهف تمليخا و هو رئيسهم و القائل فابعثوا أحدكم بورقكم و القائل فأووا إلى الكهف و القائل ربكم أعلم بما لبثتم، و تكسلمينا و هو القائل كم لبثتم، و مرطوش و براشق و أيونس و أريسطانس و شلططيوس) ... و يقول رحمه اللّه تعالى أيضا فى مكان آخر (ج ۲/ ص ۴۷۰): (و المنقول إما عن المعصوم صلّى اللّه عليه و سلم أو غيره، و منه ما يمكن معرفة الصحيح منه من غيره، و منه ما لا يمكن ذلك. و هذا القسم الذى لا يمكن معرفة صحيحه من ضعيفه عامته مما لا فائدة فيه و لا حاجة بنا إلى معرفته و ذلك كاختلافهم فى لون كلب أصحاب الكهف و اسمه و فى البعض الذى ضرب به القتيل من البقرة و فى قدر سفينة نوح و خشبها و فى اسم الغلام الذى قتله الخضر و نحوه) ... و فى التبيان فى تفسير غريب القرآن نقرأ (ج ۱/ ص ۲۷۱): (الرقيم لوح كتب فيه خبر أصحاب الكهف و نصب على باب الكهف، و يقال إنه اسم الوادى الذى فيه الكهف).

(____ ۱) تذكر الموسوعة البريطانية أن أهل الكهف موجودون فى تركيا. الآثار و التاريخ، ص: ۳۱ شكل يوضح بعض قبور أهل الكهف و الرقيم الذى قصة لنا القرآن الكريم اكتشف فى الأردن لقد حصل اكتشاف الكهف عام ۱۹۶۳ م، و هو غيب لم يعرف إلا بعد أكثر من ۱۴۰۰ عام من نزول القرآن الكريم. و من اللطائف أن صاحب كتاب خوارق الإبداع (شقيقه قره كله) ذكر أن أفلاطون شاهد السجن الرهيب الذى كان (رئيس) الطاغية الآثار و التاريخ، ص: ۳۲ يسجن أعداءه عند ما زار (سيراكوسا)، و قد اكتشف ذلك عيانا بيانا و كما أسلفنا. و فى قصة أصحاب الكهف أيضا سبق قرآنى من نوع آخر، و هو السبق العددى المتعلق بفرق السنين الشمسية عن القمرية، فقوله تعالى بعد ما حدد مدة النوم ب ۳۰۰ عام .. وَ ازْدَادُوا تِسْعاً ..، يبين لأهل الحساب و الفلك بما لا يدع مجالا للشك الفرق الزمنى بين التقويمين، فالسنة القمرية تقل عن الشمسية بحوالى ۱۱ يوما، و عند حساب مدة ۳۰۰ عام تجد أن الفرق بين التقويمين لهذه المدة هو بالضبط ۹ سنوات، فسبحان اللّه الذى أحصى كل شىء عددا، و ما أعظم شأن هذا الكتاب الذى لا يغادر صغيرة و لا كبيرة إلا أحصاها و عدّها عدّا.

الفصل الخامس دلائل تأريخية أخرى

اشارة

الفصل الخامس دلائل تأريخية أخرى أكد القرآن الكريم على حقائق تاريخية لم تكن معروفة فى زمن الرسالة بل اكتشفت فى وقت متأخر مثل: أ- إن أهل مصر كانوا يسمون حاكمهم فرعون عند ما يكون مصريا و يسمونه ملكا عند ما يكون من غير مصر، كما كان

فى زمن سيدنا يوسف عليه السّلام حيث كان حاكم مصر هكسوسيا. ب- أن الزوج فى مصر القديمة كان يسمى سيد و أن الوزير كان يسمى العزيز و هذا واضح فى سورة يوسف و أيدته الأبحاث الحديثة. ج- أن عادا و ثمود ليستا أساطير بل أنهما مذكورتان فى تاريخ بطليموس. د- فى قصة ملكة سبأ (بلقيس) مع النبى سليمان عليه السلام التى أوردها القرآن الكريم جاءت القصة لتشمل تفاصيل لم ترد فى الكتب السماوية السابقة كقصة تفقد سيدنا سليمان للجيش العرمرم الذى كان يملكه من الحيوان و الجن فضلا عن جنود الإنس، و منها قصة الهدهد و قصة الصافنات الجياد و غيرها: وَ وَرِثَ سُلَيْمانُ داوُدَ وَ قالَ يا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَ أُوتِينا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هذا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ (۱۶) وَ حُشِرَ لِسُلَيْمانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ وَ الطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ (۱۷) حَتَّى إِذا أَتَوْا عَلى وادِ النَّمْلِ قالَتْ نَمْلَةٌ يا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَساكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمانُ وَ جُنُودُهُ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۸) فَتَبَسَّمَ ضاحِكاً مِنْ قَوْلِها وَ قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَ عَلى والِدَيَّ وَ أَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَ أَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبادِكَ الصَّالِحِينَ (۱۹) وَ تَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقالَ ما لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كانَ مِنَ الْغائِبِينَ (۲۰)، (النمل) ... إِذْ عُرِضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِناتُ الْجِيادُ (۲۱)، (ص: ۳۱). الآثار و التاريخ، ص: ۳۴ و قد أثبت فريق بحثى عالمى مكون من عالم الآثار ويندول فيليبس و من بعده اخته ميدلين فيليبس مع فريق بحثى متخصص من جامعة كليغارى الكندية من إثبات تفاصيل القصة و تطابق التحريات الآثارية مع مجريات عديدة منها.

و قد تنبأ القرآن بحوادث وقعت فعلا:

اشارة

و قد تنبأ القرآن بحوادث وقعت فعلا: أ- انتصار الروم على الفرس بعد أن هزموا أمامهم و حدد لذلك بضع سنين و تحقق النصر مثل ما ذكر فى القرآن فى سورة الروم بالتحديد بقوله تعالى: الم (۱) غُلِبَتِ الرُّومُ (۲) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (۳) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (۴) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۵) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۶)، (الروم) ... نقرأ بعض ما قاله أهل التفسير رحمهم اللّه تعالى فى هذه الآية المباركة: ۱. فى إعجاز القرآن (ج ۱/ ص ۴۸) ما نصه: (فأما الفصل الذى بدأنا بذكره من الإخبار عن الغيوب و الصدق و الإصابة فى ذلك كله فهو كقوله تعالى قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۶) (الفتح: ۱۶)، فأغزاهم أبو بكر و عمر رضى اللّه عنهما إلى قتال العرب و الفرس و الروم. و كقوله تعالى الم (۱) غُلِبَتِ الرُّومُ (۲) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (۳) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (۴)، و راهن أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه فى ذلك و صدق اللّه وعده. و كقوله فى قصة أهل بدر وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ يَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (۷) (الأنفال: ۷) .. و كقوله تعالى سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَ يُوَلُّونَ الدُّبُرَ (۴۵)، (القمر: ۴۵) .. و كقوله تعالى لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَ مُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ الآثار و التاريخ، ص: ۳۵ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (۲۷)، (الفتح: ۲۷) ... و كقوله تعالى وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۵۵) (النور: ۵۵)، و صدق اللّه تعالى وعده فى ذلك كله .. و قال فى قصة المخلفين عنه فى غزوته فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلى طائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَ لَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخالِفِينَ (۸۳)، (التوبة: ۸۳)، فحق ذلك كله و صدق و لم يخرج من المنافقين الذين خوطبوا

بـذلك معه أحد). ۲. فى مناهـل العرفـان (ج ۲/ ص ۲۶۸) مـا نصه: (و أمـا غيب المسـتقبل فنمثل له بأمثلـة عشـرة، المثال الأول إخبار القرآن عن الروم بأنهم سينتصرون فى بضع سنين من إعلان هذا النبأ الذى يقول اللّه فيه الم (۱) غُلِبَتِ الرُّومُ (۲) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَ هُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (۳) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ بَعْدُ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (۴) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۵) وَعْدَ اللَّهِ لا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَ لكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (۶)، (الروم) .. و بيـان ذلك أن دولـة الرومان و هى مسـيحية كانت قـد انهزمت أمام دولـة الفرس و هى وثنية فى حروب طاحنة بينهما سـنة ۶۱۴ م فاغتم المسـلمون بسبب أنها هزيمة لدولة متدينة أمام دولـة وثنية و فرح المشـركون و قالوا للمسـلمين فى شـماتة العدو إن الروم يشـهدون أنهم أهل كتاب و قد غلبهم المجوس و أنتم تزعمون أنكم ستغلبون بالكتاب الذى أنزل عليكم فسنغلبكم كما غلبت فارس الروم فنزلت الآيات الكريمة يبشر اللّه فيها المسلمين بأن هزيمـة الروم هـذه سـيعقبها انتصار فى بضع سـنين أى فى مـدة تتراوح بين ثلاثة سـنوات و تسع و لم يك مظنونا وقت هذه البشارة أن الروم تنتصـر على الفرس فى مثل هـذه المـدة الوجيزة بل كانت المقـدمات و الأسـباب تأبى ذلك عليها لأن الحروب الطاحنة أنهكتها حتى غزيت فى عقر الآثار و التاريخ، ص: ۳۶ دارها كما يـدل عليه النص الكريم فى أدنى الأرض و لأن دولة الفرس كانت قوية منيعة و زادها الظفر الأخير قوة و منعـة حتى إنه بسـبب اسـتحالة أن ينتصـر الروم عادة أو تقوم لهم قائمة راهن بعض المشـركين أبا بكر على تحقق هذه النبوءة و لكن اللّه تعالى أنجز وعده و تحققت نبوءة القرآن سنة ۶۲۲ م الموافقة للسنة الثانية من الهجرة المحمدية و مما هو جدير بالذكر أن هذه الآية نفسها حملت نبوءة أخرى و هى البشارة بأن المسلمين سيفرحون بنصر عزيز فى هذه الوقت الذى ينتصر فيه الروم و يومئـذ يفرح المؤمنون بنصـر اللّه و لقـد صـدق اللّه وعـده فى هـذه كما صـدقه فى تلك و كان ظفر المسـلمين فى غزوة بـدر الكبرى واقعا فى الظرف الـذى صـدر فيه الرومان). و فى هـذه الآية المباركة إعجاز من نوع آخر، و هو جيولوجى و طبوغرافى، إذ أن منطقـة الأحـداث الـتى وقعت فيهـا المعركـة و هو قريبـة من البحر الميت تعتبر أخفض منطقـة فى العـالم عن مستوى سـطح البحر كما اكتشف حـديثا الأمر الـذى أخبر عنه القرآن الكريم بقوله تعالى فِي أَدْنَى الْأَرْضِ ..، أى أخفضـها، فسـبحان اللّه. ب- منذ سـنة ۳۰۰ م إلى أن دخـل الإسـلام فى اليمن- أى بعـد هـذا التأريـخ بمـا يزيـد على الثلاثـة قرون و نصف- عرفت الدولـة فى هـذا العهـد بالـدولة الحميريـة الثانيـة، و فى هـذا العهـد توالت عليهـا الاضـطرابات و الحوادث، و تتابعت الانقلابات و الحروب الأهليـة التى جعلتها عرضـة للأجانب كالرومان الـذين دخلوا عدن، و بمعونتهم دخل الأحباش لأول مرة إلى البلاد عام ۳۴۰ م، مستغلين التنافس بين قبيلتى همدان و حمير، و اسـتمر احتلالهم حتى عام ۳۷۸ م، ثم نالت اليمن اسـتقلالها. لكن سد مأرب بدأ بالتصدع حتى وقع السيل العظيم الذى دمر المنطقة بأسـرها و شرد أهلها عام ۴۵۰ م أو ۴۵۱ م، و هـذه الحادثة ذكرها القرآن العظيم فى سورة سـبأ بقوله تعالى: فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَ بَدَّلْناهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَواتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَ أَثْلٍ وَ شَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (۱۶)، (سبأ: ۱۶). و فى سنة ۵۲۳ م قاد ذو نواس اليهودى حملة على النصارى من أهل نجران، و حاول صـرفهم عن النصـرانية قسـرا، و لما أبوا شق لهم الأخدود العظيم و أضـرم النيران فيه و ألقاهم الآثار و التاريـخ، ص: ۳۷ فيها ظلما و عـدوانا، و هذه القصة فصـلها القرآن الكريم فى سورة خاصة لأهميتها و هى سورة البروج بقوله تعالى: قُتِلَ أَصْحابُ الْأُخْدُودِ (۴) النَّارِ ذاتِ الْوَقُودِ (۵) إِذْ هُمْ عَلَيْها قُعُودٌ (۶) وَ هُمْ عَلى ما يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ (۷) وَ مـا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (۸) الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (۹). و إثر ذلـك نقم الرومان على ملك اليمن اليهودى و ساعـدوا الأحباش على غزوها ثانيـة فكان لهم ذلك بقيادة أرياط عام ۵۲۵ م، و استمر حكمه عليها حتى اغتاله أحد قواده أبرهة بن الأشرم عام ۵۴۹ م، و حكم بدله اليمن بعد أن استرضى ملك الحبشة، و هذا الأشرم نفسه الذى أراد هدم الكعبة لصرف العرب عن قدسيتها، فجيش الجيوش و على رأسها فيل عظيم و سار بالجيش حتى وصل مشارفها، فسلط اللّه تعالى عليه الطير الأبابيل التى قضت عليه و على جيشه الباغى، و هذا العام سمى عام الفيل و هو العام الذى ولد فيه المصطفى صلّى اللّه عليه و سلم. هـذه الحادثـة ثبتهـا القرآن الكريم بسورة خاصـة لأهميتهـا أيضا هى سورة الفيل بقوله تعالى «۱»: أَ لَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحابِ الْفِيلِ (۱) أَ لَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ (۲) وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبابِيلَ (۳) تَرْمِيهِمْ بِحِجارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ (۴) فَجَعَلَهُمْ

كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ (٥). و هكذا يثبت القرآن الكريم هذه الأحداث التاريخية المتفاوتة و الممتدة من مبعث سيدنا عيسى عليه السلام و حتى الولادة المباركة لسيدنا محمد صلّى اللّه عليه و سلم. ج- إن الرسول صلّى اللّه عليه و سلم سيدخل مكة منتصرا، و أن اللّه سيظهر دينه كله فى آفاق الأرض، و أن الدين سيكتمل و ينتشر «٢» ... و هذا ما نجده مشخصا بجلاء فى الآية المباركة وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً وَ مَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ فَأُولئِكَ هُمُ (____١) الرحيق المختوم للمباركفورى، ص ٢٤- ٢٥ بتصرف. (٢) انظر كتابنا (القوانين القرآنية للحضارات)، ففيه تفاصيل واسعة و مهمة فى هذا الموضوع. الآثار و التاريخ، ص: ٣٨ الْفاسِقُونَ (٥٥)، (النور: ٥٥) ... أى أن اللّه تعالى وعد بأمر لا يخلف و هو أنه يمكن الأمة لتستخلف الأرض و ما فيها من أمم و قرى و ينقلهم من الخوف و الذل إلى الأمن و العز بالنصر، و لكن لمن؟ للذى يطبق شروط النصر و إقامة الدين بكل حيثياته التى ذكرنا، ثم قال و من كفر أى لم يطبق ذلك فإن النتيجة ستكون الهزيمة لكل فاسق أدار ظهره لأوامر ربه. و قوله تعالى كما استخلف الذين من قبلهم مستمرة إلى يوم القيامة فلا يظنن أحد أن الآية تقتصر على من سبقنا من الأمم حسب، بل أن الأمر يتعدى إلى كونه قانونا آخر يتعلق بالأجيال المتلاحقة من هذه الأمة. و كأن اللّه تعالى يقول لنا قد تعهدت لكم بالنصر و تركت لكم مفتاح ذلك، فإن طبقتم الشرع جاءكم النصر و لو بتغيير النواميس الكونية، و إن أبيتم ذلك فلا تلومن إلا أنفسكم. لندخل فى تفاصيل تفسير هذا القانون القرآنى المهم فى هذه الآية الكريمة التى تحمل البشارات لهذه الأمة:

١. مناهل العرفان

١. مناهل العرفان: (ج ٢/ ص (٢٧١- ٢٧٢) المثال الخامس تنبأ القرآن بأن المستقبل السعيد ينتظر المسلمين فى وقت لم تكن عوامل هذا المستقبل السعيد مواتية ثم إذا تأويل هذا النبأ يأتى على نحو ما أخبر القرآن فى أقصر ما يكون من الزمان أجل إننا لنقرأ فى سورة الصافات المكية وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (١٧٣)، و فى سورة غافر المكية أيضا إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (٥١)، و كذلك نقرأ فى سورة النور المدينة وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضى لَهُمْ وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْناً، على حين أن سجلات التاريخ لا تزال تحفظ بين طياتها ما يشيب الوليد من ألوان الاضطهاد و الأذى الذى أصاب الرسول صلّى اللّه عليه و سلم و أتباعه فى مكة و المدينة على عهد نزول هذه الوعود المؤكدة الكريمة حتى لقد كان أكبر أمانى المسلمين بعد هجرتهم و تنفسهم الصعداء قليلا أن يسلم لهم دينهم و يعيشوا آمنين فى مهاجرهم كما يدل على ذلك ما صححه الحاكم عن أبى بن كعب قال لما قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أصحابه المدينة و آوتهم الأنصار الآثار و التاريخ، ص: ٣٩ رمتهم العرب عن قوس واحدة و كانوا لا يبيتون إلا بالسلاح و لا يصبحون إلا فيه فقالوا أ ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا اللّه فنزلت الآية و كذلك روى ابن أبى حاتم. و قال البراء نزلت هذه الآية و نحن فى خوف شديد أى قوله تعالى وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ ..، هكذا كان حال الصحابة أيام أن وعدهم اللّه ما وعد و ما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهى رغم هذه الحال المنافية فى العادة لما وعد فدالت الدولة لهم و استخلفهم فى أقطار الأرض و أورثهم ملك كسرى و قيصر و مكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم و أبدلهم من بعد خوفهم أمنا، يا لها نبوءة تأبى عادة أن يتحدث بها إلا من يملك تحقيقها و من يخرق إن شاء عادات الكون و نواميسه من أجلها إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَ يُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (٧)، وَ لَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ.

٢. التبيان فى إعراب القرآن

۲. التبيان فى إعراب القرآن (ج ۲/ ص ۱۵۹ قوله تعالى .. كَمَا اسْتَخْلَفَ ..، نعت لمصدر محذوف أى استخلافا كما استخلف قوله تعالى يعبدوننى فى موضع الحال من ضمير الفاعل فى .. لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ ..، أو من الضمير فى ليبدلنهم لا يشركون يجوز أن يكون حالا بدلا من الحال الأولى و أن يكون حالا من الفاعل فى يعبدوننى أى يعبدوننى موحدين.

۳. تفسير البيضاوى

۳. تفسير البيضاوى (ج ۴/ ص ۱۹۷– ۱۹۸) وعد اللّه الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات خطاب للرسول صلّى اللّه عليه و سلم و للأمة أوله و لمن معه و من للبيان ... لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ...، أى ليجعلنهم خلفاء متصرفين فى الأرض تصرف الملوك فى مماليكهم و هو جواب قسم مضمر تقديره وعدهم اللّه و أقسم ليستخلفنّهم أو الوعد فى تحقيقه منزل منزلة القسم كما استخلف الذين من قبلهم يعنى بنى إسرائيل استخلفهم فى مصر و الشام ببعد الجبابرة و قرأ أبو بكر بضم التاء و كسر اللام و إذا ابتدأ ضم الألف و الباقون بفتحهما و إذا ابتدءوا كسروا الألف و ليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم و هو الإسلام بالتقوية و التثبيت ... وَ لَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ ..، الآثار و التاريخ، ص: ۴۰ العداد و قرأ ابن كثير و أبو بكر بالتخفيف .. أَمْناً .. .. و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و أصحابه مكثوا بمكة عشر سنين خائفين ثم هاجروا إلى المدينة و كانوا يصبحون فى السلاح و يمسون فيه حتى أنجز اللّه وعده فأظهرهم على العرب كلهم و فتح لهم بلاد الشرق و الغرب، و فيه دليل على صحة النبوة للإخبار عن الغيب على ما هو به و خلافة الخلفاء الراشدين إذ لم يجتمع الوعود و الوعود عليه لغيرهم بالإجماع، و قيل الخوف من العذاب و الأمن منه فى الآخرة، يعبدوننى حال من الذين لتقيد الوعد بالثبات على التوحيد أو استئناف ببيان المقتضى للاستخلاف و الأمن، لا يشركون بى شيئا حال من الواو أى يعبدوننى غير مشركين من كفر و من ارتد أو كفر هذه النعمة بعد ذلك بعد الوعد أو حصول الخلافة فأولئك هم الفاسقون الكاملون فى فسقهم حيث ارتدوا بعد وضوح حصول هذه الآيات، أو كفروا تلك النعمة العظيمة. وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ آتُوا الزَّكاةَ وَ أَطِيعُوا الرَّسُولَ ..، فى سائر ما أمركم به و لا يبعد عطف ذلك على .. أَطِيعُوا اللَّهَ ..، فإن الفاصل وعد على المأمور به فيكون تكرير الأمر بطاعة الرسول صلّى اللّه عليه و سلم لتأكيد و تعليق الرحمة بها أو بالمندرجة هى فيه بقوله لعلكم ترحمون كما علق به الهدى.

۴. تفسير القرطبى

۴. تفسير القرطبى (ج ۱۲/ ص ۲۹۹– ۳۰۰) ... لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ...، و قوله ... كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ...، يعنى بنى إسرائيل و إذ أهلك اللّه الجبابرة بمصر و أورثهم أرضهم و ديارهم فقال و أورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض و مغاربها، و هكذا كان الصحابة مستضعفين خائفين ثم إنّ اللّه تعالى أمنهم و مكنهم و ملكهم فصح أن الآية عامة لأمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم غير مخصوصة، إذ التخصيص لا يكون إلا بخبر ممن يجب له التسليم و من الأصل المعلوم التمسك بالعموم. و جاء فى معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لما قال أصحابه أما يأتى علينا يوم نأمن فيه و نضع السلاح فقال عليه السلام (لا تلبثون إلا قليلا حتى يجلس الرجل منكم فى الملأ العظيم محتبيا ليس عليه حديدة)، و قال صلّى اللّه عليه و سلم (و اللّه ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا اللّه الآثار و التاريخ، ص: ۴۱ و الذئب على غنمه و لكنكم تستعجلون)، أخرجه مسلم فى صحيحه، فكان كما أخبر صلّى اللّه عليه و سلم فالآية معجزة النبوة لأنها إخبار عما سيكون .. فكان قوله تعالى ... لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ ...، فيه قولان أحدهما يعنى أرض مكة لأن المهاجرين سألوا اللّه تعالى ذلك فوعدوا كما و عدت بنو إسرائيل، قال معناه النقاش، الثانى بلاد العرب و العجم قال ابن العربى و هو الصحيح، لأن أرض مكة محرمة على المهاجرين كما قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم، لكن البائس سعيد بن خولة يرثى له رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أن مات بمكة و قال فى الصحيح أيضا (يمكث المهاجر بمكة بعد قضاء نسكه ثلاثا) و اللام فى ليستخلفنهم جواب قسم مضمر لأن الوعد قول مجازها، قال اللّه للذين

آمنوا و عملوا الصالحات و اللّه ليستخلفنهم فى الأرض فيجعلهم ملوكا و سكانها كما استخلف الذين من قبلهم يعنى بنى إسرائيل أهل الجبابرة بمصر و الشأم و أورثهم أرضهم و ديارهم .. و قراءة العامة كما استخلف بفتح التاء و اللام لقوله وعد و قوله ليستخلفنهم، و قرأ عيسى بن عمرو و أبو بكر و المفضل عن عاصم استخلف بضم التاء و كسر اللام على الفعل المجهول .. وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضى لَهُمْ ..، و هو الإسلام كما قال تعالى .. وَ رَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً .. .. و روى سليم بن عامر عن المقداد ابن الأسود قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول (ما على ظهر الأرض بيت حجر و لا مدر إلا أدخله اللّه كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل أما بعزهم فيجعلهم من أهلها و أما بذلهم فيدينون بها)، ذكره الماوردى حجة لمن قال إن المراد بالأرض بلاد العرب و العجم و هو القول الثانى على ما تقدم آنفا و ليبدلنهم .. قرأ ابن محيصن و ابن كثير و يعقوب و أبو بكر بالتخفيف من أبدل و هى قراءة الحسن و اختيار أبى حاتم الباقون بالتشديد من بدل و هى اختيار أبى عبيد لأنها أكثر ما فى القرآن الكريم.

۵. تفسير ابن كثير

۵. تفسير ابن كثير (ج ٣/ ص ٢٠٢- ٢٠٣) يقول تعالى مخبرا عما حتمه و قضاه لعباده الصالحين من السعادة فى الدنيا و الآخرة و وراثة الأرض فى الدنيا و الآخرة كقوله تعالى إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ، و قال إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَياةِ الآثار و التاريخ، ص: ٤٢ الدُّنْيا وَ يَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهادُ (٥١)، و قال وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَ عَمِلُوا الصَّالِحاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَ لَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِى ارْتَضى لَهُمْ ..، و أخبر تعالى أن هذا مسطور فى الكتب الشرعية و القدرية و هو كائن لا محالة و لهذا قال تعالى و لقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر. قال الأعمش سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ ..، فقال الزبور التوراة و الإنجيل و القرآن، و قال مجاهد الزبور الكتاب، و قال ابن عباس و الشعبى و الحسن و قتادة و غير واحد الزبور الذى أنزل على داود و الذكر التوراة، و عن ابن عباس الزبور القرآن، و قال سعيد بن جبير الذكر الذى فى السماء، و قال مجاهد الزبور الكتب بعد الذكر و الذكر أم الكتاب عند اللّه، و اختار ذلك ابن جرير رحمه اللّه، و كذا قال زيد بن أسلم هو الكتاب الأول، و قال الثورى هو اللوح المحفوظ، و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الزبور الكتب التى أنزلت على الأنبياء و الذكر أم الكتاب الذى يكتب فيه الأشياء قبل ذلك، و قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أخبر اللّه سبحانه و تعالى فى التوراة و الزبور و سابق علمه قبل أن تكون السماوات و الأرض أن يورث أمة محمد صلّى اللّه عليه و سلم الأرض و يدخلهم الجنة و هم الصالحون، و قال مجاهد عن ابن عباس أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِيَ الصَّالِحُونَ، قال أرض الجنة و كذا قال أبو العالية و مجاهد و سعيد بن جبير و الشعبى و قتادة و السدى و أبو صالح و الربيع بن أنس و الثورى، و قال أبو الدرداء نحن الصالحون، و قال السدى هم المؤمنون و قوله إِنَّ فِي هذا لَبَلاغاً لِقَوْمٍ عابِدِينَ (١٠٦)، أى إن فى هذا القرآن الذى أنزلناه على عبدنا محمد صلّى اللّه عليه و سلم لبلاغا لنفعه و كفاية لقوم عابدين و هم الذين عبدوا اللّه بما شرعه و أحبه و رضيه و آثروا طاعة اللّه على طاعة الشيطان و شهوات أنفسهم .. و قوله وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (١٠٧)، يخبر تعالى أن اللّه جعل محمدا صلّى اللّه عليه و سلم رحمة للعالمين أى أرسله رحمة لهم كلهم فمن قبل هذه الرحمة و شكر هذه النعمة سعد فى الدنيا و الآخرة و من ردها و جحدها خسر الدنيا و الآخرة كما قال تعالى أَ لَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْراً وَ أَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دارَ الآثار و التاريخ، ص: ٤٣ الْبَوارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَها وَ بِئْسَ الْقَرارُ (٢٩)، و قال تعالى فى صفة القرآن قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدىً وَ شِفاءٌ وَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذانِهِمْ وَقْرٌ وَ هُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولئِكَ يُنادَوْنَ مِنْ مَكانٍ بَعِيدٍ، و قال مسلم فى صحيحه ٢٥٩٩ عن أبى هريرة قال قيل يا رسول اللّه ادع على المشركين قال صلّى اللّه عليه و سلم (إنى لم أبعث لعانا و إنما بعثت رحمة)، انفرد بإخراجه مسلم، و فى الحديث الآخر (إنما أنا رحمة مهداة)، رواه عبد اللّه بن أبى عرابة و غيره عن وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعا، و كذا قال البخارى، قال الحافظ ابن عساكر و قد رواه مالك بن سعير بن الخمس عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة مرفوعا ثم ساقه من طريق أبى بكر ابن المقرئ و أبى أحمد

الحاكم كلاهما عن بكر بن محمد بن إبراهيم الصوفی .. و عن ابن عمر قال قال رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم (إن اللّه بعثنی رحمة مهداة بعثت برفع قوم و خفض آخرين). قال أبو القاسم الطبرانی عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال قال أبو جهل حين قدم مكة منصرفه عن خمره يا معشر قريش إن محمدا نزل يثرب و أرسل طلائعه و إنما يريد أن يصيب منكم شيئا فاحذروا أن تمروا طريقه و تقاربوه فإنه كالأسد الضاری إنه حنق عليكم لأنكم نفيتموه نفی القردان عن المناسم و اللّه إن له لسحرة ما رأيته قط و لا أحدا من أصحابه إلا رأيت معهم الشياطين و إنكم قد عرفتم عداوة ابنی قيلة يعنی الأوس و الخزرج فهو عدو استعان بعدو، فقال له مطعم بن عدی يا أبا الحكم و اللّه ما رأيت أحدا أصدق لسانا و لا أصدق موعدا من أخيكم الذی طردتم و إذ فعلتم الذی فعلتم فكونوا أكف الناس عنه، قال أبو سفيان بن الحارث كونوا أشد ما كنتم عليه إن ابنی قيلة إن ظفروا بكم لم يرقبوا فيكم إلّا و لا ذمة و إن أطعتمونی ألجأتموهم خير كنانة أو تخرجوا محمدا من بين ظهرانيهم فيكون وحيدا مطرودا و أما ابنا قيلة، فو اللّه ما هما و أهل دهلك فی المذلة إلا ـ سواء و أكفيكم حدهم و قال سأمنح جانبا منی غليظا علی ما كان من قرب و بعد رجال الخزرجية أهل ذل إذا ما كان هزل بعد جد، فبلغ ذلك رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم فقال (و الذی نفسی بيده لأقتلنهم و لأصلبنهم و لأهدينهم و هم كارهون إنی رحمة بعثنی اللّه و لا يتوفانی حتی يظهر اللّه دينه لی خمسة أسماء أنا محمد و أحمد و أنا الماحی الذی الآثار و التاريخ، ص: ۴۴ يمحو اللّه بی الكفر و أنا الحاشر الذی يحشر الناس علی قومی و أنا العاقب). قال أحمد بن صالح أرجو أن يكون الحديث صحيحا، و قال الإمام أحمد عن عمر بن أبی قرة الكندی قال كان حذيفة بالمدائن فكان يذكر أشياء قالها رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم فجاء حذيفة إلی سلمان فقال سلمان يا حذيفة إن رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم خطب فقال (أيما رجل سببته فی غضبی أو لعنته لعنة فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون و إنما بعثنی اللّه رحمة للعالمين فاجعلها صلاة عليه يوم القيامة)، و رواه أبو داود ۴۶۵۹ عن أحمد بن يونس عن زائدة فإن قيل فأی رحمة حصلت لمن كفر به فالجواب ما رواه أبو جعفر بن جرير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فی قوله وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (۱۰۷)، قال من آمن باللّه و اليوم الآخر كتب له الرحمة فی الدنيا و الآخرة، و من لم يؤمن باللّه و رسوله عوفی مما أصاب الأمم من الخسف و القذف. و هكذا رواه ابن أبی حاتم من حديث المسعودی عن أبی سعد و هو سعيد بن المرزبان البقال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فذكره بنحوه و اللّه أعلم. و قد رواه أبو القاسم الطبرانی عن عبدان بن أحمد عن عيسی بن يونس الرملی عن أيوب بن سويد عن المسعودی عن حبيب بن أبی ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وَ ما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ (۱۰۷)، قال من تبعه كان له رحمة فی الدنيا و الآخرة و من لم يتبعه عوفی مما كان يبتلی به سائر الأمم من الخسف و المسخ و القذف. إن هذه الآية العظيمة لوحدها تنبأ عن الأحداث بعد بعثة النبی صلّی اللّه عليه و سلم إلی قيام الساعة، إذ أن اللّه جازی بنی إسرائيل عند ما كانوا مؤمنين علی إيمانهم و صبرهم بأن أعطاهم أرض فلسطين و أورثهم إياها و عند ما كفروا أرسل عليهم من يسومهم سوء العذاب و انتزع منهم شرف حمل الرسالة و أعطاها لبنی إسماعيل، جد رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم، و هم العرب فوعدهم اللّه فی هذه الآية أن يستخلفهم الأرض فيملكوها من مشارقها إلی مغاربها ما أن تمسكوا بدين اللّه و كتابه و سنة رسوله صلّی اللّه عليه و سلم، و هذا ما حصل فعلا ففی سنين قليلة ملك المسلمون العالم القديم كله من شرقه إلی غربه و العالم القديم هو القارات الرئيسية الثلاث «أوربا و آسيا و إفريقيا»، ثم بعد ذلك عند ما ترك المسلمون كتاب اللّه وراء الآثار و التاريخ، ص: ۴۵ ظهورهم نزع عنهم هذا الشرف و تمكن الأعداء منهم فاحتلوا أرضهم و أذلوهم و سلبوا ديارهم و شرفهم. إذن، ما من حل لكل ما نمر به إلا بالعودة إلی اللّه لأن الوعد فی الآية الكريمة مستمر غير منقطع لقوله تعالی .. يَعْبُدُونَنِی لا يُشْرِكُونَ بِی شَيْئاً .. أی ما أن قاموا بهذا العمل و أخلصوا به فإن الوعد سيتحقق و هل من وعد أصدق من وعد اللّه؟، فهل نحن عائدون إلی اللّه لنحظی بنصره و إنجاز وعده؟، أم إننا استحببنا العمی علی الهدی و عبدنا أهواءنا و ملذاتنا و شهواتنا و تركنا اللّه و كتابه و سنة رسوله وراء ظهورنا و بذلك فقد أخلينا بالشرط الذی أشترطه اللّه علينا فكيف نرجو منه سبحانه أن يفی بوعده لنا و نحن من أخلف العهد معه؟. و يعضد هذا الوعد ما جاء فی آيات عديدة أخری تأتی فی نفس السياق، منها قول اللّه تعالی: يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِؤُا نُورَ اللَّهِ بِأَفْواهِهِمْ وَ يَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ

يُتِمَّ نُورَهُ وَ لَوْ كَرِهَ الْكافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣)، (التوبة) .. و يقول أيضا هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ كَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (٢٨)، (الفتح: ٢٨) ... و يؤكدها سبحانه ثالثة هُوَ الَّذِی أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدی وَ دِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٩)، (الصف: ٩) .. و كلمة (ليظهره) اللام سببية، أى ما جاء الإسلام إلا ليظهر و يغلب، و كلمة يظهره أى يجعله ظاهرا فوق الآخرين. أما كلمة الدين فتعنى اصطلاحا القانون، أى ليجعل دين و قانون الإسلام ظاهرا على كل القوانين الأخرى، و الدليل من الكتاب قوله تعالى على لسان يوسف عليه السلام ... ما كانَ لِيَأْخُذَ أَخاهُ فِی دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشاءَ اللَّهُ ...، (يوسف: من الآية ٧٦)، فالدين هنا يعنى قانون الملک. و يؤكد هذا الوعد قوله تعالى وَ لَقَدْ كَتَبْنا فِی الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُها عِبادِیَ الصَّالِحُونَ (١٠٥)، (الأنبياء: ١٠٥) .. وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (١٧٢) وَ إِنَّ جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ (١٧٣)، الصافات. الآثار و التاريخ، ص: ۴۶ كما و نجد ذلک واضحا فى أحاديث و مواقف كثيرة للنبى صلّى اللّه عليه و سلم منها ما كان إبان حفر الخندق و ما كانت عليه الحالة النفسية للصحابة الأجلاء، و كيف وعدهم النّبى صلّى اللّه عليه و سلم بملک كسرى و قيصر، و قد حصل لاحقا ... و فى الحديث نجد تأكيدا و تفصيلا لهذا القانون المهم، إذ ينقل الإمام أحمد فى مسنده (مسند الكوفيين ١٧۶٨٠) عن النّعمان بن بشير قال كنّا قعودا فى المسجد مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و كان بشير رجلا يكفّ حديثه فجاء أبو ثعلبة الخشنىّ فقال يا بشير بن سعد أتحفظ حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى الأمراء فقال حذيفة أنا أحفظ خطبته فجلس أبو ثعلبة فقال حذيفة قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم (تكون النّبوّة فيكم ما شاء اللّه أن تكون ثمّ يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثمّ تكون خلافة على منهاج النّبوّة فتكون ما شاء اللّه أن تكون ثمّ يرفعها إذا شاء اللّه أن يرفعها ثمّ تكون ملكا عاضّا فيكون ما شاء اللّه أن يكون ثمّ يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثمّ تكون ملكا جبريّة فتكون ما شاء اللّه أن تكون ثمّ يرفعها إذا شاء أن يرفعها ثمّ تكون خلافة على منهاج النّبوّة)، ثمّ سكت ... و قد حصلت جميع تلک المراحل باستثناء الأخيرة، فالنبوة، ثم خلافة على منهجها فى عهد الخلفاء الراشدين، ثم ملكا عاضا أى كالثمرة التى عضت فهى ناقصة كما حصل فى عهد الخلافة الأموية و العباسية و العثمانية فهى كانت ترمز للدولة الإسلامية التى تطبق الشرع لكن بخلل جوهرى و هو الخلافة الوراثية التى يرفضها الشرع الحنيف الآمر بمبدإ الشورى، ثم جاء الملک الجبرى و هو ما تبع سقوط الدولة العثمانية من نظام ملكى و جمهورى دكتاتورى جبرى قمعى فى الدول الإسلامية و هو ما شهدناه و نشهده اليوم، فلم يبق إذن سوى العودة إلى الخلافة على منهج النبوة و هو الذى سيكون بإذنه تعالى. أخرج الطبرانى و أبو نعيم فى الحلية و كذا فى كنز العمال (١/ ٧٧) و الحاكم عن أبى ثعلبة الخشنى قال: قدم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم من غزاة له، فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين و كان يعجبه إذا قدم من سفر أن يدخل المسجد فيصلى فيه ركعتين يثنّى بفاطمة ثم أزواجه. فقدم من سفره مرة فأتى فاطمة رضى اللّه عنها، فبدأ بها قبل أزواجه، فاستقبلته على باب البيت فجعلت تقبل وجهه و عينيه و تبكى، فقال لها رسول اللّه الآثار و التاريخ، ص: ۴۷ صلّى اللّه عليه و سلم: (ما يبكيک؟)، قالت أراک يا رسول اللّه، قد شحب لونک، و اخلولقت ثيابک، فقال لها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم (يا فاطمة لا- تبکى فإن اللّه بعث أباک بالحق بأمر لا يبقى على ظهر الأرض بيت وبر و لا مدر و لا شعر إلا أدخله اللّه به عزا أو ذلا حتى يبلغ حيث يبلغ الليل) .. و كذا ما ذكرناه فى موضع سابق من حديث المقداد بن الأسود فى قوله صلّى اللّه عليه و سلم (ما على ظهر الأرض بيت حجر و لا مدر إلا أدخله اللّه كلمة الإسلام بعز عزيز أو ذل ذليل أما بعزهم فيجعلهم من أهلها و أما بذلهم فيدينون بها). و يعضده الحديث الذى أخرجه الإمام أحمد فى مسند الشاميين عن تميم الدارى (١۶٣۴۴) قال سمعت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول (ليبلغنّ هذا الأمر ما بلغ اللّيل و النّهار و لا يترک اللّه بيت مدر و لا وبر إلّا أدخله اللّه هذا الدّين بعزّ عزيز أو بذلّ ذليل عزّا يعزّ اللّه به الإسلام و ذلّا يذلّ اللّه به الكفر)، و كان تميم الدّارىّ يقول قد عرفت ذلک فى أهل بيتى لقد أصاب من أسلم منهم الخير و الشّرف و العزّ و لقد أصاب من كان منهم كافرا الذّلّ و الصّغار و الجزية ... د- تحدى القرآن الكريم و منذ بداية الدعوة أن يكون لأبى لهب أمل فى الهداية، بل أعطاه استحقاقه مع زوجته و هو الخلود فى النار. و قد كانا يستطيعان إثبات عكس ذلک و لو من باب

الجدال و التحدی فقط، و لیثبتا للناس بطلان هذا الادعاء، و لکن أی شیء من هذا القبیل لم یحدث و صدق اللّه و رسوله: تَبَّتْ یَدا أَبِی لَهَبٍ وَ تَبَّ (۱) ما أَغْنی عَنْهُ مالُهُ وَ ما کَسَبَ (۲) سَیَصْلی ناراً ذاتَ لَهَبٍ (۳) وَ امْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ (۴) فِی جِیدِها حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ (۵)، (المسد). الدکتور ملیر، هذا القس الذی أراد قراءة القرآن کی یؤلف کتابا یستهزئ به، فإذا به لا یصدق ما یقرأ فتعلق قلبه بهذا الکتاب، فأعلن إسلامه، و ألف کتبا عن عظمة هذا الکتاب و هذا الدین و نشرها عبر الشبکة العالمیة الإنترنت. کانت من بین الأمور التی جلبت انتباهه هذا الموضوع الذی یقول عنه: (عجبت لأمر أبی لهب هذا و غباءه، کان بإمکانه أن ینسف الإسلام فی مهده، فیعلن إسلامه و لو کذبا لیبین للناس کذب محمد- الآثار و التاریخ، ص: ۴۸ حاشاه صلّی اللّه علیه و سلم- و لکنه لم یفعل رغم أن الآیة نزلت فی بدایة الدعوة الإسلامیة و مات هو بعد موت رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم). إلی اللقاء مع الکتاب القادم و السلام علیکم و رحمة اللّه تعالی و برکاته. الآثار و التاریخ، ص: ۴۹

الملاحق

اشارة

الملحق (۱): قصة نوح علیه السّلام الملحق (۲): قصة لوط علیه السّلام الملحق (۳): قصة موسی علیه السّلام

قصة نوح علیه السلام

الملحق (۱) قصة نوح علیه السلام «۱» هو: نوح بن لامک بن متوشلخ بن خنوخ، و هو إدریس، بن یرد بن مهلائیل بن قینن ابن أنوش بن شیث بن آدم أبی البشر علیه السلام، کان مولده بعد وفاة آدم بمائة سنة و ست و عشرین سنة، فیما ذکره ابن جریر و غیره، و علی تاریخ أهل الکتاب المتقدم یکون بین مولد نوح و موت آدم مائة و ست و أربعون سنة، و کان بینهما عشرة قرون، کما قال الحافظ أبو حاتم بن حبان فی صحیحه حدثنا محمد بن عمر بن یوسف، حدثنا محمد بن عبد الملک بن زنجویه، حدثنا أبو توبة، حدثنا معاویة بن سلام، عن أخیه زید بن سلام، سمعت أبا سلام سمعت أبا أمامة، أن رجلا قال: یا رسول اللّه، أ نبی کان آدم؟ قال: (نعم مکلم)، قال: فکم کان بینه و بین نوح؟ قال: (عشرة قرون). قلت: و هذا علی شرط مسلم و لم یخرجه. و فی صحیح البخاری عن ابن عباس قال: کان بین آدم و نوح عشرة قرون کلهم علی الإسلام. فإن کان المراد بالقرن مائة سنة کما هو المتبادر عند کثیر من الناس فبینهما ألف سنة لا- محالة، لکن لا- ینفی أن یکون أکثر، باعتبار ما قید به ابن عباس بالإسلام، إذ قد یکون بینهما قرون أخری متأخرة لم یکونوا علی الإسلام، لکن حدیث أبی أمامة یدل علی الحصر فی عشرة قرون، و زادنا ابن عباس: أنهم کلهم کانوا علی الإسلام، و هذا یرد قول من زعم من أهل التواریخ و غیرهم من أهل الکتاب أن قابیل و بنیه عبدوا النار، و اللّه أعلم. و إن کان المراد بالقرن الجیل من الناس کما فی قوله تعالی: وَ کَمْ أَهْلَکْنا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَ کَفی بِرَبِّکَ بِذُنُوبِ عِبادِهِ خَبِیراً بَصِیراً (۱۷)، (الإسراء: ۱۷ (____)، ۱) موسوعة الدکتور طارق السویدان، قصص الأنبیاء، قرص مدمج. الآثار و التاریخ، ص: ۵۲ و قوله: ثُمَّ أَنْشَأْنا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُوناً آخَرِینَ (۴۲)، و قال تعالی: وَ قُرُوناً بَیْنَ ذلِکَ کَثِیراً، و قال: وَ کَمْ أَهْلَکْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ، و کقوله علیه السلام: (خیر القرون قرنی) الحدیث. فقد کان الجیل قبل نوح یعمرون الدهور الطویلة. فعلی هذا یکون بین آدم و نوح ألوف من السنین، و اللّه أعلم. و بالجملة: فنوح علیه السّلام إنما بعثه اللّه تعالی لما عبدت الأصنام و الطواغیت، و شرع الناس فی الضلالة و الکفر، فبعثه اللّه رحمة للعباد، فکان أول رسول بعث إلی أهل الأرض کما یقول له أهل الموقف یوم القیامة، و کان قومه یقال لهم: بنو راسب، فیما ذکره ابن جبیر و غیره. و اختلفوا فی مقدار سنه یوم بعث، فقیل: کان ابن خمسین سنة، و قیل: ابن ثلاثمائة و خمسین سنة، و قیل: ابن أربعمائة و ثمانین سنة، حکاها ابن جریر، و عزا

الثالثة منها إلى ابن عباس. و قد ذكر اللّه قصته، و ما كان من قومه، و ما أنزل بمن كفر به من العذاب بالطوفان، و كيف أنجاه و أصحاب السفينة، فى غير ما موضع من كتابه العزيز، ففى الأعراف و يونس و هود و الأنبياء و المؤمنون و الشعراء و العنكبوت و الصافات و اقتربت و أنزل فيه سورة كاملة، فقال فى سورة الأعراف: لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ فَقالَ يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (۵۹) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۶۰) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۶۱) أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۶۲) أَ وَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَ لِتَتَّقُوا وَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۶۳) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (۶۴). و قال تعالى فى سورة يونس: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ إِنْ كانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقامِي وَ تَذْكِيرِي بِآياتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَ شُرَكاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ الآثار و التاريخ، ص: ۵۳ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَ لا تُنْظِرُونِ (۷۱) فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَما سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۷۲) فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (۷۳). و قال تعالى فى سورة هود: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا نُوحاً إِلى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲۵) أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۲۶) فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (۲۷) قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (۲۸) وَ يا قَوْمِ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالًا إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۹) وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۳۰) وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ اللَّهِ وَ لا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (۳۱) قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۲) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (۳۳) وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (۳۴) أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَ أَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ (۳۵) وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ (۳۶) وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۳۷) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (۳۸) فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (۳۹) حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيها مِنْ كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ (۴۰) وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها الآثار و التاريخ، ص: ۵۴ وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۴۱) وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبالِ وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (۴۲) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (۴۳) وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۴) وَ نادى نُوحٌ رَبَّهُ فَقالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَ إِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَ أَنْتَ أَحْكَمُ الْحاكِمِينَ (۴۵) قالَ يا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صالِحٍ فَلا تَسْئَلْنِ ما لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (۴۶) قالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْئَلَكَ ما لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَ إِلَّا تَغْفِرْ لِي وَ تَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخاسِرِينَ (۴۷) قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (۴۸) تِلْكَ مِنْ أَنْباءِ الْغَيْبِ نُوحِيها إِلَيْكَ ما كُنْتَ تَعْلَمُها أَنْتَ وَ لا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ (۴۹). و أما مضمون ما جرى له مع قومه، مأخوذا من الكتاب و السنة و الآثار، فقد قدمنا عن ابن عباس أنه كان بين آدم و نوح عشرة قرون كلهم على الإسلام رواه البخارى. و ذكرنا أن المراد بالقرن الجيل، أو المدة، على ما سلف. ثم بعد تلك القرون الصالحة حدثت أمور اقتضت أن آل الحال بأهل ذلك الزمان إلى عبادة الأصنام، و كان سبب ذلك ما رواه البخارى من حديث ابن جريج، عن عطاء، عن ابن عباس عند تفسير قوله تعالى: وَ قالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَ لا تَذَرُنَّ

وَدًّا وَ لا ـ سُواعاً وَ لا يَغُوثَ وَ يَعُوقَ وَ نَسْـراً (۲۳). قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التى كانوا يجلسون فيها أنصابا، و سموها بأسمائهم ففعلوا، فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك و نسخ العلم عبدت. قال ابن عباس: و صارت هذه الأوثان التى كانت فى قوم نوح فى العرب بعد، و هكذا قال عكرمة و الضحاك و قتادة و محمد بن إسحاق. و قال ابن جرير فى تفسيره: حدثنا ابن حميد، حدثنا مهران، عن سفيان، عن الآثار و التاريخ، ص: ۵۵ موسى، عن محمد بن قيس، قال: كانوا قوما صالحين بين آدم و نوح، و كان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا، قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا و جاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم، و بهم يسقون المطر فعبدوهم. و روى ابن أبى حاتم، عن عروة بن الزبير، أنه قال: ود و يغوث و يعوق و سواع و نسر أولاد آدم، و كان ود أكبرهم و أبرهم به. و قال ابن أبى حاتم: حدثنا أحمد بن منصور، حدثنا الحسن بن موسى، حدثنا يعقوب، عن أبى المطهر، قال: ذكروا عند أبى جعفر، و هو الباقر، و هو قائم يصلى بزيد ابن المهلب، قال: فلما انفتل من صلاته، قال: ذكرتم يزيد بن المهلب، أما إنه قتل فى أول أرض عبد فيها غير اللّه. قال: ذكر ودا رجلا صالحا و كان محببا فى قومه، فلما مات عكفوا حول قبره فى أرض بابل، و جزعوا عليه، فلما رأى إبليس جزعهم عليه تشبه فى صورة إنسان، ثم قال: إنى أرى جزعكم على هذا الرجل، فهل لكم أن أصور لكم مثله فيكون فى ناديكم فتذكرونه؟ قالوا: نعم، فصور لهم مثله، قال: و وضعوه فى ناديهم و جعلوا يذكرونه، فلما رأى ما بهم من ذكره، قال: هل لكم أن أجعل فى منزل كل واحد منكم تمثالا مثله ليكون له فى بيته فتذكرونه؟ قالوا: نعم، قال: فمثل لكل أهل بيت تمثالا مثله، فأقبلوا فجعلوا يذكرونه به، قال: و أدرك أبناؤهم، فجعلوا يرون ما يصنعون به، قال: و تناسلوا و درس أثر ذكرهم إياه، حتى اتخذوه إلها يعبدونه من دون اللّه أولاد أولادهم، فكان أول ما عبد غير اللّه ودا، الصنم الذى سموه ودا. و مقتضى هذا السياق: أن كل صنم من هذه عبده طائفة من الناس، و قد ذكر أنه لما تطاولت العهود و الأزمان جعلوا تلك الصور تماثيل مجسدة، ليكون أثبت لهم، ثم عبدت بعد ذلك من دون اللّه عزّ و جلّ، و لهم فى عبادتها مسالك كثيرة جدا. و قد ثبت فى الصحيحين عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: أنه لما ذكرت عنده أم سلمة و أم حبيبة تلك الكنيسة التى رأينها بأرض الحبشة، يقال لها: مارية، فذكرتا من حسنها و تصاوير فيها، قال: (أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا، ثم صوروا فيه تلك الصورة، أولئك شرار الخلق عند اللّه عز و جل). الآثار و التاريخ، ص: ۵۶ أن الفساد لما انتشر فى الأرض و عم البلاء بعبادة الأصنام فيها، بعث اللّه عبده و رسوله نوحا عليه السلام، يدعو إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له، و ينهى عن عبادة ما سواه، فكان أول رسول بعثه اللّه إلى أهل الأرض، كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى حيان، عن أبى زرعة بن عمرو بن جرير، عن أبى هريرة، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم فى حديث الشفاعة، قال: (فيأتون آدم فيقولون: يا آدم، أنت أبو البشر، خلقك اللّه بيده، و نفخ فيك من روحه، و أمر الملائكة فسجدوا لك، و أسكنك الجنة، أ لا تشفع لنا إلى ربك، أ لا ترى ما نحن فيه و ما بلغنا؟ فيقول: ربى قد غضب غضبا شديدا لم يغضب قبله مثله، و لا يغضب بعده مثله، و نهانى عن الشجرة فعصيت، نفسى نفسى، اذهبوا إلى غيرى، اذهبوا إلى نوح، فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى أهل الأرض، و سماك اللّه عبدا شكورا، أ لا ترى إلى ما نحن فيه، أ لا ترى إلى ما بلغنا، أ لا تشفع لنا إلى ربك عز و جل؟ فيقول: ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله، و لا يغضب بعده مثله، نفسى نفسى)، و ذكر تمام الحديث بطوله كما أورده البخارى فى قصة نوح. فلما بعث اللّه نوحا عليه السلام دعاهم إلى إفراد العبادة للّه وحده لا شريك له، و أن لا يعبدوا معه صنما و لا تمثالا و لا طاغوتا، و أن يعترفوا بوحدانيته، و أنه لا إله غيره و لا رب سواه، كما أمر اللّه تعالى من بعده من الرسل الذين هم كلهم من ذريته، كما قال تعالى: وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (۷۷)، و قال فيه و فى إبراهيم: وَ جَعَلْنا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَ الْكِتابَ أى كل نبى من بعد نوح فمن ذريته، و كذلك إبراهيم قال اللّه تعالى: وَ لَقَدْ بَعَثْنا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ، و قال تعالى: وَ سْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَ جَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (۴۵). و قال تعالى: وَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (۲۵)، و لهذا قال نوح لقومه: اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ

(۵۹)، و قال: أَنْ لا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ (۲۶)، و قال: يا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرُهُ أَ فَلا تَتَّقُونَ الآثار و التاريخ، ص: ۵۷ (۶۵)، و قال تعالى فى سورة نوح: قالَ يا قَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ (۲) أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَ اتَّقُوهُ وَ أَطِيعُونِ (۳) يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَ يُؤَخِّرْكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذا جاءَ لا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۴) قالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَ نَهاراً (۵) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعائِي إِلَّا فِراراً (۶) وَ إِنِّي كُلَّما دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصابِعَهُمْ فِي آذانِهِمْ وَ اسْتَغْشَوْا ثِيابَهُمْ وَ أَصَرُّوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْباراً (۷) ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهاراً (۸) ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَ أَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْراراً (۹) فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كانَ غَفَّاراً (۱۰) يُرْسِلِ السَّماءَ عَلَيْكُمْ مِدْراراً (۱۱) وَ يُمْدِدْكُمْ بِأَمْوالٍ وَ بَنِينَ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَ يَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهاراً (۱۲) ما لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقاراً (۱۳) وَ قَدْ خَلَقَكُمْ أَطْواراً (۱۴) .. فذكر أنه دعاهم إلى اللّه بأنواع الدعوة فى الليل و النهار و السر و الإجهار، بالترغيب تارة و الترهيب أخرى، و كل هذا فلم ينجح فيهم، بل استمر أكثرهم على الضلالة و الطغيان و عبادة الأصنام و الأوثان، و نصبوا له العداوة فى كل وقت و أوان، و تنقصوه، و تنقصوا من آمن به، و توعدوهم بالرجم و الاخراج و نالوا منهم و بالغوا فى أمرهم: قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ، أى السادة الكبراء منهم، إِنَّا لَنَراكَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (۶۰) قالَ يا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلالَةٌ وَ لكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ (۶۱)، أى لست كما تزعمون من إنى ضال، بل على الهدى المستقيم، رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِينَ، أى الذى يقول للشىء كن فيكون، أُبَلِّغُكُمْ رِسالاتِ رَبِّي وَ أَنْصَحُ لَكُمْ وَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ ما لا تَعْلَمُونَ (۶۲)، و هذا شأن الرسول أن يكون بليغا أى فصيحا ناصحا أعلم الناس باللّه عز و جل، و قالوا له فيما قالوا: ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (۲۷)، تعجبوا أن يكون بشرا رسولا- و تنقصوا بمن اتبعه و رأوهم أراذلهم. و قد قيل: أنهم كانوا من أقياد الناس و هم ضعفاؤهم، كما قال هرقل، و هم أتباع الرسل، و ما ذاك إلا- لأنه لا مانع لهم من اتباع الحق، و قولهم: بادِيَ الرَّأْيِ، أى بمجرد ما دعوتهم استجابوا لك من غير نظر و لا روية، و هذا الذى رموهم به هو عين ما الآثار و التاريخ، ص: ۵۸ يمدحون بسببه، رضى اللّه عنهم، فإن الحق الظاهر لا يحتاج إلى روية و لا فكر و لا نظر، بل يجب اتباعه و الانقياد له متى ظهر، و لهذا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مادحا للصديق: (ما دعوت أحدا إلى الإسلام إلا- كانت له كبوة، غير أبى بكر فإنه لم يتلعثم)، و لهذا كانت بيعته يوم السقيفة أيضا سريعة من غير نظر و لا روية، لأن أفضليته على من عداه ظاهرة جلية عند الصحابة، رضى اللّه عنهم، و لهذا قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم لما أراد أن يكتب الكتاب الذى أراد أن ينص فيه على خلافته، فتركه و قال: (يأبى اللّه و المؤمنون إلا أبا بكر (رضى اللّه عنه). و قول كفرة قوم نوح له و لمن آمن به: وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ، أى لم يظهر لكم أمر بعد اتصافكم بالإيمان و لا مزية علينا فَقالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ما نَراكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنا وَ ما نَراكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَراذِلُنا بادِيَ الرَّأْيِ وَ ما نَرى لَكُمْ عَلَيْنا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كاذِبِينَ (۲۷)، (هود: ۲۷)، قالَ يا قَوْمِ أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ أَ نُلْزِمُكُمُوها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ (۲۸)، و هذا تلطف فى الخطاب معهم، و ترفق بهم فى الدعوة إلى الحق، كما قال تعالى: فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (۴۴). و قال تعالى: ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ، و هذا منه يقول لهم: أَ رَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَ آتانِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ أى النبوة و الرسالة، فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ، أى فلم تفهموها و لم تهتدوا إليها، أَ نُلْزِمُكُمُوها أى أ نغصبكم بها و نجبركم عليها وَ أَنْتُمْ لَها كارِهُونَ، أى ليس لى فيكم حيلة و الحالة هذه وَ يا قَوْمِ لا- أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مالًا إِنْ أَجرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ أى لست أريد منكم أجرة على إبلاغى إياكم ما ينفعكم فى دنياكم و أخراكم إن أطلب ذلك إلا- من اللّه الذى ثوابه خير لى و ابقى مما تعطوننى أنتم، و قوله: وَ ما أَنَا بِطارِدِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّهُمْ مُلاقُوا رَبِّهِمْ وَ لكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (۲۹)، كأنهم طلبوا منه أن يبعد هؤلاء عنه، و وعدوه أن يجتمعوا به إذا هو فعل ذلك، فأبى عليهم ذلك، و قال: إِنَّهُمْ الآثار و التاريخ، ص: ۵۹ مُلاقُوا رَبِّهِمْ أى فأخاف إن طردتهم أن يشكونى إلى اللّه عز و جل، و لهذا قال: وَ يا قَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَ فَلا تَذَكَّرُونَ (۳۰) و لهذا لما سأل كفار قريش رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم: أن يطرد عنه ضعفاء المؤمنين كعمار و صهيب و بلال و خباب و أشباههم نهاه اللّه عن ذلك، كما بيناه فى سورتى الأنعام و الكهف: وَ لا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزائِنُ

اللَّهِ وَ لاـ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَ لاـ أَقُولُ إِنِّى مَلَـكٌ، أى بل أنا عبـد رسول لا أعلم من علم اللّه إلا ما أعلمنى به، و لا أقـدر إلا على ما أقـدرنى عليه، و لا أملك لنفسـى نفعا و لا ضرا إلا ما شاء اللّه وَ لا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِى أَعْيُنُكُمْ يعنى من أتباعه لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْراً اللَّهُ أَعْلَمُ بِما فِى أَنْفُسِهِمْ إِنِّى إِذاً لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٣١)، أى لا أشـهد عليهم بأنهم لا خير لهم عند اللّه يوم القيامهٔ، اللّه أعلم بهم، و سـيجازيهم على ما فى نفوسـهم، إن خيرا فخير و إن شـرا فشر، كما قالوا فى الموضع الآخر: قالُوا أَ نُؤْمِنُ لَكَ وَ اتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ (١١١) قالَ وَ ما عِلْمِى بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (١١٢) إِنْ حِسابُهُمْ إِلَّا عَلى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ (١١٣) وَ ما أَنَا بِطارِدِ الْمُؤْمِنِينَ (١١٤) إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ (١١٥). و قد تطاول الزمان و المجادلهٔ بينه و بينهم، كما قال تعالى: فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عاماً فَأَخَذَهُمُ الطُّوفانُ وَ هُمْ ظالِمُونَ (١٤)، أى و مع هـذه المدهٔ الطويلهٔ فما آمن به إلا القليل منهم و كان كل ما انقرض جيل وصوا من بعدهم بعدم الإيمان به و محاربته و مخالفته، و كان الوالد إذا بلغ ولده و عقل عنه كلامه وصاه فيما بينه و بينه أن لا يؤمن بنوح أبدا ما عاش، و دائما ما بقى، و كانت سـجاياهم تأبى الإيمان و اتباع الحق، و لهذا قال: وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً (٢٧)، و لهذا قالوا: قالُوا يا نُوحُ قَدْ جادَلْتَنا فَأَكْثَرْتَ جِدالَنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣٢) قالَ إِنَّما يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شاءَ وَ ما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٣٣)، أى إنما يقدر على ذلك اللّه عز و جل، فإنه الذى لا يعجزه شيء، و لا يكترثه أمر، بل هو الذى يقول للشيء كن فيكون وَ لا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِى إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٣٤)، أى من يرد اللّه فتنته فلن يملك أحـد هـدايته، هو الـذى يهـدى من الآثار و التاريخ، ص: ٦٠ يشاء، و يضل من يشاء، و هو الفعال لما يريد، و هو العزيز الحكيم العليم بمن يسـتحق الهدايهٔ و من يستحق الغوايهٔ، و له الحكمهٔ البالغهٔ و الحجهٔ الدامغهٔ وَ أُوحِيَ إِلى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ، تسـليهٔ له عما كان منهم إليه فَلا تَبْتَئِسْ بِما كانُوا يَفْعَلُونَ، و هـذه تعزيـهٔ لنوح عليه السـلام فى قومه أنه لن يؤمن منهم إلاـ من قـد آمن، أى لا يسوءنك ما جرى، فإن النصـر قريب و النبأ عجيب وَ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنا وَ وَحْيِنا وَ لا تُخاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧)، و ذلك أن نوحا عليه السـلام لما يئس من صلاحهم و فلاحهم و رأى أنهم لا خير فيهم، و توصـلوا إلى أذيته و مخالفته و تكـذيبه بكل طريق من فعال و مقال، دعا عليهم دعوهٔ غضب، فلبى اللّه دعوته، و أجاب طلبته. قال اللّه تعالى: وَ لَقَدْ نادانا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)، و قال تعالى: وَ نُوحاً إِذْ نادى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنا لَهُ فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦)، و قال تعالى: قالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِى كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِى وَ بَيْنَهُمْ فَتْحاً وَ نَجِّنِى وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١١٨)، و قال تعالى: فَدَعا رَبَّهُ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠)، و قال تعالى: قالَ رَبِّ انْصُرْنِى بِما كَذَّبُونِ (٢٦)، و قـال تعـالى: مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (٢٥) وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَـذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (٢٦) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً (٢٧)، فاجتمع عليهم خطاياهم من كفرهم و فجورهم و دعوهٔ نبيهم عليهم، فعنـد ذلـك أمره اللّه تعـالى أن يصـنع الفلـك، و هى السـفينهٔ العظيمـهٔ التى لم يكن لها نظير قبلها، و لا يكون بعـدها مثلهـا، و قـدم اللّه تعـالى إليه أنه إذا جـاء أمره، و حـل بهم بأسه الـذى لا يرد عن القوم المجرمين أنه لا يعاوده فيهم و لا يراجعه، فإنه لعله قـد تـدركه رقـهٔ على قومه عنـد معاينـهٔ العـذاب النازل بهم، فإنه ليس الخبر كالمعاينـهٔ، و لهذا قال: وَ لا تُخاطِبْنِى فِى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٣٧) وَ يَصْنَعُ الْفُلْكَ وَ كُلَّما مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ ..، (هود). أى يسـتهزءون به اسـتبعادا الآثار و التاريخ، ص: ٦١ لوقوع ما توعدهم به، قال: إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَما تَسْخَرُونَ (٣٨)، أى نحن الذين نسخر منكم، و نتعجب منكم، فى استمراركم على كفركم و عنادكم، الذى يقتضى وقوع العذاب بكم، و حلوله عليكم فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذابٌ يُخْزِيهِ وَ يَحِلُّ عَلَيْهِ عَذابٌ مُقِيمٌ (٣٩)، و قد كانت سجاياهم الكفر الغليظ و العناد البالغ فى الدنيا. و هكذا فى الآخرهٔ فإنهم يجحدون أيضا أن يكون جاءهم رسول، كما قال البخارى: حـدثنا موسـى بن إسـماعيل، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الأعمش، عن أبى صالح، عن أبى سـعيد، قال: قال رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سلّم: (يجيء نوح عليه السلام و أمته، فيقول اللّه عزّ و جلّ: هل بلغت؟ فيقول: نعم أى رب، فيقول لأمته: هل بلغكم؟ فيقولون: لا، ما جاءنا من نبى، فيقول لنوح: من يشـهد لك؟ فيقول: محمـد و أمته فتشـهد أنه قد بلغ). و هو قوله: وَ كَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وَ يَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً، و الوسط العدل. فهذه الأمهٔ تشـهد

على شـهادة نبيها الصادق المصـدوق بأن اللّه قد بعث نوحا بالحق، و أنزل عليه الحق، و أمره به، و أنه بلغه إلى أمته على أكمل الوجوه و أتمها، و لم يدع شـيئا مما ينفعهم فى دينهم إلا و قد أمرهم به، و لا شـيئا مما قد يضرهم، إلا و قد نهاهم عنه و حذرهم منه، و هكذا شأن جميع الرسل، حتى أنه حذر قومه المسيح الدجال، و إن كان لا يتوقع خروجه فى زمانهم حذرا عليهم و شـفقهٔ و رحمهٔ بهم. كما قال البخارى: حـدثنا عبدان، حدثنا عبد اللّه، عن يونس، عن الزهرى، قال سالم: قال ابن عمر: قام رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلّم فى الناس فأثنى على اللّه بما هو أهله، ثم ذكر الـدجال، فقال: (إنى لأنـذركموه، و ما من نبى إلا و قـد أنذره قومه، لقد أنذره نوح قومه، و لكنى أقول لكم فيه قولا لم يقله نبى لقومه: تعلمون أنه أعور و أن اللّه ليس بأعور). و هـذا الحـديث فى الصـحيحين أيضا من حـديث شيبان بن عبد الرحمن، عن يحيى ابن أبى كثير، عن أبى سلمهٔ بن عبد الرحمن، عن أبى هريرهٔ، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلّم قال: (أ لا أحـدثكم عن الـدجال حـديثا ما حـدث به نبى قومه إنه أعور، و إنه يجىء معه بمثال الآثار و التاريخ، ص: ۶۲ الجنـهٔ و النار، و التى يقول عليها الجنـهٔ هى النار، و إنى أنـذركم كما أنـذر به نوح قومه)، لفظ البخارى. و قد قال بعض علماء السـلف: لما اسـتجاب اللّه له أمره أن يغرس شـجرا ليعمـل منه السـفينهٔ، فغرسه و انتظره مائـهٔ سـنهٔ، ثم نجره فى مائـهٔ أخرى، و قيـل: فى أربعين سـنهٔ، فاللّه أعلم. قال محمـد بن إسـحاق عن الثورى: و كـان من خشب السـاج، و قيـل: من الصـنوبر، و هو نص التوراهٔ. قال الثورى: و أمره أن يجعل طولها ثمـانين ذراعـا، و عرضـها خمسـين ذراعا، و أن يطلى ظاهرها و باطنها بالقار، و أن يجعل لها جؤجؤا أزور يشق الماء، و قال قتادهٔ: كان طولها ثلاثمائهٔ ذراع فى عرض خمسـين ذراعا، و هذا الذى فى التوراهٔ على ما رأيته. و قال الحسن البصـرى: ستمائهٔ فى عرض ثلاثمائهٔ ذراع. و عن ابن عباس: ألف و مائتا ذراع فى عرض ستمائهٔ ذراع، و قيل: كان طولها ألفى ذراع و عرضها مائهٔ ذراع، قالوا كلهم: و كان ارتفاعها ثلاثين ذراعا، و كانت ثلاث طبقات، كل واحدهٔ عشـر أذرع، فالسـفلى للدواب و الوحوش، و الوسطى للناس، و العليا للطيور، و كان بابها فى عرضها، و لها غطاء من فوقها مطبق عليها، قال اللّه تعالى فى سورهٔ المؤمنون: قالَ رَبِّ انْصُرْنِی بِما کَذَّبُونِ (۲۶) فَأَوْحَیْنا إِلَیْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْکَ بِأَعْیُنِنا وَ وَحْیِنـا ...، أى بأمرنـا لک، و بمرأى منا لصـنعتک لها، و مشاهـدتنا لـذلک لنرشـدک إلى الصواب فى صنعتهـا فَإِذا جاءَ أَمْرُنـا وَ فارَ التَّنُّورُ فَاسْلُکْ فِیها مِنْ کُلٍّ زَوْجَیْنِ اثْنَیْنِ وَ أَهْلَکَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَ لا تُخاطِبْنِی فِی الَّذِینَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (۲۷)، فتقدم إليه بأمره العظيم العالى، أنه إذا جاء أمره و حل بأسه أن يحمل فى هذه السـفينهٔ من كل زوجين اثنين من الحيوانـات، و سـائر مـا فيه روح، و من المأكولات و غيرها لبقاء نسـلها، و أن يحمل معه أهله، أى أهل بيته إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ، أى إلا من كان كافرا فإنه قـد نفـذت فيه الدعوهٔ التى لا ترد و وجب عليه حلول البأس الذى لا يرد، و أمر أنه لا يراجعه فيهم إذا حل بهم ما يعاينه من العـذاب العظيم الـذى قد حتمه عليهم الفعال لما يريد، كما قدمنا بيانه من قبل. الآثار و التاريخ، ص: ۶۳ و المراد بـالتنور عنـد الجمهور: وجه الأرض، أى نبعت الأرض من سائر أرجائها حتى نبعت التنانير التى هى محال النار. و عن ابن عباس: التنور عين فى الهنـد، و عن الشـعبى بالكوفـهٔ، و عن قتـادهٔ بـالجزيرهٔ. و قال على بن أبى طالب: المراد بالتنور: فلق الصـبح، و تنوير الفجر، أى إشـراقه و ضـياؤه. أى عند ذلک فاحمل فيها من كل زوجين اثنين. و هذا قول غريب. و قوله تعالى: حَتَّى إِذا جاءَ أَمْرُنا وَ فارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِیها مِنْ کُلٍّ زَوْجَیْنِ اثْنَیْنِ وَ أَهْلَکَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَیْهِ الْقَوْلُ وَ مَنْ آمَنَ وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِیلٌ (۴۰)، هذا أمر بأن عند حلول النقمهٔ بهم أن يحمـل فيهـا من كـل زوجين اثنين، و فى كتـاب أهـل الكتاب أنه أمر أن يحمل من كل ما يؤكل سـبعهٔ أزواج، و مما لا يؤكل زوجين ذكرا و أنثى، و هـذا مغاير لمفهوم قوله تعالى فى كتابنا الحق: اثْنَیْنِ، إن جعلنا ذلک مفعولا به، و أما إن جعلناه توكيدا لزوجين و المفعول به محذوف فلا ينافى، و اللّه أعلم. و ذكر بعضهم و يروى عن ابن عباس: أن أول ما دخل من الطيور الدرهٔ، و آخر ما دخل من الحيوانات الحمار، و دخل إبليس متعلقا بـذنب الحمار. و قال ابن أبى حاتم: حـدثنا أبى، حـدثنا عبد اللّه بن صالح، حدثنى الليث، حـدثنى هشـام بن سـعد، عن زيـد ابن أسـلم، عن أبيه، أن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم قـال: (لمـا حمل نوح فى السـفينهٔ من كل زوجين اثنين، قال أصـحابه: و كيف نطمئن، أو كيف تطمئن المواشـى و معنا الأسـد، فسـلط اللّه عليه الحمى، فكانت أول حمى نزلت فى الأرض، ثم شـكوا الفأرهٔ، فقالوا: الفويسـقهٔ تفسـد علينا طعامنا و متاعنا، فأوحى اللّه إلى الأسـد فعطس، فخرجت الهرهٔ منه، فتخبأت

الفأرة منها)، هـذا مرسل. و قوله: وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ، أى من استجيبت فيهم الدعوة النافذة ممن كفر، فكان منهم ابنه يام الذى غرق، كما سيأتى بيانه، وَ مَنْ آمَنَ أى و احمل فيها من آمن بك من أمتك، قال اللّه تعالى: وَ ما آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ، هذا مع طول المـدة و المقـام بين أظهرهم، و دعوتهم الأكيـدة ليلاـ و نهارا بضـروب المقال و فنون التلطفات و التهديـد و الوعيـد تارة و الترغيب و الوعد أخرى. الآثار و التاريخ، ص: ۶۴ و قد اختلف العلماء فى عدة من كان معه فى السـفينة: فعن ابن عباس: كانوا ثمانين نفسا معهم نساؤهم. و عن كعب الأحبار كانوا اثنين و سبعين نفسا، و قيل: كانوا عشرة، و قيل: إنما كانوا نوحا و بنيه الثلاثة، و كنائنه الأربع بامرأة يام الذى انخزل و انعزل و تسلل عن طريق النجاة، فما عدل إذ عدل، و هذا القول فيه مخالفة لظاهر الآية، بل هى نص فى أنه قد ركب معه غير أهله طائفة ممن آمن به، كما قال: وَ نَجِّنِي وَ مَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۱۸)، و قيل: كانوا سبعة، و أما امرأة نوح و هى أم أولاده كلهم، و هم: حام، و سام، و يافث، و يام، و تسميه أهل الكتاب كنعان و هو الـذى قـد غرق و عابر، و قد ماتت قبل الطوفان، قيل: إنها غرقت مع من غرق، و كانت ممن سبق عليه القول لكفرها، و عند أهل الكتاب: أنها كانت فى السفينة، فيحتمل أنها كفرت بعد ذلك، أو أنها أنظرت ليوم القيامـة، و الظاهر الأول لقوله: لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (۲۶). قال اللّه تعالى فى سورة المؤمنون: فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى نَجَّانا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۲۸) وَ قُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ (۲۹)، أمره أن يحمـد ربه على ما سخر له من هـذه السـفينة، فنجاه بها، و فتح بينه و بين قومه، و أقر عينه ممن خالفه و كذبه، كما قال تعالى: وَ الَّذِى خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَ جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَ الْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (۱۲) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَ تَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِى سَخَّرَ لَنا هذا وَ ما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (۱۳) وَ إِنَّا إِلى رَبِّنـا لَمُنْقَلِبُونَ (۱۴)، و هكـذا يؤمر بالدعاء فى ابتداء الأمور أن يكون على الخير و البركة، و أن تكون عاقبتها محمودة، كما قال تعالى لرسوله صلّى اللّه عليه و سلم حين هاجر: وَ قُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَ أَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطاناً نَصِيراً (۸۰)، و قـد امتثل نوح عليه السلام هـذه الوصـية: وَ قالَ ارْكَبُوا فِيها بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَ مُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۴۱)، أى على اسم اللّه ابتداء سيرها و انتهاؤه إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ، أى و ذو عقـاب أليم مع كونه غفورا رحيمـا، لا يرد بأسه عن القوم المجرمين، كما أحل بأهل الأرض الـذين كفروا به و عبـدوا غيره. الآثار و التاريـخ، ص: ۶۵ قـال اللّه تعـالى: وَ هِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبـالِ، و ذلك أن اللّه تعالى أرسل من السـماء مطرا لم تعهـده الأـرض قبله، و لاـ تمطره بعـده، كـان كأفواه القرب، و أمر الأرض فنبعت من جميع فجاجها و سائر أرجائها، كما قال تعالى فى سورة القمر: فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (۱۰) فَفَتَحْنـا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (۱۱) وَ فَجَّرْنَـا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (۱۲) وَ حَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَ دُسُرٍ (۱۳)، و الدسر السائر تَجْرِي بِأَعْيُنِنا، أى بحفظنا و كلاءتنا، و حراستنا، و مشاهدتنا لها، جَزاءً لِمَنْ كـانَ كُفِرَ. و قـد ذكر ابن جرير و غيره: أن الطوفان كان فى ثالث عشـر من شـهر آب فى حساب القبط، و قال تعالى: إِنَّا لَمَّا طَغَى الْماءُ حَمَلْناكُمْ فِي الْجارِيَةِ (۱۱)، أى السـفينة لِنَجْعَلَها لَكُمْ تَذْكِرَةً وَ تَعِيَها أُذُنٌ واعِيَةٌ (۱۲)، قال جماعة من المفسـرين: ارتفع الماء على أعلى جبل بالأرض خمسة عشـر ذراعا، و هو الذى عند أهل الكتاب. و قيل: ثمانين ذراعا، و عم جميع الأرض طولها و العرض، سهلها و حزنهـا و جبالها و قفارها و رمالها، و لم يبق على وجه الأرض ممن كان بها من الأحياء عين تطرف، و لا صـغير و لا كبير. قال الإمام مالـك عن زيـد بن أسـلم: كـان أهل ذلك الزمان قـد ملئوا السـهل و الجبل، و قال عبـد الرحمن بن زيـد بن أسـلم: لم تكن بقعـة فى الأـرض إلا و لها مالك و حائز، رواهما ابن أبى حاتم. وَ نادى نُوحٌ ابْنَهُ وَ كانَ فِي مَعْزِلٍ يا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنا وَ لا تَكُنْ مَعَ الْكافِرِينَ (۴۲) قالَ سَآوِي إِلى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْماءِ قالَ لا عاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَ حالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ (۴۳)، و هذا الابن هو: يام أخو سام و حام و يافث، و قيل: اسمه كنعان، و كان كافرا عمل عملا غير صالح، فخالف أباه فى دينه و مذهبه فهلك مع من هلك، هـذا و قـد نجا مع أبيه الأجانب فى النسب، لما كانوا موافقين فى الـدين و المـذهب وَ قِيلَ يا أَرْضُ ابْلَعِي ماءَكِ وَ يا سَماءُ أَقْلِعِي وَ غِيضَ الْماءُ وَ قُضِيَ الْأَمْرُ وَ اسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۴۴)، أى لمـا فرغ من أهل الأرض و لم يبق منها أحـد ممن عبد غير اللّه عزّ و جلّ، أمر اللّه الأرض الآثار و التاريخ، ص: ۶۶ أن تبلع ماءها، و أمر السماء أن تقلع أى تمسك عن المطر

وَ غِيضَ الْماءُ، أى نقص عما كان وَ قُضِيَ الْأَمْرُ، أى وقع بهم الذى كان قد سبق فى علمه و قدره من إحلاله بهم ما حل بهم وَ قِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ، أى نودى عليهم بلسان القدرة، بعدا لهم من الرحمة و المغفرة، كما قال تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْناهُ وَ الَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً عَمِينَ (۶۴). و قال تعالى: فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَ جَعَلْناهُمْ خَلائِفَ وَ أَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (۷۳)، و قال تعالى: وَ نَصَرْناهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا إِنَّهُمْ كانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (۷۷)، و قال تعالى: فَأَنْجَيْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (۱۱۹) ثُمَّ أَغْرَقْنا بَعْدُ الْباقِينَ (۱۲۰) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۲۱) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۲۲)، و قال تعالى: فَأَنْجَيْناهُ وَ أَصْحابَ السَّفِينَةِ وَ جَعَلْناها آيَةً لِلْعالَمِينَ (۱۵)، و قال تعالى: ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (۶۶)، و قال: وَ لَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۱۵) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَ نُذُرِ (۱۶) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۱۷)، و قال تعالى: مِمَّا خَطِيئاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا ناراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْصاراً (۲۵) وَ قالَ نُوحٌ رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (۲۶) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً (۲۷)، و قد استجاب اللّه تعالى، و له الحمد و المنة، دعوته فلم يبق منهم عين تطرف. و قد روى الإمامان أبو جعفر بن جرير و أبو محمد بن أبى حاتم فى تفسيريهما من طريق يعقوب بن محمد الزهرى، عن قائد، مولى عبد اللّه بن أبى رافع، أن إبراهيم بن عبد الرحمن بن أبى ربيعة أخبره أن عائشة أم المؤمنين أخبرته، أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: (فلو رحم اللّه من قوم نوح أحدا لرحم أم الصبى). قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: (مكث نوح عليه السلام فى قومه ألف سنة، يعنى إلا خمسين عاما، و غرس مائة سنة الشجر فعظمت و ذهبت كل مذهب، ثم قطعها، ثم جعلها سفينة، و يمرون عليه و يسخرون منه، و يقولون: تعمل سفينة فى البر، كيف تجرى؟ قال: سوف تعلمون، فلما فرغ الآثار و التاريخ، ص: ۶۷ و نبع الماء و صار فى السكك، خشيت أم الصبى عليه و كانت تحبه حبا شديدا، خرجت به إلى الجبل حتى بلغت ثلثه، فلما بلغها الماء خرجت به حتى استوت على الجبل، فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها، فغرقا، فلو رحم اللّه منهم أحدا لرحم أم الصبى). و هذا حديث غريب، و قد روى عن كعب الأحبار و مجاهد و غير واحد شبيه لهذه القصة، و أحرى بهذا الحديث أن يكونا موقوفا متلقى عن مثل كعب الأحبار، و اللّه أعلم. و المقصود: أن اللّه لم يبق من الكافرين ديارا، فكيف يزعم بعض المفسرين أن عوج ابن عنق، و يقال: ابن عناق، كان موجودا من قبل نوح إلى زمان موسى، و يقولون: كان كافرا متمردا جبارا عنيدا، و يقولون: كان لغير رشدة، بل ولدته أمه عنق بنت آدم من زنا، و إنه كان يأخذ من طوله السمك من قرار البحار و يشويه فى عين الشمس، و إنه كان يقول لنوح و هو فى السفينة: ما هذه القصيعة التى لك؟ و يستهزئ به، و يذكرون: أنه كان طوله ثلاثة آلاف ذراع و ثلاث مائة و ثلاثة و ثلاثين ذراعا و ثلثا، إلى غير ذلك من الهذيانات التى لو لا أنها مسطرة فى كثير من كتب التفاسير و غيرها من التواريخ و أيام الناس لما تعرضنا لحكايتها لسقاطتها و ركاكتها، ثم إنها مخالفة للمعقول و المنقول. أما المعقول: فكيف يسوغ فيه أن يهلك اللّه ولد نوح لكفره، و أبوه نبى الأمة و زعيم أهل الإيمان، و لا يهلك عوج بن عنق، و يقال: عناق، و هو أظلم و أطغى على ما ذكروا، و كيف لا يرحم اللّه منهم أحدا، و لا أم الصبى، و لا الصبى، و يترك هذا الدعى الجبار العنيد الفاجر الشديد الكافر الشيطان المريد على ما ذكروا. و أما المنقول: فقد قال اللّه تعالى: ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (۶۶)، و قال: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (۲۶)، ثم هذا الطول الذى ذكروه مخالف لما فى الصحيحين عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم أنه قال: (إن اللّه خلق آدم و طوله ستون ذراعا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن). فهذا نص الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى، أنه لم يزل الخلق ينقص حتى الآن، أى لم يزل الناس فى نقصان فى طولهم من آدم إلى يوم أخبره بذلك، و هلم جرا إلى يوم القيامة. و هذا يقتضى أنه لم يوجد من ذرية آدم من كان أطول منه، فكيف يترك هذا الآثار و التاريخ، ص: ۶۸ و يذهل عنه و يصار إلى أقوال الكذبة الكفرة من أهل الكتاب الذين بدلوا كتب اللّه المنزلة و حرفوها و أولوها و وضعوها على غير مواضعها، فما ظنك بما هم يستقلون بنقله، أو يؤتمنون عليه، و ما أظن أن هذا الخبر عن عوج بن عناق إلا اختلاقا من بعض زنادقتهم و فجارهم الذين كانوا أعداء الأنبياء، و اللّه أعلم. ثم ذكر اللّه تعالى مناشدة نوح ربه فى ولده و سؤاله له عن غرقه على وجه

الاستعلام و الاستكشاف، و وجه السؤال أنك وعدتنى بنجاة أهلى معى و هو منهم و قد غرق، فأجيب: بأنه ليس من أهلك، أى الذين و عدت بنجاتهم، أى أما قلنا لك: وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ، فكان هذا ممن سبق عليه القول منهم بأن سيغرق بكفره، و لهذا ساقته الأقدار إلى أن انحاز عن حوزة أهل الإيمان، فغرق مع حزبه أهل الكفر و الطغيان، ثم قال تعالى: قِيلَ يا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ عَلَيْكَ وَ عَلى أُمَمٍ مِمَّنْ مَعَكَ وَ أُمَمٌ سَنُمَتِّعُهُمْ ثُمَّ يَمَسُّهُمْ مِنَّا عَذابٌ أَلِيمٌ (۴۸)، هذا أمر لنوح عليه السلام لما نضب الماء عن وجه الأرض و أمكن السعى فيها و الاستقرار عليها أن يهبط من السفينة التى كانت قد استقرت بعد سيرها العظيم على ظهر جبل الجودى، و هو جبل بأرض الجزيرة مشهور، و قد قدمنا ذكره عند خلق الجبال بِسَلامٍ مِنَّا وَ بَرَكاتٍ، أى اهبط سالما مباركا عليك، و على أمم ممن سيولد بعد، أى من أولادك، فإن اللّه لم يجعل لأحد ممن كان معه من المؤمنين نسلا و لا عقبا سوى نوح عليه السلام، قال تعالى: وَ جَعَلْنا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْباقِينَ (۷۷)، فكل من على وجه الأرض اليوم من سائر أجناس بنى آدم ينسبون إلى أولاد نوح الثلاثة و هم: (سام، و حام، و يافث).

قصة لوط عليه السلام

الملحق (۲) قصة لوط عليه السلام «۱» كان مما وقع فى حياة إبراهيم الخليل من الأمور العظيمة قصة قوم لوط عليه السلام، و ما حل بهم من النقمة الغميمة، و ذلك أن لوطا بن هاران بن تارح، و هو آزر كما جاء فى القرآن، و لوط ابن أخى إبراهيم الخليل، فإبراهيم و هاران و ناحور أخوة، كما قدمنا، و يقال: إن هاران هذا هو الذى بنى حران، و هذا ضعيف لمخالفته ما بأيدى أهل الكتاب، و اللّه أعلم، و كان لوط قد نزح عن محلة عمه الخليل عليهما السلام بأمره له، و أذنه فنزل بمدينة سدوم من أرض غور زغر، و كان أم تلك المحلة، و لها أرض و معتملات و قرى مضافة إليها، و لها أهل من أفجر الناس و أكفرهم و أسوأهم طوية و أرداهم سريرة و سيرة، يقطعون السبيل، و يأتون فى ناديهم المنكر، و لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون، ابتدعوا فاحشة لم يسبقهم إليها أحد من بنى آدم، و هى إتيان الذكران من العالمين، و ترك ما خلق اللّه من النسوان لعباده الصالحين، فدعاهم لوط إلى عبادة اللّه تعالى وحده لا شريك له، و نهاهم عن تعاطى هذه المحرمات و الفواحش المنكرات و الأفاعيل المستقبحات، فتمادوا على ضلالهم و طغيانهم و استمروا على فجورهم و كفرانهم، فأحل اللّه بهم من البأس الذى لا يرد ما لم يكن فى خلدهم و حسبانهم، و جعلهم مثلة فى العالمين، و عبرة يتعظ بها الألباء من العالمين، و لهذا ذكر اللّه تعالى قصتهم فى غير ما موضع من كتابه المبين فقال تعالى فى سورة الأعراف: وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (۸۰) إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (۸۱) وَ ما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۸۲) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۸۳) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ

(۱) موسوعة الدكتور طارق السويدان، قصص الأنبياء، قرص مدمج. الآثار و التاريخ، ص: ۷۰

الْمُجْرِمِينَ (۸۴). و قال تعالى فى سورة هود: وَ لَقَدْ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ فَما لَبِثَ أَنْ جاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ (۶۹) فَلَمَّا رَأى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَ أَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمِ لُوطٍ (۷۰) وَ امْرَأَتُهُ قائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْناها بِإِسْحاقَ وَ مِنْ وَراءِ إِسْحاقَ يَعْقُوبَ (۷۱) قالَتْ يا وَيْلَتى أَ أَلِدُ وَ أَنَا عَجُوزٌ وَ هذا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ (۷۲) قالُوا أَ تَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَ بَرَكاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ (۷۳) فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (۷۴) إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (۷۵) يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (۷۶) وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (۷۷) وَ جاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ (۷۸) قالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ (۷۹) قالَ لَوْ أَنَّ لِي

بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوى إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ (۸۰) قالُوا يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُها ما أَصابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ (۸۱) فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (۸۲) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (۸۳). و قال تعالى فى سورة الحجر: وَ نَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ (۵۱) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (۵۲) قالُوا لا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (۵۳) قالَ أَ بَشَّرْتُمُونِي عَلى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (۵۴) قالُوا بَشَّرْناكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقانِطِينَ (۵۵) قالَ وَ مَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (۵۶) قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۵۷) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۵۸) إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۹) إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنا إِنَّها لَمِنَ الْغابِرِينَ (۶۰) فَلَمَّا جاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (۶۱) قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ الآثار و التاريخ، ص: ۷۱ مُنْكَرُونَ (۶۲) قالُوا بَلْ جِئْناكَ بِما كانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (۶۳) وَ أَتَيْناكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّا لَصادِقُونَ (۶۴) فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَ اتَّبِعْ أَدْبارَهُمْ وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَ امْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (۶۵) وَ قَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (۶۶) وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (۶۷) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (۶۸) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ (۶۹) قالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (۷۰) قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (۷۱) لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (۷۲) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (۷۳) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (۷۴) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (۷۵) وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (۷۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (۷۷). و قال تعالى فى سورة الشعراء: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ (۱۶۰) إِذْ قالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَ لا تَتَّقُونَ (۱۶۱) إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۶۲) فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُونِ (۱۶۳) وَ ما أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلى رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۶۴) أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (۱۶۵) وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (۱۶۶) قالُوا لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ (۱۶۷) قالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقالِينَ (۱۶۸) رَبِّ نَجِّنِي وَ أَهْلِي مِمَّا يَعْمَلُونَ (۱۶۹) فَنَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (۱۷۰) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (۱۷۱) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (۱۷۲) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (۱۷۳) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۱۷۴) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۱۷۵)، و قال تعالى فى سورة النمل: وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَ تَأْتُونَ الْفاحِشَةَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (۵۴) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّساءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۵۵) فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۵۶) فَأَنْجَيْناهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْناها مِنَ الْغابِرِينَ (۵۷) وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (۵۸). و قال تعالى فى سورة العنكبوت: وَ لُوطاً إِذْ قالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفاحِشَةَ ما سَبَقَكُمْ بِها مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعالَمِينَ (۲۸) أَ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجالَ وَ تَقْطَعُونَ السَّبِيلَ الآثار و التاريخ، ص: ۷۲ وَ تَأْتُونَ فِي نادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَما كانَ جَوابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قالُوا ائْتِنا بِعَذابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۲۹) قالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ (۳۰) وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (۳۱) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۳۲) وَ لَمَّا أَنْ جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالُوا لا تَخَفْ وَ لا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَ أَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۳۳) إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۳۴) وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (۳۵). و قال تعالى فى سورة الصافات: وَ إِنَّ لُوطاً لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (۱۳۳) إِذْ نَجَّيْناهُ وَ أَهْلَهُ أَجْمَعِينَ (۱۳۴) إِلَّا عَجُوزاً فِي الْغابِرِينَ (۱۳۵) ثُمَّ دَمَّرْنَا الْآخَرِينَ (۱۳۶) وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (۱۳۷) وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (۱۳۸) ... و قال تعالى فى الذاريات، بعد قصة ضيف إبراهيم و بشارتهم إياه بغلام عليم: قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۳۱) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۳۲) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (۳۳) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (۳۴) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۳۵) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (۳۶) وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (۳۷) .. و قال فى سورة القمر: كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (۳۳) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (۳۴) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (۳۵) وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (۳۶) وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ (۳۷) وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (۳۸) فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ (۳۹) وَ لَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (۴۰). و قد تكلم المفسرون عن هذه القصص فى أماكنها من

تفاسيرهم، و قد ذكر اللّه لوطا و قومه فى موضع آخر من القرآن جاء ذكره مع قوم نوح و عاد و ثمود، و المقصود الآن إيراد ما كان من أمرهم، و ما أحل اللّه بهم، مجموعا من الآيات و الآثار، و باللّه المستعان. الآثار و التاريخ، ص: ۷۳ و ذلک: أن لوطا عليه السّلام لما دعاهم إلى عبادة اللّه وحده لا شريک له، و نهاهم عن تعاطى ما ذكر اللّه عنهم من الفواحش، فلم يستجيبوا له، و لم يؤمنوا به، حتى و لا رجل واحد منهم، و لم يتركوا ما عنه نهوا، بل استمروا على حالهم و لم يرتدعوا عن غيهم و ضلالهم، و هموا بإخراج رسولهم من بين ظهرانيهم، و ما كان حاصل جوابهم عن خطابهم إذ كانوا لا يعقلون إِلَّا أَنْ قالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (۵۶) فجعلوا غاية المدح ذما يقتضى الإخراج، و ما حملهم على مقالتهم هذه إلا العناد و اللجاج، فطهره اللّه و أهله، إلا امرأته، و أخرجهم منها أحسن إخراج، و تركهم فى محلتهم خالدين، لكن بعد ما صيرها عليهم بحيرة منتنة ذات أمواج، لكنها عليهم فى الحقيقة: نار تأجج و حر يتوهج و ماؤها ملح أجاج، و ما كان هذا جوابهم إلا لما نهاهم عن الطامة العظمى و الفاحشة الكبرى التى لم يسبقهم إليها أحد من أهل الدنيا، و لهذا صاروا مثلة فيها و عبرة لمن عليها، و كانوا مع ذلک يقطعون الطريق و يخونون الرفيق و يأتون فى ناديهم، و هو مجتمعهم و محل حديثهم و سمرهم، المنكر من الأقوال و الأفعال على اختلاف أصنافه، حتى قيل: إنهم كانوا يتضارطون فى مجالسهم و لا يستحيون من مجالسهم، و ربما وقع منهم الفعلة العظيمة فى المحافل، و لا يستنكفون و لا يرعوون لوعظ واعظ و لا نصيحة من عاقل، و كانوا فى ذلک و غيره كالأنعام بل أضل سبيلا، و لم يقلعوا عما كانوا عليه فى الحاضر، و لا ندموا على ما سلف من الماضى، و لا راموا فى المستقبل تحويلا، فأخذهم اللّه أخذا و بيلا، و قالوا له فيما قالوا: «ائتنا بعذاب اللّه إن كنت من الصادقين» فطلبوا منه وقوع ما حذرهم عنه من العذاب الأليم و حلول البأس العظيم، فعند ذلک دعا عليهم نبيهم الكريم، فسأل من رب العالمين و إله المرسلين أن ينصره على القوم المفسدين، فغار اللّه لغيرته، و غضب لغضبته، و استجاب لدعوته، و أجابه إلى طلبته، و بعث رسله الكرام و ملائكته العظام، فمروا على الخليل إبراهيم، و بشروه بالغلام العليم، و أخبروه بما جاءوا له من الأمر الجسيم و الخطب العميم:* قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (۳۱) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (۳۲) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (۳۳) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّکَ لِلْمُسْرِفِينَ (۳۴)، (الذاريات) .. و قال: وَ لَمَّا الآثار و التاريخ، ص: ۷۴ جاءَتْ رُسُلُنا إِبْراهِيمَ بِالْبُشْرى قالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَها كانُوا ظالِمِينَ (۳۱) قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها لَنُنَجِّيَنَّهُ وَ أَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الْغابِرِينَ (۳۲)، (العنكبوت). و قال اللّه تعالى: فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْراهِيمَ الرَّوْعُ وَ جاءَتْهُ الْبُشْرى يُجادِلُنا فِي قَوْمِ لُوطٍ (۷۴)، و ذلک إنه كان يرجوا أن ينيبوا و يسلموا و يقلعوا و يرجعوا، و لهذا قال تعالى: إِنَّ إِبْراهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ (۷۵) يا إِبْراهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هذا إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّکَ وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ (۷۶)، (هود). أى أعرض عن هذا و تكلم فى غيره، فإنه قد حتم أمرهم، و وجب عذابهم و تدميرهم و هلاكهم إِنَّهُ قَدْ جاءَ أَمْرُ رَبِّکَ أى قد أمر به من لا يرد أمره و لا يرد بأسه و لا معقب لحكمه وَ إِنَّهُمْ آتِيهِمْ عَذابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ. و ذكر سعيد بن جبير و السدى و قتادة و محمد بن إسحاق: أن إبراهيم عليه السلام جعل يقول: أ تهلكون قرية فيها ثلاثمائة مؤمن؟ قالوا: لا، قال: فمائتا مؤمن؟ قالوا: لا، قال فأربعون مؤمنا؟ قالوا: لا، قال: فأربعة عشر مؤمنا؟ قالوا: لا، قال ابن إسحاق: إلى أن قال: أ فرأيتم إن كان فيها مؤمن واحد؟ قالوا: لا؟ قالَ إِنَّ فِيها لُوطاً قالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيها الآية. و عند أهل الكتاب أنه قال: يا رب، أ تهلكهم و فيهم خمسون رجلا صالحا؟ فقال اللّه لا أهلكهم و فيهم خمسون صالحا، ثم تنازل إلى عشرة، فقال اللّه: لا أهلكهم و فيهم عشرة صالحون، قال اللّه تعالى: وَ لَمَّا جاءَتْ رُسُلُنا لُوطاً سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ (۷۷)، قال المفسرون: و لما فصلت الملائكة من عند إبراهيم، و هم: (جبريل و ميكائيل و إسرافيل)، أقبلوا حتى أتوا أرض سدوم فى صور شبان حسان، اختبارا من اللّه تعالى لقوم لوط، و إقامة للحجة عليهم، فاستضافوا لوطا عليه السلام، و ذلک عند غروب الشمس، فخشى إن لم يضفهم يضيفهم غيره، و حسبهم بشرا من الناس سِيءَ بِهِمْ وَ ضاقَ بِهِمْ ذَرْعاً وَ قالَ هذا يَوْمٌ عَصِيبٌ. قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و محمد بن إسحاق: شديد بلاؤه و ذلک لما يعلم من الآثار و التاريخ، ص: ۷۵ مدافعته الليلة عنهم، كما كان يصنع بهم فى غيرهم، و كانوا قد اشترطوا عليه أن لا يضيف أحدا، و لكن رأى من لا يمكن المحيد عنه. و ذكر قتادة أنهم وردوا عليه و هو فى أرض له يعمل فيها،

فتضيفوا فاستحيى منهم و انطلق أمامهم و جعل يعرض لهم فى الكلام لعلهم ينصرفون عن هذه القرية و ينزلوا فى غيرها، فقال لهم فيما قال: يا هؤلاء، ما أعلم على وجه الأرض أهل بلد أخبث من هؤلاء، ثم مشى قليلا ثم أعاد ذلك عليهم حتى كرره أربع مرات، قال: و كانوا قد أمروا أن لا يهلكوهم حتى يشهد عليهم نبيهم بذلك. و قال السدى: خرجت الملائكة من عند إبراهيم نحو قوم لوط فأتوها نصف النهار فلما بلغوا نهر سدوم لقوا ابنة لوط تستقى من الماء لأهلها، و كانت له ابنتان: اسم الكبرى ريثا، و الصغرى ذعرتا، فقالوا لها: يا جارية، هل من منزل؟ فقالت لهم: مكانكم لا تدخلوا حتى آتيكم، فرقت عليهم من قومها فأتت أباها، فقالت: يا أبتاه، أرادك فتيان على باب المدينة ما رأيت وجوه قوم قط هى أحسن منهم لا يأخذهم قومك فيفضحوهم، و قد كان قومه نهوه أن يضيف رجلا، فجاء بهم فلم يعلم أحدا إلاـ أهل البيت، فخرجت امرأته فأخبرت قومها، فقالت: إن فى بيت لوط رجالا ما رأيت مثل وجوههم قط، فجاءه قومه يهرعون إليه، و قوله: وَ مِنْ قَبْلُ كانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئاتِ، أى هذا مع ما سلف لهم من الذنوب العظيمة الكبيرة الكثيرة قالَ يا قَوْمِ هؤُلاءِ بَناتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ يرشدهم إلى غشيان نسائهم، و هن بناته شرعا لأن النبى للأمة بمنزلة الوالد، كما ورد فى الحديث، و كما قال تعالى: النَّبِيُّ أَوْلى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَ أَزْواجُهُ أُمَّهاتُهُمْ، و فى قول بعض الصحابة و السلف: و هو أب لهم، و هذا كقوله تعالى فى سورة الشعراء: أَ تَأْتُونَ الذُّكْرانَ مِنَ الْعالَمِينَ (١۶۵) وَ تَذَرُونَ ما خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْواجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عادُونَ (١۶۶)، و هذا هو الذى نص عليه مجاهد و سعيد بن جبير و الربيع بن أنس و قتادة و السدى و محمد بن إسحاق و هو الصواب. و القول الآخر خطأ مأخوذ من أهل الكتاب، و قد تصحف عليهم كما أخطئوا فى قولهم: إن الملائكة كانوا اثنين، و إنهم تعشوا عنده، و قد خبط أهل الكتاب فى هذه القصة تخبيطا عظيما. الآثار و التاريخ، ص: ٧۶ و قوله: فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَ لَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ نهى لهم عن تعاطى ما لا يليق من الفاحشة و شهادة عليهم بأنه ليس فيهم رجل له مسكة و لا فيه خير، بل الجميع سفهاء فجرة أقوياء كفرة أغبياء، و كان هذا من جملة ما أراد الملائكة أن يسمعوا منه من قبل أن يسألوه عنه، فقال قومه، عليهم لعنة اللّه الحميد المجيد، مجيبين لنبيهم فيما أمرهم به من الأمر السديد: لَقَدْ عَلِمْتَ ما لَنا فِي بَناتِكَ مِنْ حَقٍّ وَ إِنَّكَ لَتَعْلَمُ ما نُرِيدُ يقولون، عليهم لعائن اللّه: لقد علمت يا لوط إنه لا أرب لنا فى نسائنا، و إنك لتعلم مرادنا و غرضنا، واجهوا بهذا الكلام القبيح رسولهم الكريم و لم يخافوا سطوة العظيم ذى العذاب الأليم، و لهذا قال عليه السّلام: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ ود أن لو كان له بهم قوة، أو له منعة و عشيرة ينصرونه عليهم ليحل بهم ما يستحقونه من العذاب على هذا الخطاب. و قد قال الزهرى: عن سعيد بن المسيب و أبى سلمة، عن أبى هريرة مرفوعا: نحن أحق بالشك من إبراهيم، و يرحم اللّه لوطا لقد كان يأوى إلى ركن شديد، و لو لبثت فى السجن ما لبث يوسف لأجبت الداعى. و رواه أبو الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة. و قال محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة، عن أبى هريرة، أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: (رحمة اللّه على لوط لقد كان يأوى إلى ركن شديد، يعنى اللّه عز و جل، فما بعث اللّه بعده من نبى إلا فى ثروة من قومه). و قال تعالى: وَ جاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (۶٧) قالَ إِنَّ هؤُلاءِ ضَيْفِي فَلا تَفْضَحُونِ (۶٨) وَ اتَّقُوا اللَّهَ وَ لا تُخْزُونِ (۶٩) قالُوا أَ وَ لَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعالَمِينَ (٧٠) قالَ هؤُلاءِ بَناتِي إِنْ كُنْتُمْ فاعِلِينَ (٧١)، فأمرهم بقربان نسائهم، و حذرهم الاستمرار على طريقتهم، و سيئاتهم هذا و هم فى ذلك لا ينتهون و لا يرعوون، بل كلما نصح لهم يبالغون فى تحصيل هؤلاء الضيوف و يحرضون، و لم يعلموا ما حكم به القدر مما هم إليه صائرون، و صبيحة ليلتهم إليه منقلبون، و لهذا قال تعالى مقسما بحياة نبيه محمد صلوات اللّه و سلامه عليه: لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)، و قال تعالى فى سورة القمر: الآثار و التاريخ، ص: ٧٧ وَ لَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (٣۶) وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ (٣٧) وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (٣٨)، ذكر المفسرون و غيرهم: أن نبى اللّه لوطا عليه السّلام جعل يمانع قومه الدخول، و يدافعهم و الباب مغلق، و هم يرومون فتحه و ولوجه، و هو يعظهم و ينهاهم من وراء الباب، و كل ما لهم فى اللجاج و العاج، فلما ضاق الأمر و عسر الحال قال: لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلى رُكْنٍ شَدِيدٍ لأحللت بكم النكال، قالت الملائكة: يا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ و ذكروا أن جبريل عليه السّلام خرج عليهم فضرب وجوههم خفقة بطرف جناحه، فطمست أعينهم حتى قيل: إنها غارت بالكلية و لم يبق لها محل و لا عين و لا أثر،

فرجعوا يتحسسون مع الحيطان و يتوعدون رسول الرحمن و يقولون: إذا كان الغد كان لنا و له شأن. قال اللّه تعالى: وَ لَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَ نُذُرِ (۳۷) وَ لَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (۳۸) فذلك أن الملائكة تقدمت إلى لوط عليهم السلام آمرين له بأن يسرى هو و أهله من آخر الليل وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ يعنى عند سماع صوت العذاب إذا حل بقومه، و أمروه أن يكون سيره فى آخرهم كالساقة لهم، و قوله: إِلَّا امْرَأَتَكَ على قراءة النصب يحتمل أن يكون مستثنى من قوله: فأسر بأهلك، كأنه يقول: إلا امرأتك فلا تسر بها، و يحتمل أن يكون مستثنى من قوله: وَ لا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ أى فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم، و يقوى هذا الاحتمال قراءة الرفع، و لكن الأول أظهر فى المعنى، و اللّه أعلم. قال السهيلى: و اسم امرأة لوط: والهة، و اسم امرأة نوح، والغة، و قالوا له مبشرين بهلاك هؤلاء البغاة العتاة الملعونين النظراء و الأشباه الذين جعلهم اللّه سلفا لكل خائن مريب: إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَ لَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ، فلما خرج لوط عليه السلام بأهله و هم ابنتاه و لم يتبعه منهم رجل واحد، و يقال: إن امرأته خرجت معه، فاللّه أعلم، فلما خلصوا من بلادهم و طلعت الشمس فكان عند شروقها جاءهم من أمر اللّه ما لا الآثار و التاريخ، ص: ۷۸ يرد، و من البأس الشديد ما لا يمكن أن يصد. و عند أهل الكتاب: أن الملائكة أمروه أن يصعد إلى رأس الجبل الذى هناك فاستبعده و سأل منهم أن يذهب إلى قرية قريبة منهم فقالوا: اذهب فإنا ننتظرك حتى تصير إليها و تستقر فيها، ثم نحل بهم العذاب. فذكروا أنه ذهب إلى قرية: صغر التى يقول الناس: غور زغر، فلما اشرقت الشمس نزل بهم العذاب. قال اللّه تعالى: فَلَمَّا جاءَ أَمْرُنا جَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ (۸۲) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ (۸۳) قالوا: اقتلعهن جبريل بطرف جناحه من قرارهن و كن سبع مدن بمن فيهن من الأمم، فقالوا: إنهم كانوا أربع مائة نسمة، و قيل: أربعة آلاف نسمة، و ما معهم من الحيوانات، و ما يتبع تلك المدن من الأراضى و الأماكن و المعتملات، فرفع الجميع حتى بلغ بهن عنان السماء حتى سمعت الملائكة أصوات ديكتهم و نباح كلابهم، ثم قلبها عليهم فجعل عاليها سافلها، قال مجاهد: فكان أول ما سقط منها شرفاتها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْها حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ، و السجيل: فارسى معرب، و هو: الشديد الصلب القوى مَنْضُودٍ، أى يتبع بعضها بعضا فى نزولها عليهم من السماء مُسَوَّمَةً، أى معلمة مكتوب على كل حجر اسم صاحبه الذى يهبط عليه فيدمغه، كما قال: مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ، و كما قال تعالى: وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَساءَ مَطَرُ الْمُنْذَرِينَ (۱۷۳)، و قال تعالى: وَ الْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى (۵۳) فَغَشَّاها ما غَشَّى (۵۴)، يعنى قلبها فأهوى بها منكسة عاليها سافلها، و غشاها بمطر من حجارة من سجيل متتابعة مرقومة على كل حجر اسم صاحبه الذى سقط عليه من الحاضرين منهم فى بلدهم، و الغائبين عنها من المسافرين، و النازحين و الشاذين منها، و يقال: إن امرأة لوط مكثت مع قومها، و يقال: إنها خرجت مع زوجها و بنتيها، و لكنها لما سمعت الصيحة و سقوط البلدة و التفتت إلى قومها و خالفت أمر ربها قديما و حديثا، و قالت: وا قوماه فسقط عليها حجر فدمغها، و ألحقها بقومها إذ كانت على دينهم و كانت عينا لهم على من يكون عند لوط من الضيفان، كما قال تعالى: ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَ امْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَ قِيلَ الآثار و التاريخ، ص: ۷۹ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ (۱۰)، أى خانتاهما فى الدين فلم يتابعاهما فيه، و ليس المراد: أنهما كانتا على فاحشة حاشا و كلا و لما فإن اللّه لا يقدر على نبى أن تبغى امرأته كما قال ابن عباس و غيره من أئمة السلف و الخلف: ما بغت امرأة نبى قط، و من قال خلاف هذا فقد أخطأ خطأ كبيرا. قال اللّه تعالى فى قصة الإفك لما أنزل براءة أم المؤمنين عائشة بنت الصديق زوج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم حين قال لها أهل الإفك ما قالوا فعاتب اللّه المؤمنين و أنب و زجر و وعظ و حذر و قال فيما قال تعالى فى سورة النور: إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَ تَقُولُونَ بِأَفْواهِكُمْ ما لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَ تَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وَ هُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ (۱۵) وَ لَوْ لا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ ما يَكُونُ لَنا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهذا سُبْحانَكَ هذا بُهْتانٌ عَظِيمٌ (۱۶) أى سبحانك أن تكون زوجة نبيك بهذه المثابة، و قوله هاهنا: وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ أى و ما هذه العقوبة ببعيدة ممن أشبههم فى فعلهم، و لهذا ذهب من ذهب من العلماء إلى أن اللائط يرجم سواء كان محصنا أو لا، نص عليه الشافعى و أحمد بن حنبل و طائفة كثيرة من الأئمة، و احتجوا أيضا بما رواه الإمام أحمد، و أهل السنن من حديث عمرو بن أبى عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال:

(من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل و المفعول به). و ذهب أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق جبل، و يتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط، لقوله تعالى: وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ و جعل اللّه مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها، و لا بما حولها من الأراضى المتاخمة لفنائها لرداءتها و دناءتها، فصارت عبرة و مثلة و عظة و آية على قدرة اللّه تعالى و عظمته و عزته فى انتقامه ممن خالف أمره و كذب رسله و اتبع هواه و عصى مولاه، و دليلا على رحمته بعبادة المؤمنين فى انجائه إياهم من المهلكات، و إخراجه إياهم من النور إلى الظلمات، كما قال تعالى: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (٨) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٩)، و قال تعالى: فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) فَجَعَلْنا عالِيَها سافِلَها وَ أَمْطَرْنا عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤) إِنَّ فِي ذلِكَ الآثار و التاريخ، ص: ٨٠ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥) وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) أى من نظر بعين الفراسة و التوسم فيهم، كيف غير اللّه تلك البلاد و أهلها و كيف جعلها بعد ما كانت آهلة عامرة هالكة غامرة؟ كما روى الترمذى و غيره مرفوعا: (اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور اللّه) ثم قرأ: إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ. و قوله: وَ إِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ أى لبطريق مهيع مسلوك إلى الآن، كما قال: وَ إِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ (١٣٧) وَ بِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (١٣٨)، و قال تعالى: وَ لَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٣٥)، و قال تعالى: فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) وَ تَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (٣٧) أى تركناها عبرة و عظة لمن خاف عذاب الآخرة و خشى الرحمن بالغيب و خاف مقام ربه و نهى النفس عن الهوى فانزجر عن محارم اللّه و ترك معاصيه و خاف أن يشابه قوم لوط (و من تشبه بقوم فهو منهم) و إن لم يكن من كل وجه، فمن بعض الوجوه، كما قال بعضهم: فإن لم تكونوا قوم لوط بعينهم، فما قوم لوط منكم ببعيد، فالعاقل اللبيب الخائف من ربه الفاهم يمتثل ما أمره اللّه به عز و جل، و يقبل ما أرشده إليه رسول اللّه من إتيان ما خلق له من الزوجات الحلال، و الجوارى من السرارى ذوات الجمال، و إياه أن يتبع كل شيطان مريد، فيحق عليه الوعيد، و يدخل فى قوله تعالى: وَ ما هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ.

قصة موسى الكليم عليه السلام

الملحق (٣) قصة موسى الكليم عليه السلام «١» و هو موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوى بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام، قال تعالى فى سورة مريم: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا (٥١) وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا (٥٢) وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (٥٣)، و قد ذكره اللّه تعالى فى مواضع كثيرة متفرقة من القرآن، و ذكر قصته فى مواضع متعددة مبسوطة مطولة و غير مطولة، و قد تكلم عن ذلك كله فى مواضعه كل أهل التفسير، و سنورد سيرته هاهنا من ابتدائها إلى آخرها من الكتاب و السنة، و ما ورد فى الآثار المنقولة من الإسرائيليات التى ذكرها السلف و غيرهم إن شاء اللّه، و به الثقة و عليه التكلان. قال اللّه تعالى فى سورة القصص: طسم (١) تِلْكَ آياتُ الْكِتابِ الْمُبِينِ (٢) نَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَإِ مُوسى وَ فِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣) إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً يَسْتَضْعِفُ طائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٤) وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (٥) وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ (٦) .. يذكر تعالى ملخص القصة ثم يبسطها بعد هذا، فذكر أنه يتلو على نبيه خبر موسى و فرعون بالحق، أى بالصدق الذى كأن سامعه مشاهد للأمر معاين له إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً أى تجبر و عتا و طغى و بغى، و آثر الحياة الدنيا، و أعرض عن طاعة الرب الأعلى وَ جَعَلَ أَهْلَها شِيَعاً أى قسم رعيته إلى أقسام و فرق، و أنواع يستضعف طائفة منهم، و هم شعب بنى

(١) موسوعة الدكتور طارق السويدان، قصص الأنبياء، قرص مدمج. الآثار و التاريخ، ص: ٨٢ إسرائيل الذين هم من سلالة نبى اللّه يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل اللّه، و كانوا إذ ذاك خيار أهل الأرض، و قد سلط عليهم هذا الملك الظالم الغاشم الكافر الفاجر يستعبدهم و يستخدمهم فى أخس

الصنائع و الحرف و أرداها و أدناها و مع هذا: يُذَبِّحُ أَبْناءَهُمْ وَ يَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ إِنَّهُ كانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ و كان الحامل له على هذا الصنيع القبيح أن بنى إسرائيل كانوا يتدارسون فيما بينهم ما يأثرونه عن إبراهيم عليه السلام من أنه سيخرج من ذريته غلام يكون هلاك ملك مصر على يديه و ذلك، و اللّه أعلم، حين كان جرى على سارة امرأة الخليل من ملك مصر من إرادته إياها على السوء، و عصمة اللّه لها، و كانت هذه البشارة مشهورة فى بنى إسرائيل، فتحدث بها القبط فيما بينهم، و وصلت إلى فرعون فذكرها له بعض أمرائه و أساورته و هم يسمرون عنده، فأمر عند ذلك بقتل أبناء بنى إسرائيل حذرا من وجوه هذا الغلام، و لن يغنى حذر من قدر. و ذكر السدى عن أبى صالح و أبى مالك، عن ابن عباس و عن مرة، عن ابن مسعود و عن أناس من الصحابة: أن فرعون رأى فى منامه كأن نارا قد أقبلت من نحو بيت المقدس، فأحرقت دور مصر و جميع القبط و لم تضر بنى إسرائيل، فلما استيقظ هاله ذلك، فجمع الكهنة و الحزأة و السحرة، و سألهم عن ذلك؟ فقالوا: هذا غلام يولد من هؤلاء يكون سبب هلاك أهل مصر على يديه، فلهذا أمر بقتل الغلمان و ترك النسوان، و لهذا قال اللّه تعالى: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ و هم بنو إسرائيل وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ أى الذين يؤول ملك مصر و بلادها إليهم وَ نُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَ نُرِيَ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما مِنْهُمْ ما كانُوا يَحْذَرُونَ أى سنجعل الضعيف قويا، و المقهور قادرا، و الذليل عزيزا، و قد جرى هذا كله لبنى إسرائيل، كما قال تعالى فى سورة الأعراف (١٣٧): وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا الآثار و التاريخ، ص: ٨٣ يَعْرِشُونَ (١٣٧)، الآية، و قال تعالى فى الدخان: كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (٢٥) وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (٢٧) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (٢٨). و سيأتى تفصيل ذلك فى موضعه إن شاء اللّه. و المقصود: أن فرعون احترز كل الاحتراز أن لا يوجد موسى، حتى جعل رجالا و قوابل يدورون على الحبالى، و يعلمون ميقات وضعهن، فلا تلد امرأة ذكرا إلا ذبحه أولئك الذباحون من ساعته. و عند أهل الكتاب: أنه إنما كان يأمر بقتل الغلمان لتضعف شوكة بنى إسرائيل، فلا يقاومونهم إذا غالبوهم أو قاتلوهم، و هذا فيه نظر، بل هو باطل، و إنما هذا فى الأمر بقتل الولدان بعد بعثة موسى، كما قال تعالى: فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ، و لهذا قالت بنو إسرائيل لموسى: أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا فالصحيح: أن فرعون إنما أمر بقتل الغلمان أولا حذرا من وجود موسى، هذا و القدر يقول: يا أيها ذا الملك الجبار المغرور بكثرة جنوده، و سلطة بأسه و اتساع سلطانه، قد حكم العظيم الذى لا يغالب و لا يمانع و لا يخالف أقداره، أن هذا المولود الذى تحترز منه و قد قتلت بسببه من النفوس ما لا يعد و لا يحصى، لا يكون مرباه إلا فى دارك و على فراشك، و لا يغذى إلا بطعامك و شرابك فى منزلك، و أنت الذى تتبناه و تربيه، و تتعداه و لا تطلع على سر معناه، ثم يكون هلاكك فى دنياك و أخراك على يديه، لمخالفتك ما جاءك به من الحق المبين، و تكذيبك ما أوحى إليه لتعلم أنت و سائر الخلق أن رب السماوات و الأرض هو الفعال لما يريد، و أنه هو القوى الشديد ذو البأس العظيم و الحول و القوة و المشيئة التى لا مرد لها. و قد ذكر غير واحد من المفسرين: أن القبط شكوا إلى فرعون قلة بنى إسرائيل بسبب قتل ولدانهم الذكور، و خشى أن تتفانى الكبار مع قتل الصغار، فيصيرون هم الذين يلون ما كان بنو إسرائيل يعالجون، فأمر فرعون بقتل الأبناء عاما و أن يتركوا عاما، فذكروا أن هارون عليه السّلام ولد فى عام المسامحة عن قتل الأبناء، و أن موسى عليه السلام ولد فى عام قتلهم، فضاقت أمه به ذرعا و احترزت من أول ما حبلت، و لم يكن يظهر عليها مخاييل الحبل، فلما وضعت ألهمت أن اتخذت له تابوتا فربطته فى الآثار و التاريخ، ص: ٨۴ حبل، و كانت دارها متاخمة للنيل، فكانت ترضعه فإذا خشيت من أحد وضعته فى ذلك التابوت فأرسلته فى البحر و أمسكت طرف الحبل عندها، فإذا ذهبوا استرجعته إليها به، قال اللّه تعالى: وَ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّ مُوسى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَ لا تَخافِي وَ لا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ جُنُودَهُما كانُوا خاطِئِينَ (٨) وَ قالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ لا تَقْتُلُوهُ عَسى أَنْ يَنْفَعَنا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩)، (القصص). هذا الوحى وحى إلهام و إرشاد كما قال تعالى فى سورة النحل: وَ

أَوْحى رَبُّکَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِی مِنَ الْجِبالِ بُيُوتاً وَ مِنَ الشَّجَرِ وَ مِمَّا يَعْرِشُونَ (۶۸) ثُمَّ كُلِی مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ فَاسْلُكِی سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِها شَرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِی ذلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (۶۹)، الآية، و ليس هو بوحى نبوة كما زعمه ابن حزم و غير واحد من المتكلمين، بل الصحيح الأول كما حكاه أبو الحسن الأشعری عن أهل السنة و الجماعة. قال السهيلی: و اسم أم موسى أيارخا: و قيل: أياذخت. و المقصود: أنها أرشدت إلى هذا الذی ذكرناه و ألقى فی خلدها و روعها أن لا تخافى و لا تحزنی، فإنه إن ذهب فإن اللّه سيرده إليك، و إن اللّه سيجعله نبيا مرسلا يعلى كلمته فی الدنيا و الآخرة، فكانت تصنع ما أمرت به، فأرسلته ذات يوم و ذهلت أن تربط طرف الحبل عندها، فذهب مع النيل فمر على دار فرعون فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ، قال اللّه تعالى: لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَ حَزَناً قال بعضهم: هذه لام العاقبة، و هو ظاهر إن كان متعلقا بقوله: فَالْتَقَطَهُ و أما إن جعل متعلقا بمضمون الكلام، و هو أن آل فرعون قيّضوا لالتقاطه ليكون لهم عدوا و حزنا، صارت اللام معللة كغيرها، و اللّه أعلم، و يقوى هذا التقدير الثانی قوله: إِنَّ فِرْعَوْنَ وَ هامانَ و هو الوزير السوء وَ جُنُودَهُما المتابعين لهما كانُوا خاطِئِينَ أى كانوا على خلاف الصواب، فاستحقوا هذه العقوبة و الحسرة. الآثار و التاريخ، ص: ۸۵ و ذكر المفسرون: أن الجوارى التقطنه من البحر فی تابوت مغلق عليه، فلم يتجاسرون على فتحه حتى وضعنه بين يدى امرأة فرعون: آسية بنت مزاحم بن عبيد بن الريان بن الوليد الذی كان فرعون مصر فی زمن يوسف، و قيل: إنها كانت من بنی إسرائيل من سبط موسى، و قيل: بل كانت عمته، حكاه السهيلی، فاللّه أعلم. و سيأتی مدحها و الثناء عليها فی قصة مريم بنت عمران، و أنهما يكونان يوم القيامة من أزواج رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فی الجنة. فلما فتحت الباب و كشفت الحجاب رأت وجهه يتلألأ بتلك الأنوار النبوية و الجلالة الموسوية، فلما رأته و وقع نظرها عليه أحبته حبا شديدا جدا، فلما جاء فرعون قال: ما هذا؟ و أمر بذبحه، فاستوهبته منه و دفعت عنه و قالت: قُرَّتُ عَيْنٍ لِی وَ لَكَ فقال لها فرعون: أما لك فنعم، و أما لی فلا، أی لا حاجة لی به و البلاء موكل بالمنطق، و قولها: عَسى أَنْ يَنْفَعَنا و قد أنالها اللّه ما رجت من النفع، أما فی الدنيا: فهداها اللّه به، و أما فی الآخرة: فأسكنها جنته بسببه أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً و ذلك أنهما تبنياه، لأنه لم يكن يولد لهما ولد، قال اللّه تعالى: وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ أی لا يدرون ما ذا يريد اللّه بهم أن قيضهم لالتقاطه من النقمة العظيمة بفرعون و جنوده وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً إِنْ كادَتْ لَتُبْدِی بِهِ لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (۱۰) وَ قالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ (۱۱)* وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ (۱۲) فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَیْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۳)، (القصص). قال ابن عباس و مجاهد و عكرمة و سعيد بن جبير و أبو عبيدة و الحسن و قتادة و الضحاك و غيرهم: وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً أی من كل شیء من أمور الدنيا إلا من موسى إِنْ كادَتْ لَتُبْدِی بِهِ أی لتظهر أمره و تسأل عنه جهرة لَوْ لا أَنْ رَبَطْنا عَلى قَلْبِها أی صبرناها و ثبتناها لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ و قالت لأخته و هی ابنتها الكبيرة: قُصِّيهِ أی اتبعی أثره و اطلبی له خبره فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ الآثار و التاريخ، ص: ۸۶ قال مجاهد: عن بعد. و قال قتادة: جعلت تنظر إليه و كأنها لا تريده، و لهذا قال: وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ و ذلك لأن موسى عليه السّلام لما استقر بدار فرعون أرادوا أن يغذوه برضاعة، فلم يقبل ثديا و لا أخذ طعاما، فحاروا فی أمره و اجتهدوا على تغذيته بكل ممكن، فلم يفعل، كما قال تعالى: وَ حَرَّمْنا عَلَيْهِ الْمَراضِعَ مِنْ قَبْلُ فأرسلوه مع القوابل و النساء إلى السوق لعلهم يجدون من يوافق رضاعته، فبينما هم وقوف به و الناس عكوف عليه إذ بصرت به أخته، فلم تظهر إنها تعرفه بل قالت: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ قال ابن عباس: لما قالت ذلك قالوا لها: ما يدريك بنصحهم و شفقتهم عليه؟ فقالت: رغبة فی صهر الملك و رجاء منفعته، فأطلقوها و ذهبوا معها إلى منزلهم، فأخذته أمه فلما أرضعته التقم ثديها، و أخذ يمتصه و يرتضعه، ففرحوا بذلك فرحا شديدا و ذهب البشير إلى آسية يعلمها بذلك، فاستدعتها إلى منزلها و عرضت عليها أن تكون عندها، و أن تحسن إليها فأبت عليها، و قالت: إن لی بعلا و أولادا و لست أقدر على هذا إلا أن ترسليه معی فأرسلته معها، و رتبت لها رواتب و أجرت عليها النفقات و الكسائی و الهبات، فرجعت به تحوزه إلى رحلها و قد جمع اللّه شمله بشملها. قال اللّه تعالى: فَرَدَدْناهُ إِلى أُمِّهِ كَیْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ لِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ أی كما وعدناها برده و رسالته فهذا رده، و

هو دليل على صدق البشارة برسالته وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ و قد امتن اللّه على موسى بهذا ليلة كلمه، فقال له فيما قال: وَ لَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرى (۳۷) إِذْ أَوْحَيْنا إِلى أُمِّكَ ما يُوحى (۳۸) أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَ عَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي و ذلك أنه كان لا يراه أحد إلا أحبه وَ لِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي إذ قال قتادة و غير واحد من السلف: أى تطعم و ترفه و تغذى بأطيب المآكل و تلبس أحسن الملابس بمرأى منى، و ذلك كله بحفظى و كلاءتى لك فيما صنعت بك لك، و قدرته من الأمور التى لا يقدر عليها غيرى إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ الآثار و التاريخ، ص: ۸۷ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (۴۰) و سنورد حديث الفتون فى موضعه بعد هذا إن شاء اللّه تعالى، و به الثقة و عليه التكلان. وَ لَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَ اسْتَوى آتَيْناهُ حُكْماً وَ عِلْماً وَ كَذلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (۱۴) وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (۱۵) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۱۶) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (۱۷)، (القصص). لما ذكر تعالى أنه أنعم على أمه برده لها و إحسانه بذلك و امتنانه عليها شرع فى ذكر أنه لما بلغ أشده و استوى، و هو احتكام الخلق و الخلق و هو سن الأربعين فى قول الأكثرين، آتاه اللّه حكما و علما، و هو النبوة و الرسالة التى كان بشر بها أمه حين قال: إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ثم شرع فى ذكر سبب خروجه من بلاد مصر و ذهابه إلى أرض مدين و إقامته هنالك حتى كمل الأجل، و انقضى الأمد، و كان ما كان من كلام اللّه له، و إكرامه بما أكرمه به، كما سيأتى، قال تعالى: وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها قال ابن عباس و سعيد بن جبير و عكرمة و قتادة و السدى: و ذلك نصف النهار، و عن ابن عباس: بين العشاءين فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ أى يتضاربان و يتهاوشان هذا مِنْ شِيعَتِهِ أى إسرائيلى وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ أى قبطى، قاله ابن عباس و قتادة و السدى و محمد بن إسحاق فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ و ذلك أن موسى عليه السّلام كانت له بديار مصر صولة، بسبب نسبته إلى تبنى فرعون له، و تربيته فى بيته، و كانت بنو إسرائيل قد عزوا و صارت لهم وجاهة، و ارتفعت رءوسهم بسبب أنهم أرضعوه و هم أخواله، أى من الرضاعة، فلما استغاث ذلك الإسرائيلى موسى عليه السّلام على ذلك القبطى أقبل إليه الآثار و التاريخ، ص: ۸۸ موسى فَوَكَزَهُ قال مجاهد: أى طعنه بجمع كفه، و قال قتادة: بعصا كانت معه فَقَضى عَلَيْهِ أى فمات منها، و قد كان ذلك القبطى كافرا مشركا باللّه العظيم، و لم يرد موسى قتله بالكلية، و إنما أراد زجره و ردعه، و مع هذا قال موسى- كما فى تتمة القصة فى سورة القصص-: وَ دَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلى حِينِ غَفْلَةٍ مِنْ أَهْلِها فَوَجَدَ فِيها رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلانِ هذا مِنْ شِيعَتِهِ وَ هذا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ قالَ هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ (۱۵) قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (۱۶) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ .. أى من العز و الجاه قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (۱۷) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (۱۸) فَلَمَّا أَنْ أَرادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُما قالَ يا مُوسى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ (۱۹) وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعى قالَ يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (۲۰) فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ قالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۲۱). يخبر تعالى أن موسى أصبح بمدينة مصر خائِفاً أى من فرعون و ملئه أن يعلموا أن هذا القتيل الذى رفع إليه أمره إنما قتله موسى فى نصرة رجل من بنى إسرائيل، فتقوى ظنونهم أن موسى منهم، و يترتب على ذلك أمر عظيم، فصار يسير فى المدينة فى صبيحة ذلك اليوم خائِفاً يَتَرَقَّبُ أى يلتفت، فبينما هو كذلك إذا ذلك الرجل الإسرائيلى الذى استنصره بالأمس يَسْتَصْرِخُهُ أى يصرخ به و يستغيثه على آخر قد قاتله فعنفه موسى و لامه على كثرة شره و مخاصمته، قال له: إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ ثم أراد أن يبطش بذلك القبطى الذى هو عدو لموسى و للإسرائيلى فيردعه عنه و يخلصه منه، فلما عزم على ذلك و أقبل على القبطى قالَ يا مُوسى أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي الآثار و التاريخ، ص: ۸۹ كَما قَتَلْتَ

نَفْساً بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا أَنْ تَكُونَ جَبَّاراً فِي الْأَرْضِ وَ ما تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ قال بعضهم: إنما قال هذا الكلام الإسرائيلى الذى اطلع على ما كان صنع موسى بالأمس، و كأنه لما رأى موسى مقبلا إلى القبطى اعتقد أنه جاء إليه لما عنفه قبل ذلك بقوله: إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فقال ما قال لموسى، و أظهر الأمر الذى كان وقع بالأمس، فذهب القبطى فاستعدى موسى إلى فرعون، و هذا الذى لم يذكر كثير من الناس سواه، و يحتمل أن قائل هذا هو القبطى، و أنه لما رآه مقبلا- إليه خافه، و رأى من سجيته انتصارا جديدا للإسرائيلى، فقال ما قال من باب الظن و الفراسة: إن هذا لعله قاتل ذاك القتيل بالأمس، أو لعله فهم من كلام الإسرائيلى حين استصرخه عليه ما دله على هذا، و اللّه أعلم. و المقصود: أن فرعون بلغه أن موسى هو قاتل ذلك المقتول بالأمس، فأرسل فى طلبه، و سبقهم رجل ناصح عن طريق أقرب وَ جاءَ رَجُلٌ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ ساعيا إليه مشفقا عليه، فقال: يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ أى من هذه البلدة إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ أى فيما أقوله لك، قال اللّه تعالى: فَخَرَجَ مِنْها خائِفاً يَتَرَقَّبُ أى فخرج من مدينة مصر من فوره على وجهه، لا يهتدى إلى طريق، و لا يعرفه قائلا: ... رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ (٢٣) فَسَقى لَهُما ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢٤)، (القصص). يخبر تعالى عن خروج عبده و رسوله و كليمه من مصر خائِفاً يَتَرَقَّبُ أى يتلفت، خشية أن يدركه أحد من قوم فرعون، و هو لا يدرى أين يتوجه، و لا إلى أين يذهب، و ذلك لأنه لم يخرج من مصر قبلها وَ لَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقاءَ مَدْيَنَ أى اتجه له طريق يذهب فيه قالَ عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ أى عسى أن تكون هذه الآثار و التاريخ، ص: ٩٠ الطريق موصلة إلى المقصود، و كذا وقع، فقد أوصلته إلى مقصود و أى مقصود وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ و كانت بئرا يستقون منها، و مدين هى المدينة التى أهلك اللّه فيها أصحاب الأيكة، و هم قوم شعيب عليه السّلام، و قد كان هلاكهم قبل زمن موسى عليه السّلام فى أحد قولى العلماء و لما ورد الماء المذكور وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ أى تكفكفان غنمهما أن تختلط بغنم الناس. و عند أهل الكتاب: أنهن كن سبع بنات، و هذا أيضا من الغلط، و كأنه كن سبعا، و لكن إنما كان تسقى اثنتان منهن، و هذا الجمع ممكن إن كان ذاك محفوظا، و إلا فالظاهر أنه لم يكن له سوى بنتان قالَ ما خَطْبُكُما قالَتا لا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعاءُ وَ أَبُونا شَيْخٌ كَبِيرٌ أى لا نقدر على ورود الماء إلا بعد صدور الرعاء، لضعفنا، و سبب مباشرتنا هذه الرعية ضعف أبينا و كبره، قال اللّه تعالى: فَسَقى لَهُما. قال المفسرون: و ذلك أن الرعاء كانوا إذا فرغوا من وردهم وضعوا على فم البئر صخرة عظيمة، فتجىء هاتان المرأتان فيشرعان غنمهما فى فضل أغنام الناس، فلما كان ذلك اليوم جاء موسى فرفع تلك الصخرة وحده، ثم استقى لهما و سقى غنمهما، ثم رد الحجر كما كان، قال أمير المؤمنين عمر: و كان لا يرفعه إلا عشرة، و إنما استقى ذنوبا واحدا فكفاهما، ثم تولى إلى الظل، قالوا: و كان ظل شجرة من السمر، روى ابن جرير عن ابن مسعود أنه رآها خضراء ترف فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ قال ابن عباس: سار من مصر إلى مدين لم يأكل إلا البقل و ورق الشجر، و كان حافيا، فسقطت نعلا قدميه من الحفاء، و جلس فى الظل، و هو صفوة اللّه من خلقه، و إن بطنه للاصق بظهره من الجوع، و إن خضرة البقل لترى من داخل جوفه، و أنه لمحتاج إلى شق تمرة، قال عطاء بن السائب لما فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ أسمع المرأة فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ قالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ ما سَقَيْتَ لَنا فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٥) قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢٦) قالَ إِنِّي الآثار و التاريخ، ص: ٩١ أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) قالَ ذلِكَ بَيْنِي وَ بَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَيَّ وَ اللَّهُ عَلى ما نَقُولُ وَكِيلٌ (٢٨)، (القصص) .. لما جلس موسى عليه السّلام فى الظل و فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ سمعته المرأتان فيما قيل، فذهبتا إلى أبيهما، فيقال: إنه استنكر سرعة رجوعهما فأخبرتاه ما كان من أمر موسى عليه السّلام، فأمر إحداهما أن تذهب إليه فتدعوه، فَجاءَتْهُ إِحْداهُما تَمْشِي عَلَى اسْتِحْياءٍ أى مشى الحرائر قالَتْ إِنَّ

أَبِی یَدْعُوکَ لِیَجْزِیَکَ أَجْرَ ما سَقَیْتَ لَنا صرحت له بهذا لئلا یوهم کلامها ریبهٔ، و هذا من تمام حیائها و صیانتها، فَلَمَّا جاءَهُ وَ قَصَّ عَلَیْهِ الْقَصَصَ، و أخبره خبره، و ما کان من أمره فی خروجه من بلاد مصر فرارا من فرعونها قالَ له ذلک الشیخ: لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِینَ أی خرجت من سلطانهم، فلست فی دولتهم. و قد اختلفوا فی هذا الشیخ من هو؟ فقیل: هو شعیب علیه السّلام، و هذا هو المشهور عند کثیرین و ممن نص علیه الحسن البصری و مالک بن أنس، و جاء مصرحا به فی حدیث، و لکن فی إسناده نظر، و صرح طائفهٔ بأن شعیبا علیه السّلام عاش عمرا طویلا بعد هلاک قومه، حتی أدرکه موسی علیه السّلام و تزوج بابنته. و روی ابن أبی حاتم و غیره عن الحسن البصری: أن صاحب موسی علیه السّلام هذا اسمه شعیب، و کان سید الماء، و لکن لیس بالنبی صاحب مدین. و قیل: إنه ابن أخی شعیب، و قیل: ابن عمه، و قیل: رجل مؤمن من قوم شعیب، و قیل: رجل اسمه یثرون، هکذا هو فی کتب أهل الکتاب: یثرون کاهن مدین، أی کبیرها و عالمها. قال ابن عباس و أبو عبیدهٔ بن عبد اللّه: اسمه یثرون: زاد أبو عبیدهٔ: و هو ابن أخی شعیب. زاد ابن عباس: صاحب مدین. و المقصود: أنه لما أضافه، و أکرم مثواه، و قص علیه ما کان من أمره، بشره بأنه قد نجا، فعند ذلک قالت إحدی البنتین لأبیها: یا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ أی لرعی غنمک، ثم الآثار و التاریخ، ص: ۹۲ مدحته بأنه قوی أمین. قال عمر و ابن عباس و شریح القاضی و أبو مالک و قتادهٔ و محمد بن إسحاق و غیر واحد: لما قالت ذلک قال لها أبوها: و ما علمک بهذا؟ فقالت: إنه رفع صخرهٔ لا یطیق رفعها إلا عشرهٔ، و أنه لما جئت معه تقدمت أمامه، فقال: کونی من ورائی، فإذا اختلف الطریق فاقذفی لی بحصاهٔ أعلم بها کیف الطریق. قال ابن مسعود: أفرس الناس ثلاثهٔ: صاحب یوسف حین قال لامرأته أَکْرِمِی مَثْواهُ و صاحبهٔ موسی حین قالت: یا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَیْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِیُّ الْأَمِینُ، و أبو بکر حین استخلف عمر بن الخطاب. قالَ إِنِّی أُرِیدُ أَنْ أُنْکِحَکَ إِحْدَی ابْنَتَیَّ هاتَیْنِ عَلی أَنْ تَأْجُرَنِی ثَمانِیَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِکَ وَ ما أُرِیدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَیْکَ سَتَجِدُنِی إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِینَ استدل بهذا جماعهٔ من أصحاب أبی حنیفهٔ رحمه اللّه، علی صحهٔ ما إذا باعه أحد هذین العبدین أو الثوبین و نحو ذلک أنه یصح، لقوله: إِحْدَی ابْنَتَیَّ هاتَیْنِ و فی هذا نظر، لأن هذه مراوضهٔ لا معاقدهٔ، و اللّه أعلم. و استدل أصحاب أحمد علی صحهٔ الإیجار بالطعمهٔ و الکسوهٔ کما جرت به العادهٔ، و استأنسوا بالحدیث الذی رواه ابن ماجهٔ فی سننه مترجما فی کتابه، باب استئجار الأجیر، علی طعام بطنه: حدثنا محمد بن الصفی الحمصی. حدثنا بقیهٔ بن الولید، عن مسلمهٔ بن علی، عن سعید بن أبی أیوب، عن الحارث بن یزید، عن علی بن رباح، قال: سمعت عتبهٔ بن الندر، یقول: کنا عند رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم فقرأ: طسم حتی إذا بلغ قصهٔ موسی قال: (إن موسی علیه السّلام آجر نفسه ثمانی سنین، أو عشرهٔ، علی عفهٔ فرجه و طعام بطنه). و هذا من هذا الوجه لا یصح لأن مسلمهٔ بن علی الحسنی الدمشقی البلاطی ضعیف عند الأئمهٔ لا یحتج بتفرده. و لکن قد روی من وجه آخر فقال ابن أبی حاتم: حدثنا أبو زرعهٔ، حدثنا یحیی بن عبد اللّه بن بکر، حدثنی ابن لهیعهٔ و حدثنا أبو زرعهٔ، حدثنا صفوان، حدثنا الولید، حدثنا عبد اللّه بن لهیعهٔ، عن الحارث بن یزید الحضرمی، عن علی بن رباح اللخمی، قال: سمعت عتبهٔ بن الندر الآثار و التاریخ، ص: ۹۳ السلمی، صاحب رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم یحدث، أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم قال: (إن موسی علیه السّلام آجر نفسه لعفهٔ فرجه و طعمهٔ بطنه). ثم قال تعالی: قالَ ذلِکَ بَیْنِی وَ بَیْنَکَ أَیَّمَا الْأَجَلَیْنِ قَضَیْتُ فَلا عُدْوانَ عَلَیَّ وَ اللَّهُ عَلی ما نَقُولُ وَکِیلٌ (۲۸) یقول: إن موسی قال لصهره: الأمر علی ما قلت، فأیهما قضیت فلا عدوان علی، و اللّه علی مقالتنا سامع و مشاهد، و وکیل علی و علیک، و مع هذا فلم یقض موسی إلا أکمل الأجلین و أتمهما، و هو العشر سنین، کوامل تامهٔ. قال البخاری: حدثنا محمد بن عبد الرحیم، حدثنا سعید بن سلیمان، حدثنا مروان ابن شجاع، عن سالم الأفطس، عن سعید بن جبیر، قال: سألنی یهودی من أهل الحیرهٔ، أی الأجلین قضی موسی؟ فقلت: لا أدری، حتی أقدم علی حبر العرب فأسأله، فقدمت فسألت ابن عباس، فقال: قضی أکثرهما و أطیبهما، إن رسول اللّه إذا قال فعل. تفرد به البخاری من هذا الوجه. و قد رواه النسائی فی حدیث الفتون، کما سیأتی، من طریق القاسم بن أبی أیوب، عن سعید بن جبیر. و قد رواه ابن جریر عن أحمد بن محمد الطوسی. و ابن أبی حاتم عن أبیه کلاهما عن الحمیدی، عن سفیان بن عیینهٔ، حدثنی إبراهیم بن یحیی بن أبی یعقوب، عن الحکم بن أبان، عن عکرمهٔ عن ابن عباس، أن رسول اللّه صلّی اللّه

عليه و سلم قال: (سألت جبريل أى الأجلين قضى موسى؟ قال: أتمهما و أكملهما). و إبراهيم هذا غير معروف إلا بهذا الحديث. و قد رواه البزار عن أحمد بن أبان القرشى، عن سفيان بن عيينة، عن إبراهيم بن أعين، عن الحكم بن أبان، عن عكرمة، عن ابن عباس، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم فذكره. و قد رواه سنيد عن حجاج، عن ابن جريج، عن مجاهد مرسلا: (أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سأل عن ذلك جبريل، فسأل جبريل إسرافيل، فسأل إسرافيل الرب عز و جل، فقال: أبرهما و أوفاهما). و بنحوه رواه ابن أبى حاتم من حديث يوسف بن سرح مرسلا، و رواه ابن جرير من طريق محمد بن كعب: أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سئل أى الأجلين قضى موسى؟ قال: (أوفاهما و أتمهما). و قد رواه البزار و ابن أبى حاتم من حديث عويد بن أبى عمران الجونى، و هو ضعيف، عن أبيه، عن عبد اللّه بن الصامت، عن أبى ذر أن الآثار و التاريخ، ص: ۹۴ رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سئل أى الأجلين قضى موسى؟ قال: (أوفاهما و أبرهما). قال: و إن سئلت أى المرأتين تزوج؟ فقل: الصغرى منهما. و قد رواه البزار و ابن أبى حاتم من طريق عبد اللّه بن لهيعة، عن الحارث بن يزيد الحضرمى، عن على بن رباح، عن عتبة بن النذر أن رسول اللّه قال: (إن موسى آجر نفسه بعفة فرجه و طعام بطنه، فلما و فى الأجل)، قيل: يا رسول اللّه، أى الأجلين؟ قال: (أبرهما و أوفاهما)، فلما أراد فراق شعيب سأل امرأته أن تسأل أباها أن يعطيها من غنمه ما يعيشون به، فأعطاها ما ولدت من غنمه من قالب لون من ولد ذلك العام، و كانت غنمه سودا حسانا، فانطلق موسى عليه السلام إلى عصا قسمها من طرفها، ثم وضعها فى أدنى الحوض، ثم أوردها فسقاها، و وقف موسى عليه السّلام بإزاء الحوض، فلم يصدر منها شاة إلا ضرب جنبها شاة شاة، قال: فأتأمت، و آنثت، و وضعت كلها قوالب ألوان، إلا شاة أو شاتين ليس فيها فشوش، و لا ـ ضبوب، و لا ـ عزوز، و لا ـ ثعول، و لا ـ كموش تفوت الكف)، قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: (لو اقتحمتم الشام وجدتم بقايا تلك الغنم). و هى السامرية. قال ابن لهيعة: الفشوش: واسعة السخب، و الضبوب: طويلة الضرع تجره، و العزوز: ضيقة السخب، و الثعول: الصغيرة الضرع كالحلمتين، و الكموش: التى لا يحكم الكف على ضرعها لصغره. و فى صحة رفع هذا الحديث نظر، و قد يكون موقوفا. كما قال ابن جرير: حدثنا محمد بن المثنى، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنا أبى، عن قتادة، حدثنا أنس بن مالك، قال: (لما دعا نبى اللّه موسى عليه السّلام صاحبه إلى الأجل الذى كان بينهما، قال له صاحبه: كل شاة ولدت على لونها فلك ولدها، فعمد فوضع خيالا على الماء، فلما رأت الخيال فزعت، فجالت جولة، فولدن كلهن بلقا، إلا شاة واحدة، فذهب بأولادهن ذلك العام). و هذا إسناد رجاله ثقات و اللّه أعلم. و قد تقدم عن نقل أهل الكتاب عن يعقوب عليه السّلام حين فارق خاله لابان أنه أطلق له ما يولد من غنمه بلقا، ففعل نحو ما ذكر عن موسى عليه السّلام، فاللّه أعلم. و تسير بنا سورة القصص لتكمل القصص:* فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ وَ سارَ الآثار و التاريخ، ص: ۹۵ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جانِبِ الطُّورِ ناراً قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ ناراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (۲۹) فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِى الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّى أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ (۳۰) وَ أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ يا مُوسى أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ (۳۱) اسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۳۲) .. تقدم أن موسى قضى أتم الأجلين و أكملهما، و قد يؤخذ هذا من قوله: فَلَمَّا قَضى مُوسَى الْأَجَلَ و عن مجاهد: أنه أكمل عشرا و عشرا بعدها، و قوله: وَ سارَ بِأَهْلِهِ أى من عند صهره ذاهبا، فيما ذكره غير واحد من المفسرين و غيرهم: أنه اشتاق إلى أهله، فقصد زيارتهم ببلاد مصر فى صورة مختف، فلما سار بأهله و معه ولدان منهم و غنم قد استفادها مدة مقامه، قالوا: و اتفق ذلك فى ليلة مظلمة باردة، و تاهوا فى طريقهم، فلم يهتدوا إلى السلوك فى الدرب المألوف، و جعل يورى زناده فلا يورى شيئا، و اشتد الظلام و البرد، فبينما هو كذلك إذ أبصر عن بعد نارا تأجج فى جانب الطور، و هو الجبل الغربى منه عن يمينه قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ ناراً، و كأنه، و اللّه أعلم، رآها دونهم، لأن هذه النار هى نور فى الحقيقة، و لا يصلح رؤيتها لكل أحد لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أى لعلى أستعلم من عندها عن الطريق أَوْ جَذْوَةٍ مِنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ فدل على أنهم كانوا قد تاهوا عن الطريق فى ليلة باردة و مظلمة، لقوله فى الآية الأخرى: وَ هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ مُوسى (۹) إِذْ رَأى ناراً فَقالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّى آنَسْتُ ناراً لَعَلِّى آتِيكُمْ مِنْها

بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدىً (۱۰)، فدل على وجود الظلام، و كونهم تاهوا عن الطريق، و جمع الكل في سورة النمل في قوله: إِذْ قالَ مُوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً سَآتِيكُمْ مِنْها بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُمْ بِشِهابٍ قَبَسٍ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ (۷)، و قد أتاهم منها بخبر و أي خبر، و وجد عندها هدى و أي هدى، الآثار و التاريخ، ص: ۹۶ و اقتبس منها نورا و أي نور. قال اللّه تعالى: فَلَمَّا أَتاها نُودِيَ مِنْ شاطِئِ الْوادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يا مُوسى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ، و قال في النمل: فَلَمَّا جاءَها نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَ مَنْ حَوْلَها وَ سُبْحانَ اللَّهِ رَبِّ الْعالَمِينَ (۸) أي سبحان اللّه الذي يفعل ما يشاء و يحكم ما يريد يا مُوسى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۹)، و قال في سورة طه: إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوادِ الْمُقَدَّسِ طُوىً (۱۲) وَ أَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِما يُوحى (۱۳) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي (۱۴) إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكادُ أُخْفِيها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى (۱۵) فَلا يَصُدَّنَّكَ عَنْها مَنْ لا يُؤْمِنُ بِها وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَتَرْدى (۱۶) ... قال غير واحد من المفسرين من السلف و الخلف: لما قصد موسى إلى تلك النار التي رآها فانتهى إليها، وجدها تأجج في شجرة خضراء من العوسج، و كل ما لتلك النار في اضطرام، و كل ما لخضرة تلك الشجرة في ازدياد، فوقف متعجبا، و كانت تلك الشجرة في لحف جبل غربي منه عن يمينه، كما قال تعالى: وَ ما كُنْتَ بِجانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنا إِلى مُوسَى الْأَمْرَ وَ ما كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ (۴۴) و كان موسى في واد اسمه طوى، فكان موسى مستقبل القبلة و تلك الشجرة عن يمينه من ناحية الغرب، فناداه ربه بالواد المقدس طوى، فأمر أولا بخلع نعليه تعظيما و تكريما و توقيرا لتلك البقعة المباركة، و لا سيما في تلك الليلة المباركة. و عند أهل الكتاب: أنه وضع يده على وجهه من شدة ذلك النور، مهابة له و خوفا على بصره، ثم خاطبه تعالى كما يشاء قائلا له: إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعالَمِينَ، إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَ أَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي أي أنا رب العالمين الذي لا إله إلا هو، الذي لا تصلح العبادة و إقامة الصلاة إلا له، ثم أخبره أن هذه الدنيا ليست بدار قرار، و إنما الدار الباقية يوم القيامة، التي لا بدّ من كونها و وجودها لِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما تَسْعى أي من خير و شر، و حضه و حثه على العمل لها، و مجانبة من لا يؤمن بها ممن عصى مولاه و اتبع هواه، ثم قال له مخاطبا و مؤانسا و مبينا الآثار و التاريخ، ص: ۹۷ له أنه القادر على كل شيء الذي يقول للشيء كن فيكون: وَ ما تِلْكَ بِيَمِينِكَ يا مُوسى (۱۷) أي أما هذه عصاك التي تعرفها منذ صحبتها؟ قالَ هِيَ عَصايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْها وَ أَهُشُّ بِها عَلى غَنَمِي وَ لِيَ فِيها مَآرِبُ أُخْرى (۱۸) أي بل هذه عصاي التي أعرفها و أتحققها قالَ أَلْقِها يا مُوسى (۱۹) فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى (۲۰) و هذا خارق عظيم و برهان قاطع على أن الذي يكلمه يقول للشيء كن فيكون، و أنه الفعال بالاختيار. و عند أهل الكتاب: أنه سأل برهانا على صدقه عند من يكذبه من أهل مصر، فقال له الرب عز و جل: ما هذه التي في يدك؟ قال: عصاي، قال: ألقها إلى الأرض فَأَلْقاها فَإِذا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعى فهرب موسى من قدامها، فأمره الرب عز و جل أن يبسط يده و يأخذها بذنبها، فلما استمكن منها ارتدت عصا في يده، و قد قال اللّه تعالى في الآية الأخرى: وَ أَلْقِ عَصاكَ فَلَمَّا رَآها تَهْتَزُّ كَأَنَّها جَانٌّ وَلَّى مُدْبِراً وَ لَمْ يُعَقِّبْ أي قد صارت حية عظيمة لها ضخامة هائلة و أنياب تصك، و هي مع ذلك في سرعة حركة الجان، و هو ضرب من الحيات، يقال: الجان و الجنان، و هو لطيف و لكن سريع الاضطراب و الحركة جدا، فهذه جمعت الضخامة و السرعة الشديدة، فلما عاينها موسى عليه السلام وَلَّى مُدْبِراً أي هاربا منها، لأن طبيعته البشرية تقتضي ذلك وَ لَمْ يُعَقِّبْ أي و لم يلتفت فناداه ربه، قائلا له: يا مُوسى أَقْبِلْ وَ لا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ فلما رجع أمره اللّه تعالى أن يمسكها قالَ خُذْها وَ لا تَخَفْ سَنُعِيدُها سِيرَتَهَا الْأُولى (۲۱) فيقال: إنه هابها شديدا فوضع يده في كم مدرعته، ثم وضع يده في وسط فمها. و عند أهل الكتاب: أمسك بذنبها، فلما استمكن منها إذا هي قد عادت كما كانت عصا ذات شعبتين، فسبحان القدير العظيم رب المشرقين و المغربين، ثم أمره تعالى بإدخال يده في جيبه ثم أمره بنزعها، فإذا هي تتلألأ كالقمر بياضا من غير سوء، أي من غير برص و لا ـ بهق، و لهذا قال: اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَ اضْمُمْ إِلَيْكَ جَناحَكَ مِنَ الرَّهْبِ قيل: معناه إذا خفت فضع يدك على فؤادك يسكن جأشك، و هذا و إن كان خاصا به، إلا أن بركة الإيمان به حق بأن ينفع من استعمل الآثار و التاريخ، ص: ۹۸ ذلك على وجه الاقتداء بالأنبياء. و قال في سورة النمل: وَ أَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آياتٍ إِلى فِرْعَوْنَ وَ قَوْمِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۱۲) أي هاتان الآيتان، و هما العصا و اليد، و هما البرهانان

المشار إليهما فى قوله: فَذانِكَ بُرْهانانِ مِنْ رَبِّكَ إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ و مع ذلك سبع آيات أخر، فذلك تسع آيات بينات و هى المذكورة فى آخر سورة سبحان، حيث يقول تعالى: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى تِسْعَ آياتٍ بَيِّناتٍ فَسْئَلْ بَنِى إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً (۱۰۱) قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ وَ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (۱۰۲)، و هى المبسوطة فى سورة الأعراف فى قوله: وَ لَقَدْ أَخَذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (۱۳۰) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۳۱) وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ (۱۳۲) فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الدَّمَ آياتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (۱۳۳)، كما سيأتى الكلام على ذلك فى موضعه، و هذه التسع آيات غير العشر الكلمات، فإن التسع من كلمات اللّه القدرية، و العشر من كلماته الشرعية، و إنما نبهنا على هذا لأنه قد اشتبه أمرها على بعض الرواة، فظن أن هذه هى هذه. و المقصود: أن اللّه سبحانه لما أمر موسى عليه السّلام بالذهاب إلى فرعون قالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (۳۳) وَ أَخِى هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِى رِدْءاً يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (۳۴) قالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما بِآياتِنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ (۳۵)، (القصص). يقول تعالى مخبرا عن عبده و رسوله و كليمه موسى عليه السّلام، فى جوابه الآثار و التاريخ، ص: ۹۹ لربه عز و جل، حين أمره بالذهاب إلى عدوه الذى خرج من ديار مصر فرارا من سطوته و ظلمه، حين كان من أمره ما كان فى قتل ذلك القبطى، و لهذا قالَ رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْساً فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (۳۳) وَ أَخِى هارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِساناً فَأَرْسِلْهُ مَعِى رِدْءاً يُصَدِّقُنِى إِنِّى أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ أى اجعله معى معينا و ردءا و وزيرا يساعدنى و يعيننى على أداء رسالتك إليهم، فإنه أفصح منى لسانا، و أبلغ بيانا، قال اللّه تعالى مجيبا له إلى سؤاله: سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَ نَجْعَلُ لَكُما سُلْطاناً أى برهانا فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُما أى فلا ينالون منكما مكروها بسبب قيامكما، بآياتنا، و قيل: ببركة آياتنا أَنْتُما وَ مَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغالِبُونَ. و قال فى سورة طه: اذْهَبْ إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (۲۴) قالَ رَبِّ اشْرَحْ لِى صَدْرِى (۲۵)، قيل: إنه أصابه فى لسانه لثغة، بسبب تلك الجمرة التى وضعها على لسانه التى كان فرعون أراد اختبار عقله، حين أخذ بلحيته و هو صغير فهم بقتله، فخافت عليه آسية و قالت: إنه طفل، فاختبره بوضع تمرة و جمرة بين يديه، فهم بأخذ التمرة فصرف الملك يده إلى الجمرة، فأخذها فوضعها على لسانه، فأصابه لثغة بسببها، فسأل زوال بعضها بمقدار ما يفهمون قوله، و لم يسأل زوالها بالكلية. قال الحسن البصرى: و الرسل إنما يسألون بحسب الحاجة، و لهذا بقيت فى لسانه بقية، و لهذا قال فرعون قبحه اللّه فيما زعم إنه يعيب به الكليم: وَ لا يَكادُ يُبِينُ أى يفصح عن مراده، و يعبر عما فى ضميره و فؤاده، ثم قال موسى عليه السلام: وَ اجْعَلْ لِى وَزِيراً مِنْ أَهْلِى (۲۹) هارُونَ أَخِى (۳۰) اشْدُدْ بِهِ أَزْرِى (۳۱) وَ أَشْرِكْهُ فِى أَمْرِى (۳۲) كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيراً (۳۳) وَ نَذْكُرَكَ كَثِيراً (۳۴) إِنَّكَ كُنْتَ بِنا بَصِيراً (۳۵) قالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يا مُوسى (۳۶)، (طه). أى قد أجبناك إلى جميع ما سألت، و أعطيناك الذى طلبت، و هذا من وجاهته عند ربه عز و جل حين شفع أن يوحى اللّه إلى أخيه فأوحى إليه، و هذا جاه عظيم، قال اللّه تعالى: وَ كانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهاً، و قال تعالى: وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (۵۳)، و قد سمعت أم المؤمنين عائشة رجلا يقول لأناس و هم الآثار و التاريخ، ص: ۱۰۰ سائرون طريق الحج: أى أخ أمن على أخيه؟ فسكت القوم، فقالت عائشة: لمن حول هودجها هو موسى بن عمران، حين شفع فى أخيه هارون. فأوحى إليه قال اللّه تعالى: وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (۵۳). قال تعالى فى سورة الشعراء: وَ إِذْ نادى رَبُّكَ مُوسى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (۱۰) قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَ لا يَتَّقُونَ (۱۱) قالَ رَبِّ إِنِّى أَخافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ (۱۲) وَ يَضِيقُ صَدْرِى وَ لا يَنْطَلِقُ لِسانِى فَأَرْسِلْ إِلى هارُونَ (۱۳) وَ لَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخافُ أَنْ يَقْتُلُونِ (۱۴) قالَ كَلَّا فَاذْهَبا بِآياتِنا إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ (۱۵) فَأْتِيا فِرْعَوْنَ فَقُولا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (۱۶) أَنْ أَرْسِلْ مَعَنا بَنِى إِسْرائِيلَ (۱۷) قالَ أَ لَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ (۱۸) وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِى فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ (۱۹) ... تقدير الكلام: فأتياه، فقالا له ذلك، و بلغاه ما أرسلا به من دعوته إلى عبادة اللّه تعالى وحده لا شريك له، و أن يفك أسارى بنى إسرائيل من قبضته و قهره و سطوته، و تركهم يعبدون ربهم حيث شاءوا، و يتفرغون

لتوحيـده و دعائه و التضـرع لديه، فتكبر فرعون فى نفسه، و عتا و طغى، و نظر إلى موسـى بعين الازدراء و التنقص، قائلا له: أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينا وَلِيداً وَ لَبِثْتَ فِينا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ أى أما أنت الذى ربيناه فى منزلنا، و أحسنا إليه و أنعمنا عليه مدة من الدهر، و هذا يدل على أن فرعون الـذى بعث إليه هو الـذى فر منه، خلافا لما عند أهل الكتاب من أن فرعون الذى فر منه مات فى مدة مقامه بمدين، و أن الذى بعث إليه فرعون آخر. و قوله: وَ فَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَ أَنْتَ مِنَ الْكافِرِينَ أى و قتلت الرجل القبطى، و فررت منا، و جحدت نعمتنا قالَ فَعَلْتُها إِذاً وَ أَنَا مِنَ الضَّالِّينَ (۲۰) أى قبـل أن يوحى إلى و ينزل على فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَ جَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ (۲۱) ثم قال مجيبا لفرعون عما امتن به من التربية و الإحسان إليه: وَ تِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّها عَلَيَّ أَنْ عَبَّدْتَ بَنِي إِسْرائِيلَ (۲۲) أى و هـذه النعمـة التى ذكرت من أنك أحسـنت إلى و أنا رجل واحـد من بنى إسـرائيل، تقابل ما اسـتخدمت هذا الشـعب العظيم بكماله و استعبدتهم فى أعمالك، و خـدمك، و أشـغالك قالَ فِرْعَوْنُ وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ الآثار و التاريخ، ص: ۱۰۱ (۲۳) قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ مـا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۲۴) قـالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَ لا تَسْـتَمِعُونَ (۲۵) قـالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبـائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۲۶) قالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِـلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (۲۷) قـالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مـا بَيْنَهُمـا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۲۸). يـذكر تعـالى ما كان بين فرعون و موسـى من المقاولـة، و المحاجـة، و المناظرة، و ما أقامه الكليم على فرعون اللئيم من الحجـة العقليـة المعنويـة ثم الحسـية، و ذلك أن فرعون، قبحه اللّه، أظهر جحـد الصـانع تبارك و تعالى، و زعم أنه الإله: فَحَشَرَ فَنادى (۲۳) فَقـالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى (۲۴) و قال: يا أَيُّهَا الْمَلَأُ مـا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي و هو فى هـذه المقالـة معانـد، يعلم أنه عبـد مربوب، و أن اللّه هو الخالق البارئ المصور الإله الحق، كما قال تعالى: وَ جَحَـدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُـهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَـةُ الْمُفْسِدِينَ (۱۴) و لهذا قال لموسـى عليه السلام على سبيـل الإنكار لرسالته و الاظهار أنه ما ثم رب أرسـله: وَ ما رَبُّ الْعالَمِينَ لأنهما قالا له: إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ فكأنه يقول لهما: و من رب العالمين الذى تزعمان أنه أرسـلكما و ابتعثكما؟ فأجابه موسى قائلا: رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ ما بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (۲۴) يعنى رب العالمين، خالق هـذه السـماوات و الأرض المشاهدة، و ما بينهما من المخلوقات المتجددة، من السـحاب و الرياح، و المطر و النبات، و الحيوانات التى يسـلم كل موقن أنها لم تحدث بأنفسها، و لا بد لها من موجد و محدث و خالق، و هو اللّه الذى لا إله إلا هو رب العـالمين قالَ أى فرعون، لِمَنْ حَوْلَهُ من أمرائه، و مرازبته، و وزرائه على سبيل التهكم و التنقص لما قرره موسـى عليه السـلام: أَ لا تَسْـتَمِعُونَ يعنى كلامه هذا. قالَ موسى مخاطبا له و لهم: قالَ رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (۲۶) أى هو الذى خلقكم و الذين من قبلكم من الآباء و الأجـداد، و القرون السالفة فى الآباد، فإن كل أحد يعلم أنه لم يخلق نفسه و لا أبوه و لا أمه، و لم يحدث من غير محدث، و إنما أوجده و خلقه رب العالمين، و هذان المقامان هما المذكوران فى قوله تعالى: سَنُرِيهِمْ آياتِنا فِي الْآفاقِ وَ فِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ و مع هذا كله لم يستفق فرعون من رقدته، و لا نزع عن ضلالته، بل استمر على طغيانه و عناده و كفرانه الآثار و التاريخ، ص: ۱۰۲ قـالَ إِنَّ رَسُـولَكُمُ الَّذِي أُرْسِـلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ (۲۷) قـالَ رَبُّ الْمَشْـرِقِ وَ الْمَغْرِبِ وَ مـا بَيْنَهُمـا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ (۲۸) أى هو المسـخر لهذه الكواكب الزاهرة المسير للأفلاك الدائرة، خالق الظلام و الضياء، و رب الأرض و السماء، رب الأولين و الآخرين، خالق الشـمس و القمر و الكواكب السـائرة، و الثوابت الحـائرة، خـالق الليل بظلامه، و النهار بضـيائه، و الكل تحت قهره و تسـخيره و تسـييره سائرون، و فى فلك يسبحون يتعاقبون فى سائر الأوقات و يدورون، فهو تعالى الخالق المالك المتصرف فى خلقه بما يشاء، فلما قامت الحجج على فرعون و انقطعت شـبهه، و لم يبق له قول سوى العناد، عدل إلى اسـتعمال سـلطانه و جاهه و سـطوته قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (۲۹) قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (۳۰) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (۳۱) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (۳۲) وَ نَزَعَ يَـدَهُ فَـإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (۳۳)، و هـذان هما البرهانان اللـذان أيـده اللّه بهما، و هما العصا و اليد، و ذلك مقام أظهر فيه الخارق العظيم، الذى بهر به العقول و الأبصار، حين ألقى عصاه فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ أى عظيم الشكل بديع فى الضخامة و الهول و المنظر العظيم الفظيع الباهر، حتى قيل: إن فرعون لما شاهد ذلك و عاينه أخذه رهب شديد و خوف عظيم بحيث إنه حصل له إسـهال عظيم أكثر من أربعين مرة فى يوم، و كـان قبـل ذلـك لا يتبرز فى كل أربعين يوما إلا مرة واحـدة، فانعكس عليه الحال، و

هكذا لما أدخل موسى عليه السلام يده فى جيبه و استخرجها أخرجها و هى كفلقة القمر تتلألأ نورا بهر الأبصار، فإذا أعادها إلى جيبه رجعت إلى صفتها الأولى، و مع هذا كله لم ينتفع فرعون، لعنه اللّه، بشيء من ذلك بل استمر على ما هو عليه، و أظهر أن هذا كله سحر، و أراد معارضته بالسحرة، فأرسل يجمعهم من سائر مملكته و من فى رعيته و تحت قهره و دولته، كما سيأتى بسطه و بيانه فى موضعه من إظهار اللّه الحق المبين و الحجة الباهرة القاطعة على فرعون و ملائه و أهل دولته و ملته، و للّه الحمد و المنة. و قال تعالى فى سورة طه: إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْناكَ إِلى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُها وَ لا تَحْزَنَ وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ يا مُوسى (۴۰) وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي (۴۱) اذْهَبْ الآثار و التاريخ، ص: ۱۰۳ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي (۴۲) اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (۴۳) فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى (۴۴) قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ يَطْغى (۴۵) قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى (۴۶)، يقول تعالى مخاطبا لموسى فيما كلمه به ليلة أوحى إليه و أنعم بالنبوة عليه و كلمه منه إليه: قد كنت مشاهدا لك و أنت فى دار فرعون، و أنت تحت كنفى و حفظى و لطفى، ثم أخرجتك من أرض مصر إلى أرض مدين بمشيئتى و قدرتى و تدبيرى، فلبثت فيها سنين ثُمَّ جِئْتَ عَلى قَدَرٍ أى منى لذلك فوافق ذلك تقديرى و تسييرى وَ اصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي أى اصطفيتك لنفسى برسالتى و بكلامى اذْهَبْ أَنْتَ وَ أَخُوكَ بِآياتِي وَ لا تَنِيا فِي ذِكْرِي يعنى و لا تفترا فى ذكرى، إذ قدمتما عليه، و وفدتما إليه، فإن ذلك عون لكما على مخاطبته و مجاوبته، و إهداء النصيحة إليه، و إقامة الحجة عليه، و قد جاء فى بعض الأحاديث: (يقول اللّه تعالى: إن عبدى كل عبدى الذى يذكرنى و هو ملاق قرنه). و قال تعالى: يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَ اذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً الآية، ثم قال تعالى: اذْهَبا إِلى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغى (۴۳) فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشى و هذا من حلمه تعالى و كرمه و رأفته و رحمته بخلقه، مع علمه بكفر فرعون و عتوه و تجبره، و هو إذ ذاك أردى خلقه، و قد بعث إليه صفوته من خلقه فى ذلك الزمان، و مع هذا يقول لهما و يأمرهما أن يدعواه إليه بالتى هى أحسن برفق و لين، و يعاملاه معاملة من يرجو أن يتذكر أو يخشى، كما قال لرسوله: ادْعُ إِلى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَ جادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (۱۲۵)، و قال تعالى:* وَ لا تُجادِلُوا أَهْلَ الْكِتابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ الآية. قال الحسن البصرى: فَقُولا لَهُ قَوْلًا لَيِّناً أعذرا إليه قولا له: إن لك ربا و لك معادا، و إن بين يديك جنة و نارا. و قال وهب بن منبه: قولا له: إنى إلى العفو و المغفرة أقرب منى إلى الغضب و العقوبة. قال يزيد الرقاشى عند هذه الآية: يا من يتحبب إلى من يعاديه، فكيف بمن يتولاه و يناديه قالا رَبَّنا إِنَّنا نَخافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنا أَوْ أَنْ الآثار و التاريخ، ص: ۱۰۴ يَطْغى و ذلك أن فرعون كان جبارا عنيدا و شيطانا مريدا له سلطان فى بلاد مصر طويل عريض، و جاه و جنود و عساكر و سطوة، فهاباه من حيث البشرية، و خافا أن يسطو عليهما فى بادئ الأمر، فثبتهما تعالى و هو العلى الأعلى، فقال: قالَ لا تَخافا إِنَّنِي مَعَكُما أَسْمَعُ وَ أَرى، كما قال فى الآية الأخرى: إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ، فَأْتِياهُ فَقُولا إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَ لا تُعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَ السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى (۴۷) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (۴۸)، يذكر تعالى أنه أمرهما أن يذهبا إلى فرعون، فيدعواه إلى اللّه تعالى، أن يعبده وحده لا شريك له، و أن يرسل معهم بنى إسرائيل، و يطلقهم من أسره و قهره، و لا يعذبهم قَدْ جِئْناكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ و هو البرهان العظيم فى العصى و اليد وَ السَّلامُ عَلى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدى تقيد مفيد بليغ عظيم، ثم تهدداه و توعداه على التكذيب فقالا: إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنا أَنَّ الْعَذابَ عَلى مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى أى كذب بالحق بقلبه و تولى عن العمل بقالبه. و قد ذكر السدى: و غيره أنه لما قدم من بلاد مدين دخل على أمه و أخيه هارون و هما يتعشيان من طعام فيه الطفشيل، و هو اللفت، فأكل معهما ثم قال: يا هارون، إن اللّه أمرنى و أمرك أن ندعو فرعون إلى عبادته فقم معى، فقاما يقصدان باب فرعون، فإذا هو مغلق، فقال موسى للبوابين و الحجبة: أعلموه أن رسول اللّه بالباب فجعلوا يسخرون منه و يستهزءون به. و قد زعم بعضهم أنه لم يؤذن لهما عليه إلا بعد حين طويل. و قال محمد بن إسحاق: أذن لهما بعد سنتين، لأنه لم يك أحد يتجاسر على الاستئذان لهما، فاللّه أعلم. و يقال: إن موسى تقدم إلى الباب فطرقه بعصاه، فانزعج فرعون و أمر بإحضارهما فوقفا بين يديه فدعواه

إلى اللّه عز و جل كما أمرهما. و عند أهل الكتاب: أن اللّه قال لموسى عليه السلام: إن هارون اللاوى، يعنى من نسل لاوى بن يعقوب، سيخرج و يتلقاك، و أمره أن يأخذ معه مشايخ بنى إسرائيل إلى الآثار و التاريخ، ص: ۱۰۵ فرعون، و أمره أن يظهر ما أتاه من الآيات، و قال له: إنى سأقسى قلبه فلا يرسل الشعب، و أكثر آياتى و أعاجيبى بأرض مصر، و أوحى اللّه إلى هارون أن يخرج إلى أخيه يتلقاه بالبرية عند جبل حوريب، فلما تلقاه أخبره موسى بما أمره به ربه، فلما دخلا مصر جمعا شيوخ بنى إسرائيل، و ذهبا إلى فرعون، فلما بلغاه رسالة اللّه، قال: من هو اللّه، لا أعرفه؟ و لا أرسل بنى إسرائيل، و قال اللّه مخبرا عن فرعون: قالَ فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (۴۹) قالَ رَبُّنَا الَّذِی أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى (۵۰) قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى (۵۱) قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّی فِی كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّی وَ لا يَنْسى (۵۲) الَّذِی جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَ سَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى (۵۳) كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِی ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِی النُّهى (۵۴) مِنْها خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى (۵۵)، (طه). يقول تعالى مخبرا عن فرعون إنه أنكر إثبات الصانع تعالى قائلا: فَمَنْ رَبُّكُما يا مُوسى (۴۹) قالَ رَبُّنَا الَّذِی أَعْطى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدى أى هو الذى خلق الخلق و قدر لهم أعمالا و أرزاقا و آجالا، و كتب ذلك عنده فى كتابه اللوح المحفوظ، ثم هدى كل مخلوق إلى ما قدره له، فطابق عمله فيهم على الوجه الذى قدره، و علمه لكمال علمه و قدرته و قدره، و هذه الآية كقوله تعالى فى سورة الأعلى: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى (۱) الَّذِی خَلَقَ فَسَوَّى (۲) وَ الَّذِی قَدَّرَ فَهَدى (۳)، أى قدر قدرا و هدى الخلائق إليه قالَ فَما بالُ الْقُرُونِ الْأُولى يقول فرعون لموسى: فإذا كان ربك هو الخالق المقدر الهادى الخلائق لما قدره، و هو بهذه المثابة من أنه لا يستحق العبادة سواه، فلم عبد الأولون غيره و أشركوا به من الكواكب و الأنداد ما قد علمت، فهلا اهتدى إلى ما ذكرته القرون الأولى؟ قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّی فِی كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّی وَ لا يَنْسى أى هم و إن عبدوا غيره فليس ذلك بحجة لك، و لا يدل على خلاف ما أقول، لأنهم جهلة مثلك كل شىء فعلوه مسطر عليهم فى الزبر من صغير و كبير، و سيجزيهم على ذلك ربى عز و جل، و لا يظلم أحدا مثقال ذرة، لأن جميع أفعال العباد مكتوبة عنده فى كتاب لا يضل عنه الآثار و التاريخ، ص: ۱۰۶ شىء و لا ينسى ربى شيئا، ثم ذكر له عظمة الرب و قدرته على خلق الأشياء و جعله الأرض مهادا، و السماء سقفا محفوظا، و تسخيره السحاب و الأمطار لرزق العباد و دوابهم و أنعامهم، كما قال: كُلُوا وَ ارْعَوْا أَنْعامَكُمْ إِنَّ فِی ذلِكَ لَآياتٍ لِأُولِی النُّهى أى لذوى العقول الصحيحة المستقيمة و الفطر القويمة غير السقيمة، فهو تعالى الخالق الرزاق، و كما قال تعالى: يا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِی خَلَقَكُمْ وَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (۲۱) الَّذِی جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِراشاً وَ السَّماءَ بِناءً وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْداداً وَ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (۲۲)، (البقرة). و لما ذكر إحياء الأرض بالمطر و اهتزازها بإخراج نباتها فيه، نبه به على المعاد فقال: مِنْها أى من الأرض خَلَقْناكُمْ وَ فِيها نُعِيدُكُمْ وَ مِنْها نُخْرِجُكُمْ تارَةً أُخْرى كما قال تعالى: كَما بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ. و قال تعالى: وَ هُوَ الَّذِی يَبْدَؤُا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَ لَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلى فِی السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (۲۷)، ثم قال تعالى: وَ لَقَدْ أَرَيْناهُ آياتِنا كُلَّها فَكَذَّبَ وَ أَبى (۵۶) قالَ أَ جِئْتَنا لِتُخْرِجَنا مِنْ أَرْضِنا بِسِحْرِكَ يا مُوسى (۵۷) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَ لا أَنْتَ مَكاناً سُوىً (۵۸) قالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (۵۹). يخبر تعالى عن شقاء فرعون، و كثرة جهله، و قلة عقله، فى تكذيبه بآيات اللّه، و استكباره عن اتباعها و قوله لموسى: إن هذا الذى جئت به سحر، و نحن نعارضك بمثله، ثم طلب من موسى أن يواعده إلى وقت معلوم، و مكان معلوم، و كان هذا من أكبر مقاصد موسى عليه السلام، أن يظهر آيات اللّه و حججه و براهينه جهرة بحضرة الناس، و لهذا قال: مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ و كان يوم عيد من أعيادهم و مجتمع لهم وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى أى من أول النهار فى وقت اشتداد ضياء الشمس، فيكون الحق أظهر و أجلى، و لم يطلب أن يكون ذلك ليلا فى ظلام كيما يروج عليهم محالا و باطلا، بل طلب أن يكون نهارا جهرة، لأنه على بصيرة من ربه، و يقين أن اللّه سيظهر كلمته و دينه، و إن رغمت أنوف القبط. الآثار و التاريخ، ص: ۱۰۷ قال اللّه تعالى: فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتى (۶۰) قالَ لَهُمْ مُوسى وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (۶۱) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوى (۶۲) قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَ يَذْهَبا

بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (۶۳) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (۶۴)، (طه). يخبر تعالى عن فرعون أنه ذهب فجمع من كان ببلاده من السحرة، و كانت بلاد مصر فى ذلك الزمان مملوءة سحرة فضلاء فى فنهم غاية، فجمعوا له من كل بلد و من كل مكان، فاجتمع منهم خلق كثير و جم غفير، فقيل: كانوا ثمانين ألفا، قاله محمد بن كعب. و قيل: سبعين ألفا، قاله القاسم بن أبى بردة. و قال السدى: بضعة و ثلاثين ألفا. و عن أبى أمامة: تسعة عشر ألفا. و قال محمد بن إسحاق: خمسة عشر ألفا. و قال كعب الأحبار: كانوا اثنى عشر ألفا. و روى ابن أبى حاتم عن ابن عباس: كانوا سبعين رجلا، و روى عنه أيضا: أنهم كانوا أربعين غلاما من بنى إسرائيل، أمرهم فرعون أن يذهبوا إلى العرفاء فيتعلموا السحر، و لهذا قالوا: وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ، و فى هذا نظر. و حضر فرعون و أمراؤه و أهل دولته و أهل بلده عن بكرة أبيهم، و ذلك أن فرعون نادى فيهم أن يحضروا هذا الموقف العظيم، فخرجوا و هم يقولون: لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (۴۰) و تقدم موسى عليه السلام إلى السحرة فوعظهم و زجرهم عن تعاطى السحر الباطل الذى فيه معارضة لآيات اللّه و حججه، فقال: وَيْلَكُمْ لا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذابٍ وَ قَدْ خابَ مَنِ افْتَرى (۶۱) فَتَنازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسَرُّوا النَّجْوى (۶۲) قيل: معناه أنهم اختلفوا فيما بينهم، فقائل يقول: هذا كلام نبى و ليس بساحر، و قائل منهم يقول: بل هو ساحر، فاللّه أعلم، و أسروا التناجى بهذا و غيره: قالُوا إِنْ هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما يقولون: إن هذا و أخاه هارون ساحران عليمان مطبقان متقنان لهذه الصناعة، و مرادهما أن يجتمع الناس عليهما و يصولا على الملك و حاشيته و يستأصلاكم عن آخركم و يستأمرا عليكم الآثار و التاريخ، ص: ۱۰۸ بهذه الصناعة فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا وَ قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلى (۶۴) و إنما قالوا الكلام الأول ليتدبروا و يتواصوا و يأتوا بجميع ما عندهم من المكيدة و المكر و الخديعة، و السحر و البهتان، و هيهات كذبت و اللّه الظنون، و أخطأت الآراء أنى يعارض البهتان و السحر و الهذيان، خوارق العادات التى أجراها الديان على يدى عبده الكليم و رسوله الكريم المؤيد بالبرهان الذى يبهر الأبصار و تحار فيه العقول و الأذهان، و قولهم: فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ أى جميع ما عندكم ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا أى جملة واحدة، ثم حضوا بعضهم بعضا على التقدم فى هذا المقام، لأن فرعون كان قد وعدهم و مناهم و ما يعدهم الشيطان إلا غرورا قالُوا يا مُوسى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقى (۶۵) قالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (۶۶) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (۶۷) قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (۶۸) وَ أَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (۶۹)، (طه). لما اصطف السحرة و وقف موسى و هارون عليهما السلام تجاههم قالوا له: إما أن تلقى قبلنا، و إما أن نلقى قبلك قالَ بَلْ أَلْقُوا أنتم و كانوا قد عمدوا إلى حبال و عصى، فأودعوها الزئبق، و غيره من الآلات، التى تضطرب بسببها تلك الحبال و العصى، اضطرابا يخيل للرائى أنها تسعى باختيارها، و إنما تتحرك بسبب ذلك، فعند ذلك سحروا أعين الناس، و استرهبوهم و ألقوا حبالهم و عصيهم، و هم يقولون: بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ قال اللّه تعالى: فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (۱۱۶)، و قال تعالى: فَإِذا حِبالُهُمْ وَ عِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى (۶۶) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسى (۶۷) أى خاف على الناس أن يفتتنوا بسحرهم، و محا لهم قبل أن يلقى ما فى يده، فإنه لا يضع شيئا قبل أن يؤمر فأوحى اللّه إليه فى الساعة الراهنة قُلْنا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى (۶۸) وَ أَلْقِ ما فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ ما صَنَعُوا إِنَّما صَنَعُوا كَيْدُ ساحِرٍ وَ لا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتى (۶۹) فعند ذلك ألقى موسى عصاه، و قال: فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَ الآثار و التاريخ، ص: ۱۰۹ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (۸۱) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (۸۲)، و قال تعالى: وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَلْقِ عَصاكَ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (۱۱۷) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۱۸) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِينَ (۱۱۹) وَ أُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (۱۲۰) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۱۲۱) رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ (۱۲۲)، (الأعراف)، و ذلك أن موسى عليه السلام لما ألقاها صارت حية عظيمة ذات قوائم، فيما ذكره غير واحد من علماء السلف، و عنق عظيم، و شكل هائل مزعج، بحيث أن الناس انحازوا منها و هربوا سراعا و تأخروا عن مكانها، و أقبلت هى على ما ألقوه من الحبال و العصى فجعلت تلقفه واحدا واحدا فى أسرع ما يكون من الحركة، و الناس ينظرون إليها و يتعجبون منها، و أما السحرة فإنهم رأوا ما

هالهم و حیرهم فی أمرهم، و اطلعوا علی أمر لم یکن فی خلدهم و لا بالهم، و لا یدخل تحت صناعاتهم و أشغالهم، فعند ذلک و هنالک تحققوا بما عندهم من العلم أن هذا لیس بسحر، و لا شعوذة، و لا محال، و لا خیال، و لا زور، و لا بهتان، و لا ضلال، بل حق لا یقدر علیه إلا الحق الذی ابتعث هذا المؤید به بالحق، و کشف اللّه عن قلوبهم غشاوة الغفلة، و أنارها بما خلق فیها من الهدی، و أزاح عنها القسوة، و أنابوا إلی ربهم و خروا له ساجدین، و قالوا جهرة للحاضرین و لم یخشوا عقوبة و لا بلوی: آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِینَ (۱۲۱) رَبِّ مُوسی وَ هارُونَ (۱۲۲)، کما قال تعالی فی سورة طه: فَأُلْقِیَ السَّحَرَةُ سُجَّداً قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هارُونَ وَ مُوسی (۷۰) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَکُمْ إِنَّهُ لَکَبِیرُکُمُ الَّذِی عَلَّمَکُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَیْدِیَکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّکُمْ فِی جُذُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَیُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقی (۷۱) قالُوا لَنْ نُؤْثِرَکَ عَلی ما جاءَنا مِنَ الْبَیِّناتِ وَ الَّذِی فَطَرَنا فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ إِنَّما تَقْضِی هذِهِ الْحَیاةَ الدُّنْیا (۷۲) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِیَغْفِرَ لَنا خَطایانا وَ ما أَکْرَهْتَنا عَلَیْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَیْرٌ وَ أَبْقی (۷۳) إِنَّهُ مَنْ یَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا یَمُوتُ فِیها وَ لا یَحْیی (۷۴) وَ مَنْ یَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِکَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلی (۷۵) جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِی مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِینَ فِیها وَ ذلِکَ جَزاءُ مَنْ تَزَکَّی (۷۶). الآثار و التاریخ، ص: ۱۱۰ قال سعید بن جبیر و عکرمة و القاسم بن أبی بردة و الأوزاعی و غیرهم: لما سجد السحرة رأوا منازلهم و قصورهم فی الجنة تهیأ لهم، و تزخرف لقدومهم، و لهذا لم یلتفتوا إلی تهویل فرعون و تهدیده و وعیده. و ذلک لأن فرعون لما رأی هؤلاء السحرة قد أسلموا، و أشهروا إسلامهم ذکروا موسی و هارون فی الناس علی هذه الصفة الجمیلة، أفزعه ذلک و رأی أمرا أبهره و أعمی بصیرته و بصره، و کان فیه کید و مکر و خداع و صنعة بلیغة فی الصد عن سبیل اللّه، فقال مخاطبا للسحرة بحضرة الناس: آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَکُمْ أی هلا شاورتمونی فیما صنعتم من الأمر الفظیع بحضرة رعیتی، ثم تهدد و توعد و أبرق و ارعد و کذب فأبعد قائلا: إِنَّهُ لَکَبِیرُکُمُ الَّذِی عَلَّمَکُمُ السِّحْرَ، و قال فی الآیة الأخری: إِنَّ هذا لَمَکْرٌ مَکَرْتُمُوهُ فِی الْمَدِینَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۱۲۳) و هذا الذی قاله من البهتان یعلم کل فرد عاقل ما فیه من الکفر و الکذب و الهذیان، بل لا یروج مثله علی الصبیان، فإن الناس کلهم من أهل دولته و غیرهم یعلمون أن موسی لم یره هؤلاء یوما من الدهر، فکیف یکون کبیرهم الذی علمهم السحر؟ ثم هو لم یجمعهم و لا علم باجتماعهم، حتی کان فرعون هو الذی استدعاهم و اجتباهم من کل فج عمیق، و واد سحیق، و من حواضر بلاد مصر، و الأطراف و من المدن و الأریاف. قال اللّه تعالی فی سورة الأعراف: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسی بِآیاتِنا إِلی فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَظَلَمُوا بِها فَانْظُرْ کَیْفَ کانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِینَ (۱۰۳) وَ قالَ مُوسی یا فِرْعَوْنُ إِنِّی رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعالَمِینَ (۱۰۴) حَقِیقٌ عَلی أَنْ لا أَقُولَ عَلَی اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُکُمْ بِبَیِّنَةٍ مِنْ رَبِّکُمْ فَأَرْسِلْ مَعِیَ بَنِی إِسْرائِیلَ (۱۰۵) قالَ إِنْ کُنْتَ جِئْتَ بِآیَةٍ فَأْتِ بِها إِنْ کُنْتَ مِنَ الصَّادِقِینَ (۱۰۶) فَأَلْقی عَصاهُ فَإِذا هِیَ ثُعْبانٌ مُبِینٌ (۱۰۷) وَ نَزَعَ یَدَهُ فَإِذا هِیَ بَیْضاءُ لِلنَّاظِرِینَ (۱۰۸) قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِیمٌ (۱۰۹) یُرِیدُ أَنْ یُخْرِجَکُمْ مِنْ أَرْضِکُمْ فَما ذا تَأْمُرُونَ (۱۱۰) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ أَرْسِلْ فِی الْمَدائِنِ حاشِرِینَ (۱۱۱) یَأْتُوکَ بِکُلِّ ساحِرٍ عَلِیمٍ (۱۱۲) وَ جاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قالُوا إِنَّ لَنا لَأَجْراً إِنْ کُنَّا نَحْنُ الْغالِبِینَ (۱۱۳) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّکُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِینَ (۱۱۴) قالُوا یا مُوسی إِمَّا أَنْ تُلْقِیَ وَ إِمَّا أَنْ نَکُونَ نَحْنُ الْمُلْقِینَ (۱۱۵) الآثار و التاریخ، ص: ۱۱۱ قالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْیُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جاؤُ بِسِحْرٍ عَظِیمٍ (۱۱۶) وَ أَوْحَیْنا إِلی مُوسی أَنْ أَلْقِ عَصاکَ فَإِذا هِیَ تَلْقَفُ ما یَأْفِکُونَ (۱۱۷) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَ بَطَلَ ما کانُوا یَعْمَلُونَ (۱۱۸) فَغُلِبُوا هُنالِکَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِینَ (۱۱۹) وَ أُلْقِیَ السَّحَرَةُ ساجِدِینَ (۱۲۰) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِینَ (۱۲۱) رَبِّ مُوسی وَ هارُونَ (۱۲۲) قالَ فِرْعَوْنُ آمَنْتُمْ بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَکُمْ إِنَّ هذا لَمَکْرٌ مَکَرْتُمُوهُ فِی الْمَدِینَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (۱۲۳) لَأُقَطِّعَنَّ أَیْدِیَکُمْ وَ أَرْجُلَکُمْ مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّکُمْ أَجْمَعِینَ (۱۲۴) قالُوا إِنَّا إِلی رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (۱۲۵) وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآیاتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَیْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِینَ (۱۲۶). و قال تعالی فی سورة یونس: ثُمَّ بَعَثْنا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسی وَ هارُونَ إِلی فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ بِآیاتِنا فَاسْتَکْبَرُوا وَ کانُوا قَوْماً مُجْرِمِینَ (۷۵) فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا إِنَّ هذا لَسِحْرٌ مُبِینٌ (۷۶) قالَ مُوسی أَ تَقُولُونَ لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَکُمْ أَ سِحْرٌ هذا وَ لا یُفْلِحُ السَّاحِرُونَ (۷۷) قالُوا أَ جِئْتَنا لِتَلْفِتَنا عَمَّا وَجَدْنا عَلَیْهِ آباءَنا وَ تَکُونَ لَکُمَا الْکِبْرِیاءُ فِی الْأَرْضِ وَ ما نَحْنُ لَکُما بِمُؤْمِنِینَ (۷۸) وَ قالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِی بِکُلِّ ساحِرٍ عَلِیمٍ (۷۹) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالَ

لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (٨٠) فَلَمَّا أَلْقَوْا قالَ مُوسى ما جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ (٨١) وَ يُحِقُّ اللَّهُ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَ لَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨٢). و قال تعالى فى سورة الشعراء: قالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهاً غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ (٢٩) قالَ أَ وَ لَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ (٣٠) قالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٣١) فَأَلْقى عَصاهُ فَإِذا هِيَ ثُعْبانٌ مُبِينٌ (٣٢) وَ نَزَعَ يَدَهُ فَإِذا هِيَ بَيْضاءُ لِلنَّاظِرِينَ (٣٣) قالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هذا لَساحِرٌ عَلِيمٌ (٣٤) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَما ذا تَأْمُرُونَ (٣٥) قالُوا أَرْجِهْ وَ أَخاهُ وَ ابْعَثْ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (٣٦) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَّارٍ عَلِيمٍ (٣٧) فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ (٣٨) وَ قِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ (٣٩) لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الْغالِبِينَ (۴٠) فَلَمَّا جاءَ السَّحَرَةُ قالُوا لِفِرْعَوْنَ أَ إِنَّ لَنا الآثار و التاريخ، ص: ١١٢ لَأَجْراً إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغالِبِينَ (۴١) قالَ نَعَمْ وَ إِنَّكُمْ إِذاً لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (۴٢) قالَ لَهُمْ مُوسى أَلْقُوا ما أَنْتُمْ مُلْقُونَ (۴٣) فَأَلْقَوْا حِبالَهُمْ وَ عِصِيَّهُمْ وَ قالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغالِبُونَ (۴۴) فَأَلْقى مُوسى عَصاهُ فَإِذا هِيَ تَلْقَفُ ما يَأْفِكُونَ (۴۵) فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ ساجِدِينَ (۴۶) قالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعالَمِينَ (۴٧) رَبِّ مُوسى وَ هارُونَ (۴٨) قالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ (۴٩) قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (۵٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ (۵١). و المقصود: أن فرعون كذب و افترى، و كفر غاية الكفر فى قوله: إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ و أتى ببهتان يعلمه العالمون، بل العالمون فى قوله: إِنَّ هذا لَمَكْرٌ مَكَرْتُمُوهُ فِي الْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْها أَهْلَها فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ، و قوله: لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلافٍ يعنى يقطع اليد اليمنى و الرجل اليسرى، و عكسه وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ أى ليجعلهم مثلة و نكالا، لئلا يقتدى بهم أحد من رعيته، و أهل ملته، و لهذا قال: وَ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ أى على جذوع النخل، لأنها أعلى و أشهر وَ لَتَعْلَمُنَّ أَيُّنا أَشَدُّ عَذاباً وَ أَبْقى يعنى فى الدنيا قالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلى ما جاءَنا مِنَ الْبَيِّناتِ أى لن نطيعك و نترك ما وقر فى قلوبنا من البينات و الدلائل القاطعات وَ الَّذِي فَطَرَنا قيل: معطوف: و قيل: قسم فَاقْضِ ما أَنْتَ قاضٍ أى فافعل ما قدرت عليه إِنَّما تَقْضِي هذِهِ الْحَياةَ الدُّنْيا أى إنما حكمك علينا فى هذه الحياة الدنيا، فإذا انتقلنا منها إلى الدار الآخرة، صرنا إلى حكم الذى أسلمنا له و اتبعنا رسله إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنا لِيَغْفِرَ لَنا خَطايانا وَ ما أَكْرَهْتَنا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقى (٧٣) أى و ثوابه خير مما وعدتنا به من التقريب و الترغيب وَ أَبْقى أى و أدوم من هذه الدار الفانية، و فى الآية الأخرى: قالُوا لا ضَيْرَ إِنَّا إِلى رَبِّنا مُنْقَلِبُونَ (۵٠) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنا رَبُّنا خَطايانا أى ما اجترمناه من المآثم و المحارم أَنْ كُنَّا الآثار و التاريخ، ص: ١١٣ أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ أى من القبط بموسى و هارون عليهما السلام، و قالوا له أيضا: وَ ما تَنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآياتِ رَبِّنا لَمَّا جاءَتْنا أى ليس لنا عندك ذنب إلا إيماننا بما جاءنا به رسولنا، و اتباعنا آيات ربنا لما جاءتنا رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً أى ثبتنا على ما ابتلينا به من عقوبة هذا الجبار العنيد و السلطان الشديد، بل الشيطان المريد وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ و قالوا أيضا يعظونه و يخوفونه بأس ربه العظيم: إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لا يَمُوتُ فِيها وَ لا يَحْيى (٧۴) يقولون له: فإياك أن تكون منهم، فكان منهم وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحاتِ فَأُولئِكَ لَهُمُ الدَّرَجاتُ الْعُلى (٧۵) أى المنازل العالية جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَ ذلِكَ جَزاءُ مَنْ تَزَكَّى (٧۶) فاحرص أن تكون منهم، فحالت بينه و بين ذلك الأقدار التى لا تغالب و لا تمانع، و حكم العلى العظيم بأن فرعون، لعنه اللّه، من أهل الجحيم، ليباشر العذاب الأليم، يصب من فوق رأسه الحميم، و يقال له على وجه التقريع و التوبيخ و هو المقبوح المنبوح و الذميم اللئيم: ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (۴٩). و الظاهر من هذه السياقات أن فرعون، لعنه اللّه، صلبهم و عذبهم رضى اللّه عنهم. قال عبد اللّه بن عباس و عبيد بن عمير: كانوا من أول النهار سحرة، فصاروا من آخره شهداء بررة. و يؤيد هذا قولهم: رَبَّنا أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً وَ تَوَفَّنا مُسْلِمِينَ. و لما وقع ما وقع من الأمر العظيم، و هو الغلب الذى غلبته القبط فى ذلك الموقف الهائل، و أسلم السحرة الذين استنصروا ربهم، لم يزدهم ذلك إلا كفرا و عنادا و بعدا عن الحق، قال اللّه تعالى بعد قصص ما تقدم فى سورة الأعراف: وَ قالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ (١٢٧) قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (١٢٨) قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ

أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الآثار و التاريخ، ص: ۱۱۴ الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (۱۲۹). يخبر تعالى عن الملأ من قوم فرعون، و هم الأمراء و الكبراء، أنهم حرضوا ملكهم فرعون على أذية نبى اللّه موسى عليه السلام، و مقابلته بدل التصديق بما جاء به بالكفر و الرد و الأذى، قالوا: أَ تَذَرُ مُوسى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ يعنون، قبحهم اللّه، أن دعوته إلى عبادة اللّه وحده لا شريك له، و النهى عن عبادة ما سواه، فساد بالنسبة إلى اعتقاد القبط، لعنهم اللّه، و قرأ بعضهم: (و يذرك و إلهتك) أى و عبادتك، و يحتمل شيئين أحدهما: و يذر دينك، و تقويه القراءة الأخرى، و الثانى: و يذر أن يعبدك، فإنه كان يزعم أنه إله، لعنه اللّه قالَ سَنُقَتِّلُ أَبْناءَهُمْ وَ نَسْتَحْيِي نِساءَهُمْ أى لئلا يكثر مقاتلتهم وَ إِنَّا فَوْقَهُمْ قاهِرُونَ أى غالبون قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَ اصْبِرُوا أى إذا هموا هم بأذيتكم و الفتك بكم، فاستعينوا أنتم بربكم، و اصبروا على بليتكم إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ أى فكونوا أنتم المتقين لتكون لكم العاقبة، كما قال فى الآية الأخرى من سورة يونس: وَ قالَ مُوسى يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (۸۴) فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۸۵) وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (۸۶)، و قولهم: قالُوا أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا أى قد كانت الأبناء تقتل قبل مجيئك، و بعد مجيئك إلينا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ. و قال اللّه تعالى فى سورة حم المؤمن: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (۲۳) إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (۲۴) و كان فرعون الملك، و هامان الوزير، و كان قارون إسرائيليا من قوم موسى، إلا أنه كان على دين فرعون و ملئه، و كان ذا مال جزيل جدا، كما ستأتى قصته فيما بعد إن شاء اللّه تعالى فَلَمَّا جاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا اقْتُلُوا أَبْناءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَ اسْتَحْيُوا نِساءَهُمْ وَ ما الآثار و التاريخ، ص: ۱۱۵ كَيْدُ الْكافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلالٍ (۲۵) و هذا القتل للغلمان من بعد بعثة موسى إنما كان على وجه الإهانة و الإذلال و التقليل لملأ بنى إسرائيل، لئلا يكون لهم شوكة يمتنعون بها، و يصولون على القبط بسببها، و كانت القبط منهم يحذرون، فلم ينفعهم ذلك، و لم يرد عنهم قدر الذى يقول للشيء كن فيكون وَ قالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسى وَ لْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسادَ (۲۶) و لهذا يقول الناس على سبيل التهكم: صار فرعون مذكرا، و هذا منه فإن فرعون فى زعمه يخاف على الناس أن يضلهم موسى عليه السلام وَ قالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (۲۷) أى عذت باللّه و لجأت إليه بجنابه من أن يسطو فرعون و غيره علىّ بسوء، و قوله: مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ أى جبار عنيد، لا يرعوى و لا ينتهى، و لا يخاف عذاب اللّه و عقابه، لأنه لا يعتقد معادا و لا جزاء، و لهذا قال فى سورة غافر: وَ قالَ مُوسى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَ رَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسابِ (۲۷) وَ قالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَ قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَ إِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ (۲۸) يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ (۲۹)، و هذا الرجل هو ابن عم فرعون، و كان يكتم إيمانه من قومه خوفا منهم على نفسه، و زعم بعض الناس أنه كان إسرائيليا، و هو بعيد و مخالف لسياق الكلام لفظا و معنى، و اللّه أعلم. قال ابن جريج: قال ابن عباس: لم يؤمن من القبط بموسى إلا هذا، و الذى جاء من أقصى المدينة، و امرأة فرعون. رواه ابن أبى حاتم. قال الدارقطنى: لا يعرف من اسمه شمعان بالشين المعجمة إلا مؤمن آل فرعون، حكاه السهيلى. و فى تاريخ الطبرانى: أن اسمه خير. فاللّه أعلم. و المقصود: أن هذا الرجل كان يكتم إيمانه فلما هم فرعون، لعنه اللّه، بقتل موسى الآثار و التاريخ، ص: ۱۱۶ عليه السلام، و عزم على ذلك و شاور ملأه فيه، خاف هذا المؤمن على موسى، فتلطف فى رد فرعون بكلام جمع فيه الترغيب و الترهيب، فقال على وجه المشورة و الرأى. و قد ثبت فى الحديث عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أنه قال: (أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر). و هذا من أعلى مراتب هذا المقام، فإن فرعون لا أشد جورا منه، و هذا الكلام لا أعدل منه، لأن فيه عصمة نبى، و يحتمل أنه كاشفهم بإظهار إيمانه، و صرح لهم بما كان يكتمه، و الأول أظهر، و اللّه أعلم. قال: أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ أى من أجل أنه قال ربى اللّه، فمثل هذا لا يقابل بهذا بل بالإكرام و الاحترام و الموادعة و ترك الانتقام، يعنى لأنه: وَ

قَدْ جاءَكُمْ بِالْبَيِّناتِ مِنْ رَبِّكُمْ أي بالخوارق التي دلت على صدقـة فيما جاء به عمن أرسله، فهذا إن وادعتموه كنتم في سلامة لأنه: وَ إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ و لا يضركم ذلك وَ إِنْ يَكُ صادِقاً و قد تعرضتم له يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ أي و أنتم تشقون أن ينالكم أيسر جزاء مما يتوعدكم به، فكيف بكم إن حل جميعه عليكم. و هذا الكلام في هذا المقام من أعلى مقامات التلطف و الاحتراز و العقل التام، و قوله: يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ يحذرهم أن يسلبوا هذا الملك العزيز، فإنه ما تعرضت الدول للدين إلا سلبوا ملكهم، و ذلوا بعد عزهم، و كذا وقع لآل فرعون، ما زالوا في شك و ريب و مخالفة و معاندة لما جاءهم موسى به، حتى أخرجهم اللّه مما كانوا فيه من الملك و الأملاك و الدور و القصور و النعمة و الحبور، ثم حولوا إلى البحر مهانين، و نقلت أرواحهم بعد العلو و الرفعة إلى أسفل السافلين، و لهذا قال هذا الرجل المؤمن المصدق البار الراشد التابع للحق الناصح لقومه الكامل العقل: يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ أي عالين على الناس حاكمين عليهم فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا أي لو كنتم أضعاف ما أنتم فيه من العدد و العدة و القوة و الشدة لما نفعنا ذلك، و لا رد عنا بأس مالك الممالك قالَ فِرْعَوْنُ أي في جواب هذا كله ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى أي ما أقول لكم إلا ما عندي وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الآثار و التاريخ، ص: ۱۱۷ الرَّشادِ و كذب في كل من هذين القولين، و هاتين المقدمتين، فإنه قد كان يتحقق في باطنه و في نفسه أن هذا الذي جاء به موسى من عند اللّه لا محالة، و إنما كان يظهر خلافه بغيا و عدوانا و عتوا و كفرانا. قال اللّه تعالى في سورة الإسراء إخبارا عن سيدنا موسى عليه السلام: قالَ لَقَدْ عَلِمْتَ ما أَنْزَلَ هؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ بَصائِرَ وَ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يا فِرْعَوْنُ مَثْبُوراً (۱۰۲) فَأَرادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْناهُ وَ مَنْ مَعَهُ جَمِيعاً (۱۰۳) وَ قُلْنا مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذا جاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنا بِكُمْ لَفِيفاً (۱۰۴) .. و قال تعالى في سورة النمل: فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آياتُنا مُبْصِرَةً قالُوا هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (۱۳) وَ جَحَدُوا بِها وَ اسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ ظُلْماً وَ عُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (۱۴)، و أما قوله: وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ فقد كذب أيضا فإنه لم يكن على رشاد من الأمر، بل كان على سفه و ضلال و خبل و خيال، فكان أولا ممن يعبد الأصنام و الأمثال، ثم دعا قومه الجهلة الضلال إلى أن اتبعوه و طاوعوه و صدقوه فيما زعم من الكفر المحال في دعواه أنه رب تعالى اللّه ذو الجلال، قال اللّه تعالى في سورة الزخرف: وَ نادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ (۵۲) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (۵۳) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۵۴) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۵) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ (۵۶)، و قال تعالى: فَأَراهُ الْآيَةَ الْكُبْرى (۲۴) فَكَذَّبَ وَ عَصى (۲۱) ثُمَّ أَدْبَرَ يَسْعى (۲۲) فَحَشَرَ فَنادى (۲۳) فَقالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلى (۲۴) فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكالَ الْآخِرَةِ وَ الْأُولى (۲۵) إِنَّ فِي ذلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشى (۲۶)، (النازعات) .. و قال تعالى وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (۹۶) إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَ ما أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ (۹۷) يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَ بِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ (۹۸) وَ أُتْبِعُوا فِي الآثار و التاريخ، ص: ۱۱۸ هذِهِ لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ (۹۹)، (هود). و المقصود بيان كذب فرعون في قوله الذي جاء في سورة غافر: يا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جاءَنا قالَ فِرْعَوْنُ ما أُرِيكُمْ إِلَّا ما أَرى وَ ما أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشادِ (۲۹) وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزابِ (۳۰) مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَ عادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْماً لِلْعِبادِ (۳۱) وَ يا قَوْمِ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنادِ (۳۲) يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ ما لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عاصِمٍ وَ مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ (۳۳) وَ لَقَدْ جاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّناتِ فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (۳۴) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ وَ عِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (۳۵) .. يحذرهم ولي اللّه إن كذبوا برسول اللّه موسى، أن يحل بهم ما حل بالأمم من قبلهم من النقمات و المثلات، مما تواتر عندهم و عند غيرهم ما حل بقوم نوح و عاد و ثمود و من بعدهم، إلى زمانهم ذلك، مما أقام به الحجج على أهل الأرض قاطبة في صدق ما جاءت به الأنبياء، لما أنزل من النقمة بمكذبيهم من الأعداء، و ما أنجى اللّه من اتبعهم من الأولياء، و خوفهم يوم

القيامة و هو يوم التناد، أى حين ينادى الناس بعضهم بعضا حين يولون إن قدروا على ذلك، و لا إلى ذلك سبيل يَقُولُ الْإِنْسانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ (١٠) كَلَّا لا وَزَرَ (١١) إِلى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ (١٢)، (القيامة). و قال تعالى يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَ الْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٣۴) يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَ نُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (٣۵) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (٣۶)، (الرحمن). و قرأ بعضهم: (يوم التنادّ) بتشديد الدال، أى يوم الفرار، و يحتمل أن يكون يوم القيامة، و يحتمل أن يكون يوم يحل اللّه بهم البأس فيودون الفرار، و لات حين مناص فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنا الآثار و التاريخ، ص: ١١٩ إِذا هُمْ مِنْها يَرْكُضُونَ (١٢) لا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلى ما أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَساكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْئَلُونَ (١٣)، (الأنبياء)، ثم أخبرهم عن نبوة يوسف فى بلاد مصر، و ما كان منه من الإحسان إلى الخلق فى دنياهم و أخراهم، و هذا من سلالته و ذريته، و يدعو الناس إلى توحيد اللّه و عبادته، و أن لا يشركوا به أحدا من بريته، و أخبر عن أهل الديار المصرية فى ذلك الزمان، أى من سجيتهم التكذيب بالحق و مخالفة الرسل، و لهذا قال: ... فَما زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِمَّا جاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا ... أى و كذبتم فى هذا، و لهذا قال: ... كَذلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتابٌ (٣۴) الَّذِينَ يُجادِلُونَ فِي آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتاهُمْ ... أى يردون حجج اللّه و براهينه و دلائل توحيده، بلا حجة و لا دليل عندهم من اللّه، فإن هذا أمر يمقته اللّه غاية المقت، أى يبغض من تلبس به من الناس و من اتصف به من الخلق ... كَذلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ (٣۵)، قرئ بالإضافة و بالنعت و كلاهما متلازم، أى هكذا إذا خالفت القلوب الحق، و لا تخالفه إلا بلا برهان، فإن اللّه يطبع عليها: أى يختم عليها وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا هامانُ ابْنِ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (٣۶) أَسْبابَ السَّماواتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ (٣٧)، (غافر). كذب فرعون موسى عليه السلام فى دعواه أن اللّه أرسله، و زعم فرعون لقومه ما كذبه و افتراه، فى قوله لهم ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ، و قال هاهنا: لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبابَ (٣۶) أَسْبابَ السَّماواتِ أى طرقها و مسالكها فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى و يحتمل هذا معنيين: أحدهما: وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً فى قوله: إن للعالم ربا غيرى. و الثانى: فى دعواه أن اللّه أرسله. و الأول أشبه بظاهر حال فرعون، فإنه كان ينكر ظاهر إثبات الصانع، و الثانى أقرب إلى اللفظ، حيث قال: فَأَطَّلِعَ إِلى إِلهِ مُوسى أى فأسأله هل أرسله أم الآثار و التاريخ، ص: ١٢٠ لا؟ وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ كاذِباً أى فى دعواه ذلك، و إنما كان مقصود فرعون أن يصد الناس عن تصديق موسى عليه السلام، و إن يحثهم على تكذيبه، قال اللّه تعالى: وَ كَذلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ و قرئ: وَ صُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَ ما كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبابٍ قال ابن عباس و مجاهد يقول: إلا فى خسار، أى باطل لا يحصل له شىء من مقصوده الذى رامه، فإنه لا سبيل للبشر أن يتوصلوا بقواهم إلى نيل السماء أبدا، أعنى السماء الدنيا، فكيف بما بعدها من السماوات العلى، و ما فوق ذلك من الارتفاع الذى لا يعلمه إلا اللّه عز و جل، و ذكر غير واحد من المفسرين: أن هذا الصرح و هو القصر الذى بناه وزيره هامان له لم ير بناء أعلى منه، و إن كان مبتيا من الآجر المشوى بالنار، و لهذا قال: فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً. و عند أهل الكتاب: أن بنى إسرائيل كانوا يسخرون فى ضرب اللبن، و كان مما حملوا من التكاليف الفرعونية أنهم لا يساعدون على شىء مما يحتاجون إليه فيه، بل كانوا هم الذين يجمعون ترابه و تبنه و ماءه، و يطلب منهم كل يوم قسط معين، إن لم يفعلوه و إلا ضربوا و أهينوا غاية الإهانة و أوذوا غاية الأذية، و لهذا قالوا لموسى: أُوذِينا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِينا وَ مِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنا قالَ عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَ يَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) فوعدهم بأن العاقبة لهم على القبط، و كذلك وقع و هذا من دلائل النبوة، و لنرجع إلى نصيحة المؤمن و موعظته و احتجاجه، قال اللّه تعالى فى سورة غافر: وَ قالَ الَّذِي آمَنَ يا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشادِ (٣٨) يا قَوْمِ إِنَّما هذِهِ الْحَياةُ الدُّنْيا مَتاعٌ وَ إِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دارُ الْقَرارِ (٣٩) مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزى إِلَّا مِثْلَها وَ مَنْ عَمِلَ صالِحاً مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثى وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيها بِغَيْرِ حِسابٍ (۴٠)، يدعوهم رضى اللّه عنه، إلى طريق الرشاد و الحق، و هى متابعة نبى اللّه موسى و تصديقه فيما جاء به من ربه، ثم زهدهم فى الدنيا الدنية الفانية المنقضية لا محالة، و رغبهم فى طلب الثواب

عنـد اللّه الـذى لا يضـيع عمل عامل لـديه، القـدير الـذى ملكوت كل شـىء بيـديه، الذى يعطى على القليل كثيرا، و من عدله الآثار و التاريخ، ص: ۱۲۱ لاـ يجازى على السيئة إلا مثلها، و أخبرهـم أن الآخرة هى دار القرار التى من وافاها مؤمنا قـد عمل الصالحات، فلهم الجنات العاليات، و الغرف الآمنات، و الخيرات الكثيرة الفائقات، و الأرزاق الدائمة التى لا تبيد، و الخير الذى كل ما لهم منه فى مزيد. ثم شـرع فى إبطال ما هم عليه و تخويفهم مما يصيرون إليه فقال تبارك و تعالى: * وَ يا قَوْمِ ما لِی أَدْعُوکُمْ إِلَی النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِی إِلَی النَّارِ (۴۱) تَدْعُونَنِی لِأَکْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِکَ بِهِ ما لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوکُمْ إِلَی الْعَزِیزِ الْغَفَّارِ (۴۲) لا جَرَمَ أَنَّما تَدْعُونَنِی إِلَیْهِ لَیْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِی الدُّنْیا وَ لا فِی الْآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَی اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِینَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (۴۳) فَسَتَذْکُرُونَ ما أَقُولُ لَکُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِی إِلَی اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِیرٌ بِالْعِبادِ (۴۴) فَوَقاهُ اللَّهُ سَیِّئاتِ ما مَکَرُوا وَ حاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذابِ (۴۵) النَّارُ یُعْرَضُونَ عَلَیْها غُدُوًّا وَ عَشِیًّا وَ یَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ (۴۶)، (غافر). کان یـدعوهم إلى عبادة رب السـماوات و الأرض الذى يقول للشـىء كن فيكون، و هم يدعونه إلى عبادة فرعون الجاهل الضال الملعون، و لهذا قال لهم على سبيل الإنكار:* وَ يا قَوْمِ ما لِی أَدْعُوکُمْ إِلَی النَّجاةِ وَ تَدْعُونَنِی إِلَی النَّارِ (۴۱) تَدْعُونَنِی لِأَکْفُرَ بِاللَّهِ وَ أُشْرِکَ بِهِ ما لَیْسَ لِی بِهِ عِلْمٌ وَ أَنَا أَدْعُوکُمْ إِلَی الْعَزِیزِ الْغَفَّارِ (۴۲) ثم بين لهم بطلان مـا هم عليه من عبادة ما سوى اللّه من الأنـداد و الأوثان، و أنها لا تملك من نفع و لا إضـرار، فقال: لا جَرَمَ أَنَّما تَـدْعُونَنِی إِلَیْهِ لَیْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِی الـدُّنْیا وَ لاـ فِی الْـآخِرَةِ وَ أَنَّ مَرَدَّنا إِلَی اللَّهِ وَ أَنَّ الْمُسْرِفِینَ هُمْ أَصْحابُ النَّارِ (۴۳) أى لا تملك تصـرفا و لا حكما فى هـذه الـدار، فكيف تملكه يوم القرار، و أمـا اللّه عز و جـل فـإنه الخـالق الرازق للأـبرار و الفجار، و هو الـذى أحيا العباد و يميتهم و يبعثهم، فيدخل طائعهم الجنة، و عاصيهم إلى النار. ثم توعدهم إن هم اسـتمروا على العناد بقوله: فَسَتَذْکُرُونَ ما أَقُولُ لَکُمْ وَ أُفَوِّضُ أَمْرِی إِلَی اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِیرٌ بِالْعِبادِ (۴۴)، قال اللّه: فَوَقاهُ اللَّهُ سَیِّئاتِ ما مَکَرُوا أى بإنكاره سلم مما أصابهم من العقوبة على كفرهم باللّه، و مكرهم فى الآثـار و التاريـخ، ص: ۱۲۲ صـدهم عن سبيـل اللّه، ممـا أظهروا للعامـة من الخيالاـت و المحالاـت، التى ألبسوا بها على عوامهم و طغـامهم، و لهـذا قـال: وَ حـاقَ أى أحـاط بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَـذابِ (۴۵) النَّارُ یُعْرَضُـونَ عَلَیْهـا غُـدُوًّا وَ عَشِـیًّا أى تعرض أرواحهـم فى برزخهم صباحا و مساء على النار وَ یَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذابِ و قد تكلمنا على دلالة هذه الآية على عذاب القبر فى التفسير، و للّه الحمـد. و المقصود: أن اللّه تعالى لم يهلكهم إلا بعـد إقامـة الحجـج عليهم، و إرسال الرسول إليهم، و إزاحـة الشـبه عنهم، و أخـذ الحجـة عليهم منهم، فبـالترهيب تـارة، و الترغيب أخرى، كمـا قـال تعـالى فى سورة الأـعراف: وَ لَقَـدْ أَخَـذْنا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِینَ وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ (۱۳۰) فَإِذا جاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قالُوا لَنا هذِهِ وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَةٌ یَطَّیَّرُوا بِمُوسی وَ مَنْ مَعَهُ أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ (۱۳۱) وَ قالُوا مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آیَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ (۱۳۲) فَأَرْسَلْنا عَلَیْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الـدَّمَ آیاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَکْبَرُوا وَ کانُوا قَوْماً مُجْرِمِینَ (۱۳۳). يخبر تعـالى أنه ابتلى آل فرعون، و هم قومه من القبط، بالسـنين، و هى أعوام الجدب التى لا يسـتغل فيها زرع، و لا ينتفع بضـرع، و قوله: وَ نَقْصٍ مِنَ الثَّمَراتِ و هى قلـة الثمـار من الأشـجار لَعَلَّهُمْ یَذَّکَّرُونَ أى فلم ينتفعـوا و لم يرعووا، بـل تمردوا و اسـتمروا على كفرهم و عنـادهم فَإِذا جـاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ و الخصب و نحوه قالُوا لَنا هـذِهِ أى هـذا الذى نسـتحقه، و هذا الذى يليق بنا وَ إِنْ تُصِبْهُمْ سَیِّئَةٌ یَطَّیَّرُوا بِمُوسـی وَ مَنْ مَعَهُ أى يقولون: هـذا بشؤمهم أصابنـا هـذا، و لاـ يقولون فى الأـول: أنه ببركتهم و حسن مجاورتهم، و لكن قلوبهم منكرة مسـتكبرة نافرة، عن الحق إذا جاء الشـر أسندوه إليه، و إن رأوا خيرا ادعوه لأنفسهم، قال اللّه تعالى: أَلا إِنَّما طائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ أى اللّه يجزيهم على هذا أوفر الجزاء وَ لکِنَّ أَکْثَرَهُمْ لا یَعْلَمُونَ (۱۳۱) وَ قالُوا الآثار و التاريخ، ص: ۱۲۳ مَهْما تَأْتِنا بِهِ مِنْ آیَةٍ لِتَسْحَرَنا بِها فَما نَحْنُ لَکَ بِمُؤْمِنِینَ أى مهما جئتنا به من الآيات، و هى الخوارق للعادات، فلسـنا نؤمن بك، و لا نتبعك و لا نطيعك، و لو جئتنا بكل آيـة، و هكـذا أخبر اللّه عنهم فى قوله: إِنَّ الَّذِینَ حَقَّتْ عَلَیْهِمْ کَلِمَتُ رَبِّکَ لا یُؤْمِنُونَ (۹۶) وَ لَوْ جاءَتْهُمْ کُلُّ آیَةٍ حَتَّی یَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِیمَ (۹۷)، قال اللّه تعالى: فَأَرْسَلْنا عَلَیْهِمُ الطُّوفانَ وَ الْجَرادَ وَ الْقُمَّلَ وَ الضَّفادِعَ وَ الـدَّمَ آیاتٍ مُفَصَّلاتٍ فَاسْتَکْبَرُوا وَ کانُوا قَوْماً مُجْرِمِینَ (۱۳۳). أما الطوفان: فعن ابن عباس: هو كثرة الأمطار المتلفـة للزروع و الثمار، و به قال سـعيد ابن جبير و قتادة و السـدى و الضـحاك. و عن ابن عباس و عطاء:

هو كثرة الموت. و قال مجاهد: الطوفان الماء، و الطاعون على كل حال. و عن ابن عباس: أمر طاف بهم. و قد روى ابن جرير و ابن مردويه من طريق يحيى بن يمان، عن المنهال بن خليفة، عن الحجاج، عن الحكم بن مينا، عن عائشة، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم: (الطوفان الموت)، و هو غريب. و أما الجراد فمعروف. و قد روى أبو داود عن أبى عثمان، عن سلمان الفارسى: قال سئل رسول اللّه عن الجراد؟ فقال: (أكثر جنود اللّه لا ـ آكله و لا ـ أحرمه). و ترك النبى صلّى اللّه عليه و سلم أكله إنما هو على وجه التقذر له، كما ترك أكل الضب و تنزه عن أكل البصل و الثوم و الكراث، لما ثبت فى الصحيحين عن عبد اللّه بن أبى أوفى، قال: غزونا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم سبع غزوات نأكل الجراد. و قد تكلم على ما ورد فيه من الأحاديث و الآثار فى كتب الفقه و الحديث و التفسير. و المقصود: أنه استاق خضراءهم، فلم يترك لهم زرعا و لا ثمارا و لا سبدا و لا لبدا، و أما القمل: فعن ابن عباس: هو السوس الذى يخرج من الحنطة. و عنه: أنه الجراد الصغار الذى لا أجنحة له. و به قال مجاهد و عكرمة و قتادة. و قال سعيد بن جبير و الحسن: هو دواب سود صغار. و قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هى البراغيث. و حكى ابن جرير عن أهل العربية: أنها الحمنان، و هو صغار القردان، فرق القمقامة، فدخل معهم البيوت و الفرش فلم يقر لهم قرار، و لم يمكنهم معه الغمض و لا العيش. و فسره عطاء بن السائب بهذا القمل المعروف. و قرأها الحسن البصرى كذلك بالتخفيف. و أما الضفادع: فمعروفة، لبستهم حتى كانت تسقط فى أطعمتهم الآثار و التاريخ، ص: ۱۲۴ و أوانيهم، حتى إن أحدهم إذا فتح فمه لطعام أو شراب سقطت فى فيه ضفدعة من تلك الضفادع. و أما الدم: فكان قد مزج ماؤهم كله به، فلا يستقون من النيل شيئا إلا وجدوه دما عبيطا، و لا من نهر و لا بئر و لا شىء إلا كان دما فى الساعة الراهنة. هذا كله لم ينل بنى إسرائيل من ذلك شىء بالكلية، و هذا من تمام المعجزة الباهرة و الحجة القاطعة، أن هذا كله يحصل لهم من فعل موسى عليه السلام، فينالهم عن آخرهم و لا يحصل هذا لأحد من بنى إسرائيل و فى هذا أدل دليل. قال محمد بن إسحاق: فرجع عدو اللّه فرعون حين آمنت السحرة مغلوبا مفلولا، ثم أبى إلا الإقامة على الكفر، و التمادى فى الشر، و تابع اللّه عليه بالآيات فأخذه بالسنين، فأرسل عليه الطوفان، ثم الجراد، ثم القمل، ثم الضفادع، ثم الدم، آيات مفصلات، فأرسل الطوفان و هو الماء، ففاض على وجه الأرض، ثم ركد لا يقدرون على أن يخرجوا، و لا أن يعملوا شيئا حتى جهدوا جوعا، فلما بلغهم ذلك: قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (۱۳۴) فدعا موسى ربه فكشفه عنهم، فلما لم يفوا له بشىء فأرسل اللّه عليهم الجراد، فأكل الشجر، فيما بلغنى، حتى إن كان ليأكل مسامير الأبواب من الحديد حتى تقع دورهم و مساكنهم، فقالوا مثل ما قالوا، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا له بشىء مما قالوا، فأرسل اللّه عليهم القمل، فذكر لى أن موسى عليه السلام أمر أن يمشى إلى كثيب حتى يضربه بعصاه، فمشى إلى كثيب أهيل عظيم فضربه بها، فانثال عليهم قملا حتى غلب على البيوت و الأطعمة و منعهم النوم و القرار، فلما جهدهم قالوا له مثل ما قالوا له، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلما لم يفوا له بشىء مما قالوا، أرسل اللّه عليهم الضفادع، فملأت البيوت و الأطعمة و الآنية، فلم يكشف أحد ثوبا و لا طعاما، إلا وجد فيه الضفادع قد غلبت عليه، فلما جهدهم ذلك، قالوا له مثل ما قالوا، فدعا ربه، فكشف عنهم، فلم يفوا بشىء مما قالوا، فأرسل اللّه عليهم الدم، فصارت مياه آل فرعون دما لا يستقون من بئر و لا نهر يغترفون من إناء إلا عاد دما عبيطا. و قال زيد بن أسلم: المراد بالدم: الرعاف. رواه ابن أبى حاتم. قال اللّه تعالى فى الأعراف: وَ لَمَّا الآثار و التاريخ، ص: ۱۲۵ وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قالُوا يا مُوسَى ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ (۱۳۴) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلى أَجَلٍ هُمْ بالِغُوهُ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (۱۳۵) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (۱۳۶). يخبر تعالى عن كفرهم و عتوهم و استمرارهم على الضلال و الجهل و الاستكبار عن اتباع آيات اللّه، و تصديق رسوله مع ما أيد به من الآيات العظيمة الباهرة، و الحجج البليغة القاهرة، التى أراهم اللّه إياها عيانا، و جعلها عليهم دليلا و برهانا، و كلما شاهدوا آية و عاينوها و جهدهم و أضنكهم، حلفوا و عاهدوا موسى لئن كشف عنهم هذه ليؤمنن به، و ليرسلن معه من هو من حزبه، فكلما رفعت عنهم تلك الآية، عادوا إلى شر مما كانوا عليه، و أعرضوا عما جاءهم به من الحق و لم يلتفتوا إليه، فيرسل اللّه عليهم آية أخرى، هى أشد مما كانت قبلها و أقوى، فيقولون فيكذبون و

يعدون و لا يفون: لَئِنْ كَشَفْتَ عَنَّا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَ لَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِي إِسْرائِيلَ فيكشف عنهم ذلك العذاب الوبيل، ثم يعودون إلى جهلهم العريض الطويل، هذا و العظيم الحليم القدير ينظرهم، و لا يعجل عليهم، و يؤخرهم و يتقدم بالوعيد إليهم، ثم أخذهم بعد إقامة الحجة عليهم و الإنذار إليهم أخذ عزيز مقتدر، فجعلهم عبرة و نكالا و سلفا لمن أشبههم من الكافرين، و مثلا لمن اتعظ بهم من عباده المؤمنين. كما قال تبارك و تعالى و هو أصدق القائلين فى سورة الزخرف: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (۴۶) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (۴۷) وَ ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۸) وَ قالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (۴۹) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (۵۰) وَ نادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَ لَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَ هذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَ فَلا تُبْصِرُونَ (۵۱) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَ لا يَكادُ يُبِينُ (۵۲) فَلَوْ لا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ الآثار و التاريخ، ص: ۱۲۶ مُقْتَرِنِينَ (۵۳) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۵۴) فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (۵۵) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَ مَثَلًا لِلْآخِرِينَ (۵۶). يذكر تعالى إرساله عبده الكليم الكريم، إلى فرعون الخسيس اللئيم، و أنه تعالى أيد رسوله بآيات بينات واضحات، تستحق أن تقابل بالتعظيم و التصديق، و أن يرتدعوا عما هم فيه من الكفر، و يرجعوا إلى الحق و الصراط المستقيم، فإذا هم منها يضحكون، و بها يستهزءون، و عن سبيل اللّه يصدون، و عن الحق ينصرفون، فأرسل اللّه عليهم الآيات ترى يتبع بعضها بعضا، و كل آية أكبر من التى تتلوها، لأن التوكيد أبلغ مما قبله وَ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (۴۸) وَ قالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (۴۹) لم يكن لفظ الساحر فى زمنهم نقصا و لا عيبا، لأن علماءهم فى ذلك الوقت هم السحرة، و لهذا خاطبوه به فى حال احتياجهم إليه و ضراعتهم لديه، قال اللّه تعالى: فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ (۵۰) ثم أخبر تعالى عن تبجح فرعون بملكه و عظمة بلده و حسنها و تخرق الأنهار فيها، و هى الخلجانات التى يكسرونها أمام زيادة النيل، ثم تبجح بنفسه و حليته و أخذ ينتقص رسول اللّه موسى عليه السلام و يزدريه بكونه وَ لا يَكادُ يُبِينُ يعنى كلامه بسبب ما كان فى لسانه من بقية تلك اللثغة التى هى شرف له و كمال و جمال، و لم تكن مانعة له أن كلمه اللّه تعالى و أوحى إليه، و أنزل بعد ذلك التوراة عليه، و تنقصه فرعون، لعنه اللّه، بكونه لا أساور فى بدنه و لا زينة عليه، و إنما ذلك من حلية النساء لا يليق بشهامة الرجال، فكيف بالرسل الذين هم أكمل عقلا و أتم معرفة، و أعلى همة، و أزهد فى الدنيا، و أعلم بما أعد اللّه لأوليائه فى الأخرى، و قوله: أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ لا يحتاج الأمر إلى ذلك إن كان المراد أن تعظمه الملائكة، فالملائكة يعظمون و يتواضعون لمن هو دون موسى عليه السلام بكثير، كما جاء فى الحديث: (إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع). فكيف يكون تواضعهم و تعظيمهم لموسى الكليم عليه الصلاة و التسليم و التكريم، و إن كان المراد شهادتهم له بالرسالة، فقد أيد من المعجزات بما يدل قطعا لذوى الألباب، و لمن قصد إلى الحق و الصواب، و يعمى عما جاء به من البينات الآثار و التاريخ، ص: ۱۲۷ و الحجج الواضحات، من نظر إلى القشور و ترك لب اللباب، و طبع على قلبه رب الأرباب، و ختم عليه بما فيه من الشك و الارتياب، كما هو حال فرعون القبطى العمى الكذاب، قال اللّه تعالى: فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ أى استخف عقولهم و درجهم من حال إلى حال إلى أن صدقوه فى دعواه الربوبية، لعنه اللّه، و قبحهم إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (۵۴) فَلَمَّا آسَفُونا أى أغضبونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ أى بالغرق و الإهانة و سلب العز، و التبدل بالذل، و بالعذاب بعد النعمة، و الهوان بعد الرفاهية، و النار بعد طيب العيش، عياذا باللّه العظيم، و سلطانه القديم من ذلك فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً أى لمن اتبعهم فى الصفات وَ مَثَلًا أى لمن اتعظ بهم و خاف من وبيل مصرعهم، ممن بلغه جلية خبرهم، و ما كان من أمرهم. كما قال اللّه تعالى فى سورة القصص: فَلَمَّا جاءَهُمْ مُوسى بِآياتِنا بَيِّناتٍ قالُوا ما هذا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرىً وَ ما سَمِعْنا بِهذا فِي آبائِنَا الْأَوَّلِينَ (۳۶) وَ قالَ مُوسى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جاءَ بِالْهُدى مِنْ عِنْدِهِ وَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (۳۷) وَ قالَ فِرْعَوْنُ يا أَيُّهَا الْمَلَأُ ما عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يا هامانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحاً لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلى إِلهِ مُوسى وَ إِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكاذِبِينَ (۳۸) وَ اسْتَكْبَرَ هُوَ وَ جُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ ظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنا لا يُرْجَعُونَ (۳۹) فَأَخَذْناهُ وَ جُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الظَّالِمِينَ (۴۰) وَ

جَعَلْناهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ لا يُنْصَرُونَ (۴۱) وَ أَتْبَعْناهُمْ فِي هذِهِ الدُّنْيا لَعْنَةً وَ يَوْمَ الْقِيامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ (۴۲)، (القصص). يخبر تعالى أنهم لما استكبروا عن اتباع الحق، و ادعى ملكهم الباطل، و وافقوه عليه، و أطاعوه فيه، اشتد غضب الرب القدير العزيز الذى لا يغالب و لا يمانع عليهم، فانتقم منهم أشد الانتقام، و أغرقه هو و جنوده فى صبيحة واحدة، فلم يفلت منهم أحد، و لم يبق منهم ديار، بل كان قد غرق، فدخل النار، و أتبعوا فى هذه الدار لعنة بين العالمين، و يوم القيامة بئس الرفد المرفود، و يوم القيامة هم من المقبوحين.

هلاک فرعون و جنوده

هلاک فرعون و جنوده لما تمادى قبط مصر على كفرهم و عتوهم و عنادهم متابعة لملكهم فرعون، و مخالفة لنبى اللّه و رسوله و كليمه موسى بن عمران عليه السلام، و أقام اللّه على أهل مصر الحجج العظيمة القاهرة، و أراهم من خوارق العادات ما بهر الأبصار و حير العقول، و هم مع ذلک لا يرعوون و لا ينتهون و لا ينزعون و لا يرجعون و لم يؤمن منهم إلا القليل، قيل: ثلاثة و هم امرأة فرعون، و لا علم لأهل الكتاب بخبرها، و مؤمن آل فرعون الذى تقدم حكاية موعظته و مشورته و حجته عليهم، و الرجل الناصح الذى جاء يسعى من أقصى المدينة، فقال: يا مُوسى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِکَ لِيَقْتُلُوکَ فَاخْرُجْ إِنِّی لَکَ مِنَ النَّاصِحِينَ (۲۰) قاله ابن عباس فيما رواه ابن أبى حاتم عنه. و مراده: غير السحرة فإنهم كانوا من القبط، و قيل: بل آمن طائفة من القبط من قوم فرعون و السحرة كلهم، و جميع شعب بنى إسرائيل، و يدل على هذا قوله تعالى: فَما آمَنَ لِمُوسى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (۸۳) فالضمير فى قوله: إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عائد على فرعون، لأن السياق يدل عليه، و قيل: على موسى لقربه، و الأول أظهر، كما هو مقرر فى التفسير، و إيمانهم كان خفية لمخافتهم من فرعون و سطوته و جبروته و سلطته، و من ملئهم أن ينموا عليهم إليه فيفتنهم عن دينهم. قال اللّه تعالى مخبرا عن فرعون و كفى باللّه شهيدا: وَ إِنَّ فِرْعَوْنَ لَعالٍ فِي الْأَرْضِ أى جبار عنيد مستعل بغير الحق وَ إِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ أى فى جميع أموره و شئونه و أحواله، و لكنه جرثومة قد حان انجعافها، و ثمرة خبيثة قد آن قطافها، و مهجة ملعونة قد حتم إتلافها، و عند ذلک قال موسى: يا قَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (۸۴) فَقالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنا رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۸۵) وَ نَجِّنا بِرَحْمَتِکَ مِنَ الْقَوْمِ الْكافِرِينَ (۸۶) يأمرهم بالتوكل على اللّه، و الاستعانة به، و الالتجاء إليه، فأتمروا بذلک، فجعل اللّه لهم مما كانوا فيه فرجا الآثار و التاريخ، ص: ۱۲۹ و مخرجا وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى وَ أَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُما بِمِصْرَ بُيُوتاً وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (۸۷) أوحى اللّه تعالى إلى موسى و أخيه هارون، عليهما السلام، أن يتخذوا لقومهما بيوتا متميزة فيما بينهم عن بيوت القبط، ليكونوا على أهبة فى الرحيل إذا أمروا به ليعرف بعضهم بيوت بعض، و قوله: وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً قيل: مساجد، و قيل: معناه كثرة الصلاة فيها، قاله مجاهد و أبو مالک و إبراهيم النخعى و الربيع و الضحاک و زيد بن أسلم و ابنه عبد الرحمن و غيرهم. و معناه على هذا: الاستعانة على ما هم فيه من الضر و الشدة و الضيق بكثرة الصلاة، كما قال تعالى: وَ اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَ الصَّلاةِ و كان رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إذا حزبه أمر صلى. و قيل: معناه أنهم لم يكونوا حينئذ يقدرون على إظهار عبادتهم فى مجتمعاتهم و معابدهم، فأمروا أن يصلوا فى بيوتهم، عوضا عما فاتهم من إظهار شعار الدين الحق، فى ذلک الزمان الذى اقتضى حالهم اخفاءه، خوفا من فرعون و ملئه، و المعنى الأول أقوى، لقوله: وَ بَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ و إن كان لا ينافى الثانى أيضا و اللّه أعلم، و قال سعيد بن جبير: وَ اجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً أى: متقابلة وَ قالَ مُوسى رَبَّنا إِنَّکَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ زِينَةً وَ أَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِکَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ (۸۸) قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَ لا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۸۹) هذه دعوة عظيمة دعا بها كليم اللّه موسى على عدو اللّه فرعون، غضبا للّه عليه، لتكبره عن اتباع الحق، و صده عن سبيل اللّه، و معاندته و عتوه و تمرده و استمراره على الباطل، و مكابرته الحق الواضح الجلى الحسى و المعنوى و البرهان القطعى، فقال: رَبَّنا إِنَّکَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَ مَلَأَهُ يعنى قومه من

القبط، و من كان على ملته، و دان بـدينه: زِينَةً وَ أَمْوالًا فِي الْحَياةِ الدُّنْيا رَبَّنا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ أى و هـذا يغتر به من يعظم أمر الدنيا فيحسب الجاهل أنهم على شـىء، لكون هـذه الأموال، و هـذه الزينـة من اللباس، و المراكب الحسـنة الهنية، و الدور الأنيقة، و القصور المبنيـة، و المآكل الشـهية، و المناظر البهية، و الملك العزيز الآثار و التاريخ، ص: ۱۳۰ و التمكين، و الجاه العريض فى الـدنيا لا الدين رَبَّنَا اطْمِسْ عَلى أَمْوالِهِمْ قال ابن عباس و مجاهـد: أى أهلكها. و قال أبو العاليـة و الربيع بن أنس و الضـحاك: اجعلها حجارة منقوشـة كهيئـة مـا كـانت. و قـال قتـادة: بلغنـا أن زروعهم صـارت حجارة. و قال محمـد بن كعب: جعل سـكرهم حجارة، و قال أيضا: صارت أموالهم كلها حجارة. ذكر ذلك لعمر بن عبد العزيز، فقال عمر بن عبد العزيز لغلام له: قم ائتنى بكيس، فجاءه بكيس، فإذا فيه حمص و بيض قـد حول حجـارة، رواه ابن أبى حاتم. و قوله: وَ اشْدُدْ عَلى قُلُوبِهِمْ فَلا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِيمَ قال ابن عباس: أى اطبع عليهـا. و هـذه دعوة غضب للّه تعـالى و لـدينه و لبراهينه، فاستجاب اللّه تعالى لها و حققها و تقبلها كما استجاب لنوح فى قومه حيث قـال: رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكافِرِينَ دَيَّاراً (۲۶) إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبادَكَ وَ لا يَلِدُوا إِلَّا فاجِراً كَفَّاراً (۲۷)، و لهـذا قال تعـالى مخاطبـا لموسـى حين دعـا على فرعون و ملئه و أمن أخوه هـارون على دعـائه فنزل ذلـك منزلـة الـداعى أيضا: قالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُما فَاسْتَقِيما وَ لا تَتَّبِعانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (۸۹) قال المفسـرون و غيرهم من أهل الكتاب: اسـتأذن بنو إسـرائيل فرعون فى الخروج إلى عيـد لهم، فأذن لهم، و هو كاره، و لكنهم تجهزوا للخروج و تأهبوا له، و إنما كان فى نفس الأمر مكيدة بفرعون و جنوده ليتخلصوا منهم و يخرجوا عنهم، و أمرهم اللّه تعـالى، فيمـا ذكره أهـل الكتـاب، أن يسـتعيروا حليا منهم فأعاروهم شـيئا كثيرا، فخرجوا بليل، فساروا مسـتمرين ذاهبين من فورهم طالبين بلاد الشام، فلما علم بذهابهم فرعون حنق عليهم كل الحنق، و اشـتد غضـبه عليهم، و شرع فى اسـتحثاث جيشه و جمع جنوده ليلحقهم و يمحقهم. قـال اللّه تعالى فى سورة الشـعراء:* وَ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (۵۲) فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدائِنِ حاشِرِينَ (۵۳) إِنَّ هؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ (۵۴) وَ إِنَّهُمْ لَنا لَغائِظُونَ (۵۵) وَ إِنَّا لَجَمِيعٌ حاذِرُونَ (۵۶) فَأَخْرَجْناهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۵۷) وَ كُنُوزٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (۵۸) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (۵۹) فَأَتْبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ (۶۰) فَلَمَّا تَراءَا الآثار و التاريخ، ص: ۱۳۱ الْجَمْعانِ قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (۶۱) قالَ كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ (۶۲) فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ (۶۳) وَ أَزْلَفْنا ثَمَّ الْآخَرِينَ (۶۴) وَ أَنْجَيْنا مُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (۶۵) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (۶۶) إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۶۷) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۶۸) .. قال علماء التفسـير: لما ركب فرعون فى جنوده طالبا بنى إسـرائيل يقفو أثرهم، كان فى جيش كثيف عرمرم حتى قيل: كان فى خيوله مائة ألف فحـل أدهم و كانت عـدة جنوده تزيـد على ألف ألف و سـتمائة ألف، فاللّه أعلم، و قيل: إن بنى إسـرائيل كانوا نحوا من سـتمائة ألف مقاتل غير الذرية، و كان بين خروجهم من مصـر صحبة موسى عليه السلام، و دخولهم إليها صحبة أبيهم إسرائيل أربعمائة سنة و ستا و عشـرين سنة شمسية. و المقصود: أن فرعون لحقهم بالجنود فأدركهم عند شروق الشمس، و تراءى الجمعان و لم يبق ثم ريب و لا لبس و عاين كل من الفريقين صاحبه و تحققه و رآه، و لم يبق إلا المقاتلة و المجادلة و المحاماة، فعندها قال أصحاب موسى و هم خـائفون: إِنَّا لَمُدْرَكُونَ و ذلـك لأنـهم اضـطروا فى طريقهم إلى البحر، فليس لهم طريق و لا محيـد إلا سـلوكه و خوضه، و هـذا ما لا يستطيعه أحـد و لا يقـدر عليه، و الجبال عن يسـرتهم و عن أيمانهم، و هى شاهقـة منيفة، و فرعون قد غالقهم و واجههم، و عاينوه فى جنوده و جيوشه و عدده و عداده، و هم منه فى غاية الخوف و الذعر، لما قاسوا فى سلطانه من الإهانة و المنكر، فشكوا إلى نبى اللّه ما هم فيه مما قد شاهدوه و عاينوه، فقال لهم الرسول الصادق المصدق: كَلَّا إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ، و كان فى الساقة فتقدم إلى المقدمة، فنظر إلى البحر و هو يتلاطم بأمواجه، و يتزايـد زبـد أجاجه، و هو يقول: هاهنا أمرت، و معه أخوه هارون و يوشع بن نون، و هو يومئذ من سادات بنى إسـرائيل و علمائهم و عبادهم الكبار، و قد أوحى اللّه إليه و جعله نبيا بعد موسى و هارون عليهما السلام، كما سنذكره فيما بعد إن شاء اللّه، و معهم أيضا مؤمن آل فرعون، و هم وقوف و بنو إسـرائيل بكمالهم عليهم عكوف، و يقال: إن مؤمن آل فرعون جعل يقتحم بفرسه مرارا فى البحر هل يمكن سـلوكه فلا يمكن، و يقول لموسـى عليه السـلام: يا نبى اللّه، أ هاهنا أمرت؟ فيقول: نعم،

فلما الآثار و التاريخ، ص: ۱۳۲ تفاقم الأمر، و ضاق الحال، و اشتد الأمر، و اقترب فرعون و جنوده فى جدهم و حدهم و حديدهم و غضبهم و حنقهم، و زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر، فعند ذلك أوحى الحليم العظيم القدير رب العرش الكريم إلى موسى الكليم: أنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فلما ضربه، يقال: إنه قال له: انفلق بإذن اللّه، و يقال: إنه كناه بأبى خلد، فاللّه أعلم، قال اللّه تعالى: فَأَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ و يقال: إنه انفلق اثنتى عشرة طريقا، لكل سبط طريق يسيرون فيه، حتى قيل: إنه صار أيضا شبابيك ليرى بعضهم بعضا، و فى هذا نظر، لأن الماء جرم شفاف إذا كان من ورائه ضياء حكاه. و هكذا كان ماء البحر قائما مثل الجبال مكفوفا بالقدرة العظيمة الصادرة من الذى يقول للشيء كن فيكون، و أمر اللّه ريح الدبور فلفحت حال البحر، فأذهبته حتى صار يابسا لا يعلق فى سنابك الخيول و الدواب. قال اللّه تعالى فى سورة طه: وَ لَقَدْ أَوْحَيْنا إِلى مُوسى أَنْ أَسْرِ بِعِبادِى فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً فِى الْبَحْرِ يَبَساً لا تَخافُ دَرَكاً وَ لا تَخْشى (۷۷) فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ (۷۸) وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ ما هَدى (۷۹) ... و المقصود: أنه لما آل أمر البحر إلى هذه الحال بإذن الرب العظيم الشديد المحال، أمر موسى عليه السلام أن يجوزه ببنى إسرائيل، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين مبادرين، و قد شاهدوا من الأمر العظيم ما يحير الناظرين، و يهدى قلوب المؤمنين، فلما جاوزوه و جاوزه و خرج آخرهم منه و انفصلوا عنه، كان ذلك عند قدوم أول جيش فرعون إليه و وفودهم عليه، فأراد موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه ليرجع كما كان عليه، لئلا يكون لفرعون و جنوده وصول إليه، و لا سبيل عليه، فأمره القدير ذو الجلال أن يترك البحر على هذه الحال، كما قال و هو الصادق فى المقال* وَ لَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَ جاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (۱۷) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (۱۸) وَ أَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّى آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (۱۹) وَ إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَ رَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (۲۰) وَ إِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِى فَاعْتَزِلُونِ (۲۱) فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (۲۲) فَأَسْرِ بِعِبادِى لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ الآثار و التاريخ، ص: ۱۳۳ (۲۳) وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (۲۴) كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَ عُيُونٍ (۲۵) وَ زُرُوعٍ وَ مَقامٍ كَرِيمٍ (۲۶) وَ نَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (۲۷) كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (۲۸) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَ الْأَرْضُ وَ ما كانُوا مُنْظَرِينَ (۲۹) وَ لَقَدْ نَجَّيْنا بَنِى إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (۳۰) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (۳۱) وَ لَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (۳۲) وَ آتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (۳۳)، (الدخان) .. فقوله تعالى: وَ اتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً أى ساكنا على هيئته لا تغيره عن هذه الصفة، قاله عبد اللّه بن عباس و مجاهد و عكرمة و الربيع و الضحاك و قتادة و كعب الأحبار و سماك بن حرب و عبد الرحمن بن زيد بن أسلم و غيرهم. فلما تركه على هيئته و حالته، و انتهى فرعون فرأى ما رأى، و عاين ما عاين، هاله هذا المنظر العظيم، و تحقق ما كان يتحققه قبل ذلك، من أن هذا من فعل رب العرش الكريم، فأحجم و لم يتقدم و ندم فى نفسه على خروجه فى طلبهم و الحالة هذه حيث لا ينفعه الندم، لكنه أظهر لجنوده تجلدا و عاملهم معاملة العدا، و حملته النفس الكافرة، و السجية الفاجرة على أن قال لمن استخفهم فأطاعوه و على باطله تابعوه: انظروا كيف انحسر البحر لى لأدرك عبيدى الآبقين من يدى الخارجين عن طاعتى و بلدى و جعل يورى فى نفسه أن يذهب خلفهم و يرجو أن ينجو و هيهات، و يقدم تارة و يحجم تارات، فذكروا أن جبريل عليه السلام تبدى فى صورة فارس راكب على رمكة حائل، فمر بين يدى فحل فرعون، لعنه اللّه، فحمحم إليها، و أقبل عليها، و أسرع جبريل بين يديه، فاقتحم البحر و استبق الجواد، و قد أجاد فبادر مسرعا، هذا و فرعون لا يملك من نفسه ضرا و لا نفعا، فلما رأته الجنود قد سلك البحر اقتحموا وراءه مسرعين، فحصلوا فى البحر أجمعين أكتعين أبصعين، حتى هم أولهم بالخروج منه فعند ذلك أمر اللّه تعالى كليمه فيما أوحاه إليه أن يضرب البحر بعصاه، فضربه فارتد عليهم البحر كما كان، فلم ينج منهم إنسان. قال اللّه تعالى: وَ أَنْجَيْنا مُوسى وَ مَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ (۶۵) ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ (۶۶) إِنَّ فِى ذلِكَ لَآيَةً وَ ما كانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ (۶۷) وَ إِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (۶۸) أى فى إنجائه الآثار و التاريخ، ص: ۱۳۴ أولياءه، فلم يغرق منهم أحد، و إغراقه أعداءه، فلم يخلص منهم أحد آية عظيمة و برهان قاطع على قدرته تعالى العظيمة و صدق رسوله فيما جاء به عن ربه من الشريعة الكريمة و المناهج المستقيمة، و قال تعالى:* وَ جاوَزْنا بِبَنِى إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَ جُنُودُهُ بَغْياً وَ عَدْواً حَتَّى إِذا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ

قالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِیلَ وَ أَنَا مِنَ الْمُسْلِمِینَ (۹۰) آلْآنَ وَ قَدْ عَصَیْتَ قَبْلُ وَ کُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِینَ (۹۱) فَالْیَوْمَ نُنَجِّیکَ بِبَدَنِکَ لِتَکُونَ لِمَنْ خَلْفَکَ آیَةً وَ إِنَّ کَثِیراً مِنَ النَّاسِ عَنْ آیاتِنا لَغافِلُونَ (۹۲)، (یونس). یخبر تعالی عن کیفیهٔ غرق فرعون زعیم کفرهٔ القبط، و أنه لما جعلت الأمواج تخفضه تارهٔ، و ترفعه أخری، و بنو إسرائیل ینظرون إلیه، و إلی جنوده، ما ذا أحل اللّه به و بهم، من البأس العظیم و الخطب الجسیم، لیکون أقر لأعین بنی إسرائیل، و أشفی لنفوسهم، فلما عاین فرعون الهلکهٔ و أحیط به و باشر سکرات الموت، أناب حینئذ و تاب، و آمن حین لا ینفع نفسا إیمانها، کما قال تعالی: إِنَّ الَّذِینَ حَقَّتْ عَلَیْهِمْ کَلِمَتُ رَبِّکَ لا یُؤْمِنُونَ (۹۶) وَ لَوْ جاءَتْهُمْ کُلُّ آیَةٍ حَتَّی یَرَوُا الْعَذابَ الْأَلِیمَ (۹۷)، و قال تعالی: فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا قالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَ کَفَرْنا بِما کُنَّا بِهِ مُشْرِکِینَ (۸۴) فَلَمْ یَکُ یَنْفَعُهُمْ إِیمانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِی قَدْ خَلَتْ فِی عِبادِهِ وَ خَسِرَ هُنالِکَ الْکافِرُونَ (۸۵)، و هکذا دعا موسی علی فرعون و ملئه، أن یطمس علی أموالهم، و یشدد علی قلوبهم فلا یؤمنوا حتی یروا العذاب الألیم أی حین لا ینفعهم ذلک، و یکون حسرهٔ علیهم، و قد قال تعالی لهما أی لموسی و هارون حین دعوا بهذا: قَدْ أُجِیبَتْ دَعْوَتُکُما فهذا من إجابهٔ اللّه تعالی دعوهٔ کلیمه و أخیه هارون علیهما السلام. و من ذلک الحدیث الذی رواه الإمام أحمد: حدثنا سلیمان ابن حرب، حدثنا حماد بن سلمهٔ، عن علی بن زید، عن یوسف بن مهران، عن ابن عباس، قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: (لما قال فرعون: آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِیلَ قال لی جبریل: لو رأیتنی و قد أخذت من حال البحر فدسسته فی فیه مخافهٔ أن تناله الرحمهٔ). و رواه الترمذی و ابن جریر و ابن أبی حاتم الآثار و التاریخ، ص: ۱۳۵ عند هذه الآیهٔ من حدیث حماد بن سلمهٔ. و قال الترمذی: حدیث حسن. و قال أبو داود الطیالسی: حدثنا شعبهٔ، عن عدی بن ثابت و عطاء بن السائب، عن سعید بن جبیر، عن ابن عباس، قال قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: (قال لی جبریل: لو رأیتنی و أنا آخذ من حال البحر فأدسه فی فم فرعون مخافهٔ أن یناله الرحمهٔ). و رواه الترمذی و ابن جریر من حدیث شعبهٔ، و قال الترمذی: حسن غریب صحیح. و أشار ابن جریر فی روایهٔ إلی وقفه. و قال ابن أبی حاتم: حدثنا أبو سعید الأشج، حدثنا أبو خالد الأحمر، عن عمر بن عبد اللّه بن یعلی الثقفی، عن سعید بن جبیر، عن ابن عباس، قال: لما أغرق اللّه فرعون أشار بإصبعه و رفع صوته آمَنْتُ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا الَّذِی آمَنَتْ بِهِ بَنُوا إِسْرائِیلَ قال: فخاف جبریل أن تسبق رحمهٔ اللّه فیه غضبه، فجعل یأخذ الحال بجناحیه فیضرب به وجهه فیرمسه. و رواه ابن جریر من حدیث أبی خالد به. و قد رواه ابن جریر من طریق کثیر بن زاذان و لیس بمعروف. و عن أبی حازم عن أبی هریرهٔ، قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: (قال لی جبریل: یا محمد، لو رأیتنی و أنا أغطه و أدس من الحال فی فیه مخافهٔ أن تدرکه رحمهٔ اللّه فیغفر له). یعنی فرعون. و قد أرسله غیر واحد من السلف کإبراهیم التیمی و قتادهٔ و میمون بن مهران، و یقال: إن الضحاک بن قیس خطب به الناس. و فی بعض الروایات: (إن جبریل قال: ما بغضت أحدا بغضی لفرعون حین قال: أنا ربکم الأعلی، و لقد جعلت أدس فی فیه الطین حین قال ما قال). و قوله تعالی: آلْآنَ وَ قَدْ عَصَیْتَ قَبْلُ وَ کُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِینَ (۹۱) استفهام إنکار، و نص علی عدم قبوله تعالی منه ذلک، لأنه و اللّه أعلم، لو رد إلی الدنیا کما کان لعاد إلی ما کان علیه، کما أخبر تعالی عن الکفار إذا عاینوا النار و شاهدوها أنهم یقولون: یا لَیْتَنا نُرَدُّ وَ لا نُکَذِّبَ بِآیاتِ رَبِّنا وَ نَکُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِینَ (۲۷)، قال اللّه: بَلْ بَدا لَهُمْ ما کانُوا یُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَ لَوْ رُدُّوا لَعادُوا لِما نُهُوا عَنْهُ وَ إِنَّهُمْ لَکاذِبُونَ (۲۸)، و قوله: فَالْیَوْمَ نُنَجِّیکَ بِبَدَنِکَ لِتَکُونَ لِمَنْ خَلْفَکَ آیَةً. قال ابن عباس و غیر واحد: شک الآثار و التاریخ، ص: ۱۳۶ بعض بنی إسرائیل فی موت فرعون، حتی قال بعضهم: إنه لا یموت، فأمر اللّه البحر فرفعه علی مرتفع، قیل: علی وجه الماء، و قیل: علی نجوهٔ من الأرض، و علیه درعه التی یعرفونها من ملابسه لیتحققوا بذلک هلاکه و یعلموا قدرهٔ اللّه علیه، و لهذا قال: فَالْیَوْمَ نُنَجِّیکَ بِبَدَنِکَ أی مصاحبا درعک المعروفهٔ بک لِتَکُونَ أی أنت آیهٔ لِمَنْ خَلْفَکَ أی من بنی إسرائیل، دلیلا علی قدرهٔ اللّه الذی أهلکه. و لهذا قرأ بعض السلف: لِتَکُونَ لِمَنْ خَلْفَکَ آیَةً، و یحتمل أن یکون المراد ننجیک مصاحبا لتکون درعک علامهٔ لمن وراءک من بنی إسرائیل علی معرفتک و أنک هلکت، و اللّه أعلم، و قد کان هلاکه و جنوده فی یوم عاشوراء، کما قال الإمام البخاری فی صحیحه: حدثنا محمد بن بشار، حدثنا غندر، حدثنا شعبهٔ، عن أبی بشر، عن سعید بن جبیر، عن ابن عباس، قال: قدم النبی صلّی اللّه علیه و سلم المدینهٔ و

اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا اليوم الذى تصومونه؟ فقالوا: هذا يوم ظهر فيه موسى على فرعون، قال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: (أنتم أحق بموسى منهم فصوموا). و أصل الحديث فى الصحيحين و غيرهما، و اللّه أعلم.

أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون

أمر بنى إسرائيل بعد هلاك فرعون قال اللّه تعالى فى سورة الأعراف: فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (١٣۶) وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) وَ جاوَزْنا بِبَنِي إِسْرائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلى أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (١٣٨) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قالَ أَ غَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلهاً وَ هُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (١۴٠) وَ إِذْ أَنْجَيْناكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذابِ يُقَتِّلُونَ أَبْناءَكُمْ وَ يَسْتَحْيُونَ نِساءَكُمْ وَ فِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١۴١) .. يذكر تعالى ما كان من أمر فرعون و جنوده فى غرقهم، و كيف سلبهم عزهم و مالهم و أنفسهم، و أورث بنى إسرائيل جميع الآثار و التاريخ، ص: ١٣٧ أموالهم و أملاكهم، كما قال: كَذلِكَ وَ أَوْرَثْناها بَنِي إِسْرائِيلَ (۵٩)، و قال: وَ نُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَ نَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَ نَجْعَلَهُمُ الْوارِثِينَ (۵)، و قال هاهنا وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَ تَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَ دَمَّرْنا ما كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَ قَوْمُهُ وَ ما كانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) أى أهلك ذلك جميعه، و سلبهم عزهم العزيز العريض فى الدنيا، و هلك الملك و حاشيته و أمراؤه و جنوده، و لم يبق ببلد مصر سوى العامة و الرعايا. فذكر ابن عبد الحكم فى تاريخ مصر: أنه فى ذلك الزمان تسلط نساء مصر على رجالها بسبب أن نساء الأمراء و الكبراء تزوجن بمن دونهن من العامة، فكانت لهن السطوة عليهم، و استمرت هذه سنّة نساء مصر إلى يومك هذا. و عند أهل الكتاب: أن بنى إسرائيل لما أمروا بالخروج من مصر جعل اللّه ذلك الشهر أول سنتهم، و أمروا أن يذبح كل أهل بيت حملا من الغنم، فإن كانوا لا يحتاجون إلى حمل فليشترك الجار و جاره فيه، فإذا ذبحوه فلينضحوا من دمه على أعتاب أبوابهم ليكون علامة لهم على بيوتهم، و لا يأكلونه مطبوخا و لكن مشويا برأسه و أكارعه و بطنه و لا يبقوا منه شيئا، و لا يكسروا له عظما، و لا يخرجوا منه شيئا إلى خارج بيوتهم، و ليكن خبزهم فطيرا سبعة أيام ابتداؤها من الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم، و كان ذلك فى فصل الربيع، فإذا أكلوا فلتكن أوساطهم مشدودة، و خفافهم فى أرجلهم، و عصيهم فى أيديهم، و ليأكلوا بسرعة قياما و مهما فضل عن عشائهم، فما بقى إلى الغد فليحرقوه بالنار، و شرع لهم هذا عيدا لأعقابهم ما دامت التوراة معمولا بها، فإذا نسخت بطل شرعها و قد وقع. قالوا: و قتل اللّه عز و جل فى تلك الليلة أبكار القبط، و أبكار دوابهم، ليشتغلوا عنهم و خرج بنو إسرائيل حين انتصف النهار، و أهل مصر فى مناحة عظيمة على أبكار أولادهم، و أبكار أموالهم، ليس من بيت إلا و فيه عويل و حين جاء الوحى إلى موسى خرجوا مسرعين، فحملوا العجين قبل اختماره و حملوا الأزواد فى الأردية و ألقوها على عواتقهم، و كانوا قد استعاروا من أهل مصر حليا كثيرا، فخرجوا و هم ستمائة ألف رجل الآثار و التاريخ، ص: ١٣٨ سوى الذرارى بما معهم من الأنعام، و كانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة و ثلاثين سنة، هذا نص كتابهم، و هذه السنة عندهم تسمى سنة الفسخ، و هذا العيد عيد الفسخ، و لهم عيد الفطير، و عيد الحمل، و هو أول السنة، و هذه الأعياد الثلاثة آكد أعيادهم منصوص عليها فى كتابهم. و لما خرجوا من مصر أخرجوا معهم تابوت يوسف عليه السلام، و خرجوا على طريق بحر سوف، و كانوا فى النهار يسيرون و السحاب بين أيديهم يسير أمامهم فيه عمود نور، و بالليل أمامهم عمود نار، فانتهى بهم الطريق إلى ساحل البحر، فنزلوا هنالك و أدركهم فرعون و جنوده من المصريين و هم هناك حلول على شاطئ اليم، فقلق كثير من بنى إسرائيل حتى قال قائلهم كان بقاؤنا بمصر أحب إلينا من الموت بهذه البرية، و قال موسى عليه السلام لمن قال هذه المقالة: لا تخشوا فإن فرعون و جنوده لا يرجعون إلى بلدهم بعد هذا، قالوا: و أمر اللّه موسى عليه السلام أن يضرب البحر بعصاه، و أن يقسمه ليدخل بنو إسرائيل فى البحر و

اليبس، و صار الماء من هاهنا و هاهنا كالجبلين، و صار وسطه يبسا، لأن اللّه سلط عليه ريح الجنوب و السموم فجاز بنو إسرائيل البحر و اتبعهم فرعون و جنوده، فلما توسطوه أمر اللّه موسى فضرب البحر بعصاه فرجع الماء كما كان عليهم، لكن عند أهل الكتاب: أن هذا كان فى الليل، و أن البحر ارتطم عليهم عند الصبح، و هذا من غلطهم، و عدم فهمهم فى تعريبهم، و اللّه أعلم، قالوا: و لما أغرق اللّه فرعون و جنوده حينئذ سبح موسى و بنو إسرائيل بهذا التسبيح للرب، و قالوا: (نسبح الرب البهى الذى قهر الجنود و نبذ فرسانها فى البحر المنيع المحمود)، و هو تسبيح طويل، قالوا: و أخذت مريم النبية أخت هارون دفا بيدها، و خرج النساء فى أثرها كلهن بدفوف و طبول، و جعلت مريم ترتل لهن و تقول: سبحان الرب القهار الذى قهر الخيول و ركبانها إلقاء فى البحر. هكذا رأيته فى كتابهم، و لعل هذا هو من الذى حمل محمد بن كعب القرظى على زعمه، أن مريم بنت عمران أم عيسى هى أخت هارون و موسى مع قوله: يا أُخْتَ هارُونَ. و قد بينا غلطه فى ذلك و أن هذا لا يمكن أن يقال و لم يتابعه أحد عليه، بل كل واحد خالفه فيه، و لو قدر أن الآثار و التاريخ، ص: ۱۳۹ هذا محفوظ فهذه مريم بنت عمران أخت موسى و هارون عليهما السلام، و أم عيسى عليها السلام، وافقتها فى الاسم و اسم الأب و اسم الأخ، لأنهم كما قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم للمغيرة بن شعبة لما سأله أهل نجران عن قوله: يا أخت هارون، فلم يدر ما يقول لهم حتى سأل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن ذلك، فقال: (أما علمت أنهم كانوا يسمون بأسماء أنبيائهم). رواه مسلم. و قولهم: النبية كما يقال للمرأة من بيت الملك ملكة، و من بيت الإمرة أميرة، و إن لم تكن مباشرة شيئا من ذلك، فكذا هذه استعارة لها، لا أنها نبية حقيقة يوحى إليها، و ضربها بالدف فى مثل هذا اليوم الذى هو أعظم الأعياد عندهم، دليل على أنه قد كان شرع من قبلنا ضرب الدف فى العيد، و هذا مشروع لنا أيضا فى حق النساء، لحديث الجاريتين اللتين كانتا عند عائشة تضربان بالدف فى أيام منى، و رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مضطجع مولى ظهره إليهم و وجهه إلى الحائط، فلما دخل أبو بكر زجرهن، و قال: أ بمزمور الشيطان فى بيت رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم؟ فقال: (دعهن يا أبا بكر، فإن لكل قوم عيدا و هذا عيدنا). و هكذا يشرع عندنا فى الأعراس، و لقدوم الغياب، كما هو مقرر فى موضعه، و اللّه أعلم. و ذكروا أنهم لما جاوزوا البحر و ذهبوا قاصدين إلى بلاد الشام مكثوا ثلاثة أيام لا يجدون ماء، فتكلم من تكلم منهم بسبب ذلك، فوجدوا ماء زعاقا أجاجا لم يستطيعوا شربه، فأمر اللّه موسى فأخذ خشبة فوضعها فيه فحلا و ساغ شربه، و علمه الرب هنالك فرائض و سننا و وصاه وصايا كثيرة. و قد قال اللّه تعالى فى كتابه العزيز المهيمن على ما عداه من الكتب: وَ جاوَزْنا بِبَنِی إِسْرائِیلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلی قَوْمٍ یَعْکُفُونَ عَلی أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا یا مُوسَی اجْعَلْ لَنا إِلهاً کَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّکُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۱۳۸) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِیهِ وَ باطِلٌ ما کانُوا یَعْمَلُونَ (۱۳۹) قالوا هذا الجهل و الضلال، و قد عاينوا من آيات اللّه و قدرته ما دلهم على صدق ما جاءهم به رسول ذى الجلال و الإكرام، و ذلك أنهم مروا على قوم يعبدون أصناما، قيل: كانت على صور البقر، فكأنهم سألوهم لم يعبدونها، فزعموا لهم أنها تنفعهم و تضرهم و يسترزقون بها عند الضرورات، فكأن بعض الجهال منهم صدقوهم فى ذلك، فسألوا نبيهم الكليم الكريم العظيم أن يجعل لهم آلهة الآثار و التاريخ، ص: ۱۴۰ كما لأولئك آلهة، فقال لهم مبينا لهم أنهم لا يعقلون، و لا يهتدون: إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِیهِ وَ باطِلٌ ما کانُوا یَعْمَلُونَ، ثم ذكرهم نعمة اللّه عليهم فى تفضيله إياهم على عالمى زمانهم بالعلم و الشرع، و الرسول الذى بين أظهرهم و ما أحسن به إليهم، و ما امتن به عليهم، من إنجائهم من قبضة فرعون الجبار العنيد، و إهلاكه إياه و هم ينظرون، و توريثه إياهم ما كان فرعون و ملؤه يجمعونه من الأموال و السعادة، و ما كانوا يعرشون، و بين لهم أنه لا تصلح العبادة إلا للّه وحده لا شريك له، لأنه الخالق الرازق القهار، و ليس كل بنى إسرائيل سأل هذا السؤال بل هذا الضمير عائد على الجنس فى قوله: وَ جاوَزْنا بِبَنِی إِسْرائِیلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلی قَوْمٍ یَعْکُفُونَ عَلی أَصْنامٍ لَهُمْ قالُوا یا مُوسَی اجْعَلْ لَنا إِلهاً کَما لَهُمْ آلِهَةٌ أى قال بعضهم، كما فى قوله: وَ حَشَرْناهُمْ فَلَمْ نُغادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً (۴۷) وَ عُرِضُوا عَلی رَبِّکَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونا کَما خَلَقْناکُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَکُمْ مَوْعِداً (۴۸) فالذين زعموا هذا بعض الناس لا كلهم. و قد قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن الزهرى، عن سنان بن أبى سنان الديلى، عن أبى واقد الليثى، قال: خرجنا مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قبل حنين، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول اللّه، اجعل لنا ذات أنواط كما للكفار ذات أنواط، و كان

الكفار ينوطون سلاحهم بسدرة و يعكفون حولها، فقال النبى صلّى اللّه عليه و سلم: (اللّه أكبر هـذا كما قالت بنو إسرائيل لموسى: اجعل لنا إلها كما لهم آلهة، إنكم تركبون سنن الذين من قبلكم). و رواه النسائى عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق به. و رواه الترمذى عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومى، عن سفيان بن عيينة، عن الزهرى به. ثم قال: حسن صحيح. و قد روى ابن جرير من حديث محمد بن إسحاق و معمر و عقيل، عن الزهرى، عن سنان بن أبى سنان، عن أبى واقد الليثى، أنهم خرجوا من مكة مع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم إلى خيبر، قال: و كان للكفار سدرة يعكفون عندها، و يعلقون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة خضراء عظيمة، قال فقلنا يا رسول اللّه، اجعل لنا ذات أنواط، كما لهم ذات أنواط. قال صلّى اللّه عليه و سلم (قلتم: و الذى نفسى بيده، كما قال قوم موسى الآثار و التاريخ، ص: ۱۴۱ لموسى: اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۱۳۸) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۳۹)). و المقصود: أن موسى عليه السلام لما انفصل من بلاد مصر و واجه بلاد بيت المقدس، وجد فيها قوما من الجبارين من الحيثانيين و الفزاريين و الكنعانيين و غيرهم، فأمرهم موسى عليه السلام بالدخول عليهم و مقاتلتهم و إجلائهم إياهم عن بيت المقدس، فإن اللّه كتبه لهم، و وعدهم إياه على لسان إبراهيم الخليل، أو موسى الكليم الجليل، فأبوا و نكلوا عن الجهاد، فسلط اللّه عليهم الخوف و ألقاهم فى التيه يسيرون و يحلون و يرتحلون و يذهبون و يجيئون فى مدة من السنين طويلة هى من العدد أربعون، كما قال اللّه تعالى فى سورة المائدة: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ يا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِياءَ وَ جَعَلَكُمْ مُلُوكاً وَ آتاكُمْ ما لَمْ يُؤْتِ أَحَداً مِنَ الْعالَمِينَ (۲۰) يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ (۲۱) قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ (۲۲) قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۲۳) قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ (۲۴) قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (۲۵) قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ (۲۶) .. يذكرهم نبى اللّه نعمة اللّه عليهم، و إحسانه عليهم بالنعم الدينية و الدنيوية، و يأمرهم بالجهاد فى سبيل اللّه، و مقاتلة أعدائه، فقال: يا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَ لا تَرْتَدُّوا عَلى أَدْبارِكُمْ أى تنكصوا على أعقابكم، و تنكلوا على قتال أعدائكم فَتَنْقَلِبُوا خاسِرِينَ أى فتخسروا بعد الربح، و تنقصوا بعد الكمال قالُوا يا مُوسى إِنَّ فِيها قَوْماً جَبَّارِينَ أى عتاة كفرة متمردين وَ إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْها فَإِنَّا داخِلُونَ خافوا من هؤلاء الجبارين، و قد عاينوا هلاك فرعون، و هو أجبر من هؤلاء الآثار و التاريخ، ص: ۱۴۲ و أشد بأسا و أكثر جمعا و أعظم جندا، و هذا يدل على أنهم ملومون فى هذه المقالة و مذمومون على هذه الحالة من الذلة عن مصاولة الأعداء و مقاومة المردة الأشقياء. و قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا آثارا فيها مجازفات كثيرة باطلة يدل العقل و النقل على خلافها من أنهم كانوا أشكالا هائلة ضخاما جدا، حتى أنهم ذكروا أن رسل بنى إسرائيل لما قدموا عليهم تلقاهم رجل من رسل الجبارين فجعل يأخذهم واحدا واحدا و يلفهم فى أكمامه و حجزة سراويله، و هم اثنا عشر رجلا فجاء بهم فنثرهم بين يدى ملك الجبارين، فقال: ما هؤلاء؟ و لم يعرف أنهم من بنى آدم حتى عرفوه، و كل هذه هذيانات و خرافات لا حقيقة لها، و أن الملك بعث معهم عنبا كل عنبة تكفى الرجل، و شيئا من ثمارهم ليعلموا ضخامة أشكالهم، و هذا ليس بصحيح و ذكروا هاهنا أن عوج ابن عنق خرج من عند الجبارين إلى بنى إسرائيل ليهلكهم، و كان طوله ثلاثة آلاف ذراع و ثلاثمائة ذراع و ثلاثة و ثلاثين ذراعا و ثلث ذراع، هكذا ذكره البغوى و غيره و ليس بصحيح كما قدمنا بيانه عند قوله صلّى اللّه عليه و سلم: (إن اللّه خلق آدم طوله ستون ذراعا، ثم لم يزل الخلق ينقص حتى الآن). قالوا: فعمد عوج إلى قمة جبل، فاقتلعها ثم أخذها بيديه ليلقيها على جيش موسى، فجاء طائر فنقر تلك الصخرة فخرقها فصارت طوقا فى عنق عوج بن عنق، ثم عمد موسى إليه فوثب فى الهواء عشرة أذرع، و طوله عشرة أذرع و بيده عصاه، و طولها عشرة أذرع، فوصل إلى كعب قدمه فقتله، يروى هذا عن عوف البكالى، و نقله ابن جرير عن ابن عباس و فى إسناده إليه نظر. ثم هو مع هذا كله من الإسرائيليات، و كل هذه من وضع جهال بنى إسرائيل، فإن

الأخبار الكاذبة قد كثرت عندهم و لا تمييز لهم بين صحتها و باطلها، ثم لو كان هذا صحيحا لكان بنو إسرائيل معذورين في النكول عن قتالهم، و قد ذمهم اللّه على نكولهم، و عاقبهم بالتيه على ترك جهادهم، و مخالفتهم رسولهم، و قد أشار عليهم رجلان صالحان منهم بالإقدام، و نهياهم عن الإحجام، و يقال: إنهما يوشع بن نون و كالب بن يوقنا، قاله ابن عباس و مجاهد و عكرمة و عطية و السدى و الربيع بن أنس و غير واحد. قالَ رَجُلانِ مِنَ الَّذِينَ يَخافُونَ أي يخافون اللّه و قرأ بعضهم: (يخافون) أي يهابون أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا الآثار و التاريخ، ص: ۱۴۳ أي بالإسلام و الإيمان و الطاعة و الشجاعة ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبابَ فَإِذا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غالِبُونَ وَ عَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ أي إذا توكلتم على اللّه و استعنتم به و لجأتم إليه نصركم على عدوكم، و أيدكم عليهم، و أظفركم بهم قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ فصمم ملؤهم على النكول عن الجهاد، و وقع أمر عظيم، و وهن كبير، فيقال: إن يوشع و كالب لما سمعا هذا الكلام شقا ثيابهما، و إن موسى و هارون سجدا إعظاما لهذا الكلام و غضبا للّه عز و جل، و شفقة عليهم من وبيل هذه المقالة قالَ رَبِّ إِنِّي لا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَ أَخِي فَافْرُقْ بَيْنَنا وَ بَيْنَ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ قال ابن عباس: اقض بيني و بينهم قالَ فَإِنَّها مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ عوقبوا على نكولهم بالتيهان في الأرض، يسيروا إلى غير مقصد ليلا و نهارا و صباحا و مساء، و يقال: إنه لم يخرج أحد من التيه ممن دخله، بل ماتوا كلهم في مدة أربعين سنة، و لم يبق إلا ذراريهم سوى يوشع و كالب عليهما السلام، لكن أصحاب محمد صلّى اللّه عليه و سلم يوم بدر لم يقولوا له كما قال قوم موسى لموسى، بل لما استشارهم في الذهاب إلى النفير تكلم الصديق فأحسن و غيره من المهاجرين، ثم جعل يقول: (أشيروا عليّ). حتى قال سعد بن معاذ: كأنك تعرض بنا يا رسول اللّه، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، و ما نكره أن يلقى بنا عدونا غدا إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل اللّه يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة اللّه. فسر رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم بقول سعد و بسطه ذلك. و قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، حدثنا سفيان، عن مخارق بن عبد اللّه الأحمسي، عن طارق، هو ابن شهاب، أن المقداد قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يوم بدر: يا رسول اللّه، إنا لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ و لكن اذهب أنت و ربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون. و هذا إسناد جيد من هذا الوجه، و له طرق أخرى. قال أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا إسرائيل، الآثار و التاريخ، ص: ۱۴۴ عن مخارق، عن طارق بن شهاب، قال: قال عبد اللّه بن مسعود: لقد شهدت من المقداد مشهدا، لأن أكون أنا صاحبه أحب إليّ مما عدل به، أتى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم و هو يدعو على المشركين، قال: و اللّه يا رسول اللّه، لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ و لكنا نقاتل عن يمينك، و عن يسارك و من بين يديك، و من خلفك، فرأيت وجه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يشرق لذلك، و سر بذلك. رواه البخاري في التفسير و المغازي من طرق عن مخارق به. و قال الحافظ أبو بكر بن مردويه: حدثنا على بن الحسن بن على، حدثنا أبو حاتم الرازي، حدثنا محمد بن عبد اللّه الأنصاري، حدثنا حميد، عن أنس، أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم لما سار إلى بدر استشار المسلمين، فأشار عليه عمر، ثم استشارهم فقالت الأنصار: يا معشر الأنصار، إياكم يريد رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، قالوا: إذا لا نقول له كما قالت بنو إسرائيل لموسى: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ و الذي بعثك بالحق إن ضربت أكبادها إلى برك العماد لاتبعناك. رواه الإمام أحمد عن عبيدة بن حميد، عن حميد الطويل، عن أنس به. و رواه النسائي عن محمد بن المثنى، عن خالد بن الحارث، عن حميد، عن أنس به نحوه. و أخرجه ابن حبان في صحيحه عن أبي يعلى، عن عبد الأعلى بن حماد، عن معتمر، عن حميد، عن أنس به نحوه.

سؤال الرؤية

سؤال الرؤية قال اللّه تعالى:* وَ واعَدْنا مُوسى ثَلاثِينَ لَيْلَةً وَ أَتْمَمْناها بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَ قالَ مُوسى لِأَخِيهِ هارُونَ اخْلُفْنِي

فِي قَوْمِي وَ أَصْلِحْ وَ لا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (۱۴۲) وَ لَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ قالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ (۱۴۳) قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَ بِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۱۴۴) وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ الآثار و التاريخ، ص: ۱۴۵ فَخُذْها بِقُوَّةٍ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ (۱۴۵) سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ كانُوا عَنْها غافِلِينَ (۱۴۶) وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۴۷)، (الأعراف). قال جماعة من السلف، منهم ابن عباس و مسروق و مجاهد: الثلاثون ليلة هى شهر ذى القعدة بكماله، و أتمت أربعين ليلة بعشر ذى الحجة، فعلى هذا يكون كلام اللّه له يوم عيد النحر، و فى مثله أكمل اللّه عز و جل لمحمد صلّى اللّه عليه و سلم دينه و أقام حجته و براهينه. و المقصود: أن موسى عليه السلام لما استكمل الميقات و كان فيه صائما، يقال: إنه لم يستطعم الطعام، فلما كمل الشهر أخذ لحا شجرة فمضغة ليطيب ريح فمه، فأمر اللّه أن يمسك عشرا أخرى، فصارت أربعين ليلة. و لهذا ثبت فى الحديث: (أن خلوف فم الصائم أطيب عند اللّه من ريح المسك). فلما عزم على الذهاب استخلف على شعب بنى إسرائيل أخاه هارون المحبب المبجل الجليل، و هو ابن أمه و أبيه، و وزيره فى الدعوة إلى مصطفيه، فوصاه و أمره، و ليس فى هذا لعلو منزلته فى نبوته منافاة، قال اللّه تعالى: وَ لَمَّا جاءَ مُوسى لِمِيقاتِنا أى فى الوقت الذى أمر بالمجيء فيه وَ كَلَّمَهُ رَبُّهُ أى كلمه اللّه من وراء حجاب إلا أنه أسمعه الخطاب فناداه و ناجاه و قربه و أدناه، و هذا مقام رفيع و معقل منيع و منصب شريف و منزل منيف، فصلوات اللّه عليه تترى و سلامه عليه فى الدنيا و الأخرى، و لما أعطى هذه المنزلة العلية، و المرتبة السنية، و سمع الخطاب سأل رفع الحجاب، فقال للعظيم الذى لا تدركه الأبصار القوى البرهان: رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قالَ لَنْ تَرانِي ثم بين تعالى أنه لا يستطيع أن يثبت عند تجليه تبارك و تعالى، لأن الجبل الذى هو أقوى و أكبر ذاتا و أشد ثباتا من الإنسان لا يثبت عند التجلى من الرحمن، و لهذا قال: وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي. و فى الكتب المتقدمة أن اللّه تعالى قال له: يا موسى، إنه لا يرانى حى إلا مات، الآثار و التاريخ، ص: ۱۴۶ و لا يابس إلا تدهده. و فى الصحيحين عن أبى موسى، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أنه قال: (حجابه النور- و فى رواية: النار- لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه). و قال ابن عباس فى قوله تعالى: لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصارُ: ذاك نوره الذى هو نوره إذا تجلى لشىء لا يقوم له شىء، و لهذا قال تعالى: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً فَلَمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ قال مجاهد: وَ لكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكانَهُ فَسَوْفَ تَرانِي فإنه أكبر منك و أشد خلقا، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ، فنظر إلى الجبل لا يتمالك، و أقبل الجبل فدك على أوله، و رأى موسى ما يصنع الجبل، فخر صعقا. و قد ذكرنا فى التفسير ما رواه الإمام أحمد و الترمذى و صححه ابن جرير و الحاكم من طريق حماد بن سلمة، عن ثابت، زاد ابن جرير و ليث، عن أنس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قرأ: فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا و قال صلّى اللّه عليه و سلم: (هكذا، بإصبعه، و وضع النبى صلّى اللّه عليه و سلم الإبهام على المفصل الأعلى من الخنصر، فساخ الجبل). لفظ ابن جرير. و قال السدى عن عكرمة و عن ابن عباس: ما تجلى، يعنى من العظمة، إلا قدر الخنصر، فجعل الجبل دكّا قال: ترابا وَ خَرَّ مُوسى صَعِقاً أى مغشيا عليه، و قال قتادة: ميتا، و الصحيح الأول، لقوله: فَلَمَّا أَفاقَ فإن الإفاقة إنما تكون عن غشى، قال: سُبْحانَكَ تنزيه و تعظيم و إجلال أن يراه بعظمته أحد تُبْتُ إِلَيْكَ أى فلست أسأل بعد هذا الرؤية وَ أَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ أنه لا يراك حى إلا مات، و لا يابس إلا تدهده. و قد ثبت فى الصحيحين من طريق عمرو بن يحيى بن عمارة بن أبى حسن المازنى الأنصارى، عن أبيه، عن أبى سعيد الخدرى، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: (لا تخيرونى من بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش، فلا أدرى أفاق قبلى؟ أو جوزى بصعقة الطور؟) لفظ البخارى. و فى أوله: قصة اليهودى الذى لطم وجهه الأنصارى، حين قال: لا و الذى اصطفى موسى على البشر، فقال

رسول اللّه: (لا تخيرونى من بين الأنبياء). و فى الآثار و التاريخ، ص: ۱۴۷ الصحيحين من طريق الزهرى عن أبى سلمهٔ و عبد الرحمن الأعرج، عن أبى هريرهٔ، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم بنحوه، و فيه: (لا تخيرونى على موسى)، و ذكر تمامه. و هذا من باب الهضم و التواضع أو نهى عن التفضيل بين الأنبياء على وجه الغضب و العصبيهٔ، أو ليس هذا إليكم، بل اللّه هو الذى رفع بعضهم فوق بعض درجات، و ليس ينال هذا بمجرد الرأى بل بالتوقيف. و من قال: إن هذا قاله قبل أن يعلم أنه أفضل، ثم نسخ باطلاعه على أفضليته عليهم كلهم، ففى قوله نظر لأن هذا من روايهٔ أبى سعيد و أبى هريرهٔ، و ما هاجر أبو هريرهٔ إلا عام حنين متأخرا، فيبعد أنه لم يعلم بهذا إلا بعد هذا، و اللّه أعلم، و لا شك أنه صلوات اللّه و سلامه عليه، أفضل البشر بل الخليقهٔ، قال اللّه تعالى: كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ و ما كملوا إلا بشرف نبيهم، و ثبت بالتواتر عنه صلوات اللّه و سلامه عليه، أنه قال: (أنا سيد ولد آدم يوم القيامهٔ، و لا فخر)، ثم ذكر اختصاصه بالمقام المحمود الذى يغبطه به الأولون و الآخرون، الذى تحيد عنه الأنبياء و المرسلون، حتى أولو العزم الأكملون: نوح و إبراهيم و موسى و عيسى ابن مريم. و قوله صلّى اللّه عليه و سلم: (فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشا بقائمهٔ العرش، أى آخذا بها، فلا أدرى أفاق قبلى. جوزى بصعقهٔ الطور؟). دليل على أن هذا الصعق الذى يحصل للخلائق فى عرصات القيامهٔ حين يتجلى الرب لفصل القضاء بين عباده، فيصعقون من شدهٔ الهيبهٔ و العظمهٔ و الجلال، فيكون أولهم إفاقهٔ محمد خاتم الأنبياء، و مصطفى رب الأرض و السماء على سائر الأنبياء، فيجد موسى باطشا بقائمهٔ العرش، قال الصادق المصدوق: (لا أدرى أصعق فأفاق قبلى؟) أى كانت صعقته خفيفهٔ، لأنه قد ناله بهذا السبب فى الدنيا صعق، (أو جوزى بصعقهٔ الطور؟) يعنى فلم يصعق بالكليهٔ، و هذا شرف كبير لموسى عليه السلام من هذه الحيثيهٔ، و لا يلزم تفضيله بها مطلقا من كل وجه، و لهذا نبه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم على شرفه و فضيلته بهذه الصفهٔ، لأن المسلم لما ضرب وجه اليهودى حين قال: لا و الذى اصطفى موسى على البشر، قد يحصل فى نفوس المشاهدين لذلك هضم بجناب موسى عليه السلام، فبين النبى صلّى اللّه عليه و سلم فضيلته و شرفه، و قوله تعالى: قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَ بِكَلامِي أى فى ذلك الآثار و التاريخ، ص: ۱۴۸ الزمان، لا ما قبله لأن إبراهيم الخليل أفضل منه، كما تقدم بيان ذلك فى قصهٔ إبراهيم، و لا ما بعده لأن محمدا صلّى اللّه عليه و سلم أفضل منهما، كما ظهر شرفه ليلهٔ الإسراء على جميع المرسلين و الأنبياء، و كما ثبت أنه قال: (سأقوم مقاما يرغب إلى الخلق حتى إبراهيم). و قوله تعالى: فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ أى فخذ ما أعطيتك من الرسالهٔ و الكلام، و لا تسأل زيادهٔ عليه، و كن من الشاكرين على ذلك قال اللّه تعالى: وَ كَتَبْنا لَهُ فِي الْأَلْواحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ و كانت الألواح من جوهر نفيس ففى الصحيح: أن اللّه كتب له التوراهٔ بيده، و فيها مواعظ عن الآثام و تفصيل لكل ما يحتاجون إليه من الحلال و الحرام فَخُذْها بِقُوَّةٍ أى بعزم و نيهٔ صادقهٔ قويهٔ وَ أْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِها أى يضعوها على أحسن وجوهها و أجمل محاملها سَأُرِيكُمْ دارَ الْفاسِقِينَ أى سترون عاقبهٔ الخارجين عن طاعتى المخالفين لأمرى المكذبين لرسلى سَأَصْرِفُ عَنْ آياتِيَ عن فهمها و تدبرها، و تعقل معناها الذى أريد منها، و دل عليه مقتضاها: الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَ إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لا يُؤْمِنُوا بِها أى و لو شاهدوا مهما شاهدوا من الخوارق و المعجزات لا ينقادون لاتباعها وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا أى لا يسلكوه و لا يتبعوه وَ إِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآياتِنا أى صرفناهم عن ذلك لتكذيبهم بآياتنا، و تغافلهم عنها و إعراضهم عن التصديق بها، و التفكر فى معناها، و ترك العمل بمقتضاها وَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ لِقاءِ الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا ما كانُوا يَعْمَلُونَ.

قصهٔ عبادتهم العجل فى غيبهٔ موسى

قصهٔ عبادتهم العجل فى غيبهٔ موسى قال اللّه تعالى فى سورهٔ الأعراف: وَ اتَّخَذَ قَوْمُ مُوسى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ (۱۴۸) وَ لَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا الآثار و التاريخ، ص: ۱۴۹ لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ (۱۴۹) وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ بِئْسَما خَلَفْتُمُونِي

مِنْ بَعْدِی أَ عَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْواحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِی وَ كادُوا يَقْتُلُونَنِی فَلا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْداءَ وَ لا تَجْعَلْنِی مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (۱۵۰) قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی وَ أَدْخِلْنا فِی رَحْمَتِكَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (۱۵۱) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِی الْحَياةِ الدُّنْيا وَ كَذلِكَ نَجْزِی الْمُفْتَرِينَ (۱۵۲) وَ الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (۱۵۳) وَ لَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِی نُسْخَتِها هُدىً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (۱۵۴) .. و قال تعالى فى سورة طه:* وَ ما أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يا مُوسى (۸۳) قالَ هُمْ أُولاءِ عَلى أَثَرِی وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضى (۸۴) قالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (۸۵) فَرَجَعَ مُوسى إِلى قَوْمِهِ غَضْبانَ أَسِفاً قالَ يا قَوْمِ أَ لَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً أَ فَطالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِی (۸۶) قالُوا ما أَخْلَفْنا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنا وَ لكِنَّا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (۸۷) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى فَنَسِيَ (۸۸) أَ فَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً (۸۹) وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمنُ فَاتَّبِعُونِی وَ أَطِيعُوا أَمْرِی (۹۰) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنا مُوسى (۹۱) قالَ يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (۹۲) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَ فَعَصَيْتَ أَمْرِی (۹۳) قالَ يَا بْنَ أُمَّ لا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِی وَ لا بِرَأْسِی إِنِّی خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِی إِسْرائِيلَ وَ لَمْ تَرْقُبْ قَوْلِی (۹۴) قالَ فَما خَطْبُكَ يا سامِرِيُّ (۹۵) قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ كَذلِكَ سَوَّلَتْ لِی نَفْسِی (۹۶) قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِی الْحَياةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَ إِنَّ لَكَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَ انْظُرْ إِلى إِلهِكَ الَّذِی ظَلْتَ عَلَيْهِ عاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِی الْيَمِّ نَسْفاً (۹۷) إِنَّما إِلهُكُمُ اللَّهُ الَّذِی لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً (۹۸).

الآثار و التاريخ، ص: ۱۵۰ يذكر تعالى ما كان من أمر بنى إسرائيل حين ذهب موسى عليه السلام إلى ميقات ربه، فمكث على الطور يناجيه ربه، و يسأله موسى عليه السلام عن أشياء كثيرة، و هو تعالى يجيبه عنها، فعمد رجل منهم يقال له: هارون السامرى، فأخذ ما كان استعاره من الحلى فصاغ منه عجلا، و ألقى فيه قبضة من التراب كان أخذها من أثر فرس جبريل حين رآه يوم أغرق اللّه فرعون على يديه، فلما ألقاها فيه خار كما يخور العجل الحقيقى، و يقال: إنه استحال عِجْلًا جَسَداً أى لحما و دما حيا يخور، قاله قتادة و غيره. و قيل: بل كانت الريح إذا دخلت من دبره خرجت من فمه فيخور كما تخور البقرة، فيرقصون حوله و يفرحون فَقالُوا هذا إِلهُكُمْ وَ إِلهُ مُوسى فَنَسِيَ أى فنسى موسى ربه عندنا و ذهب يتطلبه، و هو هاهنا تعالى اللّه عما يقولون علوا كبيرا، و تقدست أسماؤه و صفاته و تضاعفت آلاؤه و عداته، قال اللّه تعالى مبينا بطلان ما ذهبوا إليه و ما عولوا عليه من إلهية هذا الذى قصاراه أن يكون حيوانا بهيما أو شيطانا رجيما: أَ فَلا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لا نَفْعاً، و قال: أَ لَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَ لا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَ كانُوا ظالِمِينَ فذكر أن هذا الحيوان لا يتكلم، و لا يرد جوابا، و لا يملك ضرا و لا نفعا، و لا يهدى إلى رشد، اتخذوه و هم ظالمون لأنفسهم عالمون فى أنفسهم بطلان ما هم عليه من الجهل و الضلال وَ لَمَّا سُقِطَ فِی أَيْدِيهِمْ أى ندموا على ما صنعوا وَ رَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنا رَبُّنا وَ يَغْفِرْ لَنا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخاسِرِينَ و لما رجع موسى عليه السلام إليهم، و رأى ما هم عليه من عبادة العجل، و معه الألواح المتضمنة التوراة ألقاها، فيقال: إنه كسرها، و هكذا هو عند أهل الكتاب و إن اللّه أبدله غيرها، و ليس فى اللفظ القرآنى ما يدل على ذلك، إلا أنه ألقاها حين عاين ما عاين. و عند أهل الكتاب: أنهما كانا لوحين، و ظاهر القرآن أنها ألواح متعددة، و لم يتأثر بمجرد الخبر من اللّه تعالى عن عبادة العجل، فأمره بمعاينة ذلك، و لهذا جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد و ابن حبان عن ابن عباس، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: الآثار و التاريخ، ص: ۱۵۱ (ليس الخبر كالمعاينة)، ثم أقبل عليهم فعنفهم و وبخهم و هجنهم فى صنيعهم هذا القبيح، فاعتذروا إليه بما ليس بصحيح قالوا إنا حُمِّلْنا أَوْزاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْناها فَكَذلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ تحرجوا من تملك حلى آل فرعون، و هم أهل حرب، و قد أمرهم اللّه بأخذه و أباحه لهم، و لم يتحرجوا بجهلهم، و قلة علمهم و عقلهم من عبادة العجل الجسد الذى له خوار، مع الواحد الأحد الفرد الصمد القهار، ثم أقبل على أخيه هارون عليهما السلام، قائلا له: يا هارُونُ ما مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (۹۲) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أى هلا لما رأيت ما صنعوا اتبعتنى فأعلمتنى بما فعلوا؟

فقال: إِنِّی خَشِیتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَیْنَ بَنِی إِسْرائِیلَ أی ترکتهم و جئتنی و أنت قد استخلفتنی فیهم قالَ رَبِّ اغْفِرْ لِی وَ لِأَخِی وَ أَدْخِلْنا فِی رَحْمَتِکَ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِینَ (۱۵۱) و قد کان هارون علیه السلام نهاهم عن هذا الصنیع الفظیع أشد النهی و زجرهم عنه أتم الزجر. قال اللّه تعالی: وَ لَقَدْ قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ یا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ أی إنما قدر اللّه أمر هذا العجل، و جعله یخور فتنة و اختبارا لکم وَ إِنَّ رَبَّکُمُ الرَّحْمنُ أی لا هذا فَاتَّبِعُونِی أی فیما أقول لکم وَ أَطِیعُوا أَمْرِی (۹۰) قالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَیْهِ عاکِفِینَ حَتَّی یَرْجِعَ إِلَیْنا مُوسی (۹۱) یشهد اللّه لهارون علیه السلام وَ کَفی بِاللَّهِ شَهِیداً أنه نهاهم و زجرهم عن ذلک، فلم یطیعوه و لم یتبعوه، ثم أقبل موسی علی السامری قالَ فَما خَطْبُکَ یا سامِرِیُّ (۹۵) أی ما حملک علی ما صنعت قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ یَبْصُرُوا بِهِ أی رأیت جبرائیل و هو راکب فرسا فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ أی من أثر فرس جبریل، و قد ذکر بعضهم: أنه رآه و کلما وطئت بحوافرها علی موضع اخضرّ و أعشب، فأخذ من أثر حافرها، فلما ألقاه فی هذا العجل المصنوع من الذهب کان من أمره ما کان و لهذا قال: قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ یَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ کَذلِکَ سَوَّلَتْ لِی نَفْسِی (۹۶) قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَکَ فِی الْحَیاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ و هذا دعاء علیه بأن لا یمس أحدا معاقبة له علی مسه ما لم یکن له مسه هذا الآثار و التاریخ، ص: ۱۵۲ معاقبة له فی الدنیا، ثم توعده فی الأخری، فقال: وَ إِنَّ لَکَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ و قرئ: لن نخلفه وَ انْظُرْ إِلی إِلهِکَ الَّذِی ظَلْتَ عَلَیْهِ عاکِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِی الْیَمِّ نَسْفاً قال: فعمد موسی علیه السلام إلی هذا العجل فحرقه بالنار، کما قاله قتادة و غیره. و قیل: بالمبارد، کما قاله علی و ابن عباس و غیرهما. و هو نص أهل الکتاب، ثم ذراه فی البحر و أمر بنی إسرائیل فشربوا، فمن کان من عابدیه علق علی شفاههم من ذلک الرماد منه ما یدل علیه، و قیل: بل اصفرت ألوانهم، ثم قال تعالی إخبارا عن موسی أنه قال لهم: إِنَّما إِلهُکُمُ اللَّهُ الَّذِی لا إِلهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ کُلَّ شَیْءٍ عِلْماً (۹۸). و قال تعالی: إِنَّ الَّذِینَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَیَنالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَ ذِلَّةٌ فِی الْحَیاةِ الدُّنْیا وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُفْتَرِینَ (۱۵۲) و هکذا وقع و قد قال بعض السلف: وَ کَذلِکَ نَجْزِی الْمُفْتَرِینَ مسجلة لکل صاحب بدعة إلی یوم القیامة، ثم أخبر تعالی عن حلمه و رحمته بخلقه و إحسانه علی عبیده فی قبوله توبة من تاب إلیه بتوبته علیه فقال: وَ الَّذِینَ عَمِلُوا السَّیِّئاتِ ثُمَّ تابُوا مِنْ بَعْدِها وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّکَ مِنْ بَعْدِها لَغَفُورٌ رَحِیمٌ (۱۵۳) لکن لم یقبل اللّه توبة عابدی العجل، إلا بالقتل، کما قال تعالی: وَ إِذْ قالَ مُوسی لِقَوْمِهِ یا قَوْمِ إِنَّکُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَکُمْ بِاتِّخاذِکُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلی بارِئِکُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَکُمْ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ عِنْدَ بارِئِکُمْ فَتابَ عَلَیْکُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِیمُ (۵۴) فیقال: إنهم أصبحوا یوما و قد أخذ من لم یعبد العجل فی أیدیهم السیوف، و ألقی اللّه علیهم ضبابا حتی لا یعرف القریب قریبه، و لا النسیب نسیبه، ثم مالوا علی عابدیه، فقتلوهم و حصدوهم، فیقال: إنهم قتلوا فی صبیحة واحدة سبعین ألفا، ثم قال تعالی: وَ لَمَّا سَکَتَ عَنْ مُوسَی الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْواحَ وَ فِی نُسْخَتِها هُدیً وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِینَ هُمْ لِرَبِّهِمْ یَرْهَبُونَ (۱۵۴) استدل بعضهم بقوله: وَ فِی نُسْخَتِها علی إنها تکسرت، و فی هذا الاستدلال نظر، و لیس فی اللفظ ما یدل علی أنها تکسرت، و اللّه أعلم. الآثار و التاریخ، ص: ۱۵۳ و قد ذکر ابن عباس فی حدیث الفتون کما سیأتی أن عبادتهم العجل کانت علی أثر خروجهم من البحر، و ما هو ببعید، لأنهم حین خرجوا قالُوا یا مُوسَی اجْعَلْ لَنا إِلهاً کَما لَهُمْ آلِهَةٌ. و هکذا عند أهل الکتاب فإن عبادتهم العجل کانت قبل مجیئهم بلاد بیت المقدس، و ذلک أنهم لما أمروا بقتل من عبد العجل قتلوا فی أول یوم ثلاثة آلاف، ثم ذهب موسی یستغفر لهم فغفر لهم، بشرط أن یدخلوا الأرض المقدسة وَ اخْتارَ مُوسی قَوْمَهُ سَبْعِینَ رَجُلًا لِمِیقاتِنا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَکْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِیَّایَ أَ تُهْلِکُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا إِنْ هِیَ إِلَّا فِتْنَتُکَ تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِی مَنْ تَشاءُ أَنْتَ وَلِیُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَیْرُ الْغافِرِینَ (۱۵۵)* وَ اکْتُبْ لَنا فِی هذِهِ الدُّنْیا حَسَنَةً وَ فِی الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَیْکَ قالَ عَذابِی أُصِیبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ فَسَأَکْتُبُها لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیاتِنا یُؤْمِنُونَ (۱۵۶) الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِیلِ یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ یُحِلُّ لَهُمُ الطَّیِّباتِ وَ یُحَرِّمُ عَلَیْهِمُ الْخَبائِثَ وَ یَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِی کانَتْ عَلَیْهِمْ فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۵۷)، (الأعراف). ذکر السدی و ابن عباس و غیرهما: أن هؤلاء السبعین کانوا علماء بنی إسرائیل، و معهم موسی و هارون و یوشع و ناداب و أبیهو ذهبوا

مع موسى عليه السلام، ليعتذروا عن بنى إسرائيل فى عبادة من عبد منهم العجل، و كانوا قد أمروا أن يتطيبوا و يتطهروا و يغتسلوا، فلما ذهبوا معه و اقتربوا من الجبل و عليه الغمام و عمود النور ساطع و صعد موسى الجبل، فذكر بنو إسرائيل أنهم سمعوا كلام اللّه، و هذا قد وافقهم عليه طائفة من المفسرين و حملوا عليه، قوله تعالى: وَ قَدْ كانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ ما عَقَلُوهُ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ (۷۵) و ليس هذا بلازم لقوله تعالى: فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ أى مبلغا و هكذا هؤلاء سمعوه مبلغا عن موسى عليه السلام، الآثار و التاريخ، ص: ۱۵۴ و زعموا أيضا أن السبعين رأوا اللّه، و هذا غلط منهم، لأنهم لما سألوا الرؤية أخذتهم الرجفة، كما قال تعالى: وَ إِذْ قُلْتُمْ يا مُوسى لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَ أَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (۵۵) ثُمَّ بَعَثْناكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (۵۶) و قال هاهنا: فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ الآية. قال محمد بن إسحاق: اختار موسى من بنى إسرائيل سبعين رجلا، الخير فالخير، و قال: انطلقوا إلى اللّه فتوبوا إليه مما صنعتم، و سلوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، صوموا و تطهروا و طهروا ثيابكم، فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، و كان لا يأتيه إلا بإذن منه و علم، فطلب منه السبعون أن يسمعوا كلام اللّه، فقال: أفعل فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله و دنا موسى، فدخل فى الغمام، و قال للقوم: ادنوا، و كان موسى إذا كلمه اللّه وقع على جبهته نور ساطع، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه، فضرب دونه بالحجاب، و دنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا فسمعوه و هو يكلم موسى يأمره و ينهاه: افعل و لا تفعل. فلما فرغ اللّه من أمره و انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم قالوا: لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً، فأخذتهم الرجفة، و هى الصاعقة، فالتقت أرواحهم فماتوا جميعا فقام موسى يناشد ربه و يدعوه و يرغب إليه و يقول: رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَ إِيَّايَ أَ تُهْلِكُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا أى لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء الذين عبدوا العجل منا، فإنا برآء مما عملوا، و قال ابن عباس و مجاهد و قتادة و ابن جريج: إنما أخذتهم الرجفة، لأنهم لم ينهوا قومهم عن عبادة العجل، و قوله: إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ أى اختبارك و ابتلاؤك و امتحانك، قاله ابن عباس و سعيد بن جبير و أبو العالية و الربيع بن أنس و غير واحد من علماء السلف و الخلف، يعنى أنت الذى قدرت هذا و خلقت ما كان من أمر العجل، اختبارا تختبرهم به كما قالَ لَهُمْ هارُونُ مِنْ قَبْلُ يا قَوْمِ إِنَّما فُتِنْتُمْ بِهِ أى اختبرتم، و لهذا قال: تُضِلُّ بِها مَنْ تَشاءُ وَ تَهْدِي مَنْ الآثار و التاريخ، ص: ۱۵۵ تَشاءُ أى من شئت أضللته باختبارك إياه، و من شئت هديته، لك الحكم و المشيئة، و لا مانع و لا راد لما حكمت و قضيت أَنْتَ وَلِيُّنا فَاغْفِرْ لَنا وَ ارْحَمْنا وَ أَنْتَ خَيْرُ الْغافِرِينَ (۱۵۵)* وَ اكْتُبْ لَنا فِي هذِهِ الدُّنْيا حَسَنَةً وَ فِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَيْكَ أى تبنا إليك و رجعنا و أنبنا، قاله ابن عباس و مجاهد و سعيد بن جبير و أبو العالية و إبراهيم التيمى و الضحاك و السدى و قتادة و غير واحد و هو كذلك فى اللغة قالَ عَذابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ أى أنا أعذب من شئت بما أشاء من الأمور التى أخلقها و أقدرها وَ رَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ كما ثبت فى الصحيحين عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أنه قال: (إن اللّه لما فرغ من خلق السماوات و الأرض، كتب كتابا فهو موضوع عنده فوق العرش، إن رحمتى تغلب غضبى). فَسَأَكْتُبُها لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَ يُؤْتُونَ الزَّكاةَ وَ الَّذِينَ هُمْ بِآياتِنا يُؤْمِنُونَ أى فسأوحيها حتما لمن يتصف بهذه الصفات الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الآية، و هذا فيه تنويه بذكر محمد صلّى اللّه عليه و سلم و أمته من اللّه لموسى عليه السلام فى جملة ما ناجاه به و أعلمه و أطلعه عليه، و قد تكلمنا على هذه الآية و ما بعدها فى التفسير بما فيه كفاية و مقنع، و للّه الحمد و المنة. و قال قتادة: قال موسى: يا رب، إنى أجد فى الألواح أمة خير أمة أخرجت للناس، يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر، رب اجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة هم الآخرون فى الخلق السابقون فى دخول الجنة، رب اجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة أناجيلهم فى صدورهم يقرءونها، و كان من قبلهم يقرءون كتابهم نظرا حتى إذا رفعوها لم يحفظوا شيئا، و لم يعرفوه و إن اللّه أعطاكم أيتها الأمة من الحفظ شيئا لم يعطه أحدا من الأمم، قال: رب اجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة يؤمنون بالكتاب الأول و بالكتاب الآخر، و يقاتلون فصول الضلالة حتى يقاتلوا الأعور الكذاب، فاجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة صدقاتهم يأكلونها فى بطونهم، و يؤجرون

عليها، و كان من قبلهم إذا تصدق بصدقة، الآثار و التاريخ، ص: ۱۵۶ فقبلت منه بعث اللّه عليها نارا فأكلتها، و إن ردت عليه تركت فتأكلها السباع و الطير، و إن اللّه أخذ صدقاتكم من غنيكم لفقيركم، قال: رب فاجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب فإنى أجد فى الألواح أمة إذا هم أحدهم بحسنة، ثم لم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها، كتبت له عشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، قال: رب اجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد، قال: رب إنى أجد فى الألواح أمة هم المشفعون المشفوع لهم، فاجعلهم أمتى، قال: تلك أمة أحمد. قال قتادة: فذكر لنا أن موسى عليه السلام نبذ الألواح، و قال: اللهم اجعلنى من أمة أحمد. و قد ذكر كثير من الناس ما كان من مناجاة موسى عليه السلام، و أوردوا أشياء كثيرة لا أصل لها، و نحن نذكر ما تيسر ذكره من الأحاديث و الآثار بعون اللّه و توفيقه و حسن هدايته و معونته و تأييده.

قصة بقرة بنى إسرائيل

قصة بقرة بنى إسرائيل قال اللّه تعالى فى سورة البقرة: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ (۶۷) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا فارِضٌ وَ لا بِكْرٌ عَوانٌ بَيْنَ ذلِكَ فَافْعَلُوا ما تُؤْمَرُونَ (۶۸) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما لَوْنُها قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها تَسُرُّ النَّاظِرِينَ (۶۹) قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ (۷۰) قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ (۷۱) وَ إِذْ قَتَلْتُمْ نَفْساً فَادَّارَأْتُمْ فِيها وَ اللَّهُ مُخْرِجٌ ما كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ (۷۲) فَقُلْنا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِها كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (۷۳)، قال ابن عباس و عبيدة السلمانى و أبو العالية و مجاهد و السدى و غير واحد من السلف: كان رجل فى بنى إسرائيل كثير المال، و كان شيخا كبيرا و له بنو أخ، و كانوا يتمنون موته ليرثوه، فعمد أحدهم فقتله فى الليل، و طرحه فى مجمع الطرق، و يقال: على باب رجل منهم، فلما أصبح الناس اختصموا فيه، و جاء ابن أخيه فجعل يصرخ و يتظلم، فقالوا: ما لكم الآثار و التاريخ، ص: ۱۵۷ تختصمون و لا تأتون نبى اللّه؟ فجاء ابن أخيه، فشكى أمر عمه إلى رسول اللّه موسى عليه السلام، فقال موسى عليه السلام: أنشد اللّه رجلا عنده علم من أمر هذا القتيل إلا أعلمنا به، فلم يكن عند أحد منهم علم منه، و سألوه أن يسأل فى هذه القضية ربه عز و جل، فسأل ربه عز و جل فى ذلك، فأمره اللّه أن يأمرهم بذبح بقرة فقال: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قالُوا أَ تَتَّخِذُنا هُزُواً يعنون نحن نسألك عن أمر هذا القتيل و أنت تقول هذا؟ قالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجاهِلِينَ أى أعوذ باللّه أن أقول عنه غير ما أوحى إلىّ، و هذا هو الذى أجابنى حين سألته عما سألتمونى عنه أن أسأله فيه. قال ابن عباس و عبيدة و مجاهد و عكرمة و السدى و أبو العالية و غير واحد: فلو أنهم عمدوا إلى أى بقرة فذبحوها لحصل المقصود منها، و لكنهم شددوا فشدد عليهم. و قد ورد فيه حديث مرفوع و فى إسناده ضعف، فسألوا عن صفتها ثم عن لونها ثم عن سنها؟ فأجيبوا بما عز وجوده عليهم. و المقصود: أنهم أمروا بذبح بقرة (عوان)، و هى الوسط النصف بين، (الفارض) و هى الكبيرة، (و البكر) و هى الصغيرة، قاله ابن عباس و مجاهد و أبو العالية و عكرمة و الحسن و قتادة و جماعة. ثم شددوا و ضيقوا على أنفسهم، فسألوا عن لونها؟ فأمروا ب صَفْراءُ فاقِعٌ لَوْنُها أى مشرب بحمرة تَسُرُّ النَّاظِرِينَ، و هذا اللون عزيز، ثم شددوا أيضا قالُوا ادْعُ لَنا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنا ما هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشابَهَ عَلَيْنا وَ إِنَّا إِنْ شاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ففى الحديث المرفوع الذى رواه ابن أبى حاتم و ابن مردويه: (لو لا أن بنى إسرائيل استثنوا لما أعطوا) و فى صحته نظر، و اللّه أعلم قالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّها بَقَرَةٌ لا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَ لا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لا شِيَةَ فِيها قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ و هذه الصفات أضيق مما تقدم، حيث أمروا بذبح بقرة (ليست بالذلول)، و هى المذللة بالحراثة، و سقى الأرض بالسانية، مسلمة و هى الصحيحة التى لا عيب فيها، قاله أبو العالية و قتادة. و قوله: لا شِيَةَ فِيها أى ليس فيها لون يخالف لونها بل هى مسلمة من العيوب و من مخالطة سائر الألوان غير الآثار و التاريخ، ص: ۱۵۸ لونها، فلما حددها بهذه الصفات و حصرها بهذه النعوت و الأوصاف قالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ و يقال: إنهم لم يجدوا هذه البقرة بهذه الصفة إلا عند رجل منهم كان بارا

بأبيه، فطلبوها منه فأبى عليهم، فرغّبوه فى ثمنها حتى أعطوه، فيما ذكر السدى، بوزنها ذهبا، فأبى عليهم، حتى أعطوه بوزنها عشر مرات، فباعها منهم، فأمرهم نبى اللّه موسى بذبحها فَذَبَحُوها وَ ما كادُوا يَفْعَلُونَ أى و هم يترددون فى أمرها، ثم أمرهم عن اللّه أن يضربوا ذلك القتيل ببعضها، قيل: بلحم فخذها، و قيل: بالعظم الذى يلى الغضروف، و قيل: بالبضعة التى بين الكتفين، فلما ضربوه ببعضها أحياه اللّه تعالى فقام و هو يشخب أوداجه، فسأله نبى اللّه من قتلك؟ قال: قتلنى ابن أخى، ثم عاد ميتا كما كان، قال اللّه تعالى: كَذلِكَ يُحْيِ اللَّهُ الْمَوْتى وَ يُرِيكُمْ آياتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ أى كما شاهدتم إحياء هذا القتيل عن أمر اللّه له كذلك أمره فى سائر الموتى، إذا شاء إحياءهم أحياهم فى ساعة واحدة، كما قال: ما خَلْقُكُمْ وَ لا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ الآية.

قصة موسى و الخضر عليهما السلام

قصة موسى و الخضر عليهما السلام قال اللّه تعالى فى سورة الكهف: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ لا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُباً (۶۰) فَلَمَّا بَلَغا مَجْمَعَ بَيْنِهِما نَسِيا حُوتَهُما فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً (۶۱) فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً (۶۲) قالَ أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً (۶۳) قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً (۶۴) فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَ عَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً (۶۵) قالَ لَهُ مُوسى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (۶۶) قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (۶۷) وَ كَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (۶۸) قالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً (۶۹) قالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (۷۰) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا الآثار و التاريخ، ص: ۱۵۹ رَكِبا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَها قالَ أَ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (۷۱) قالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (۷۲) قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (۷۳) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ قالَ أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً (۷۴) قالَ أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (۷۵) قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (۷۶) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (۷۷) قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (۷۸) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكانَتْ لِمَساكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَها وَ كانَ وَراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (۷۹) وَ أَمَّا الْغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً (۸۰) فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً (۸۱) وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَ يَسْتَخْرِجا كَنزَهُما رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَ ما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذلِكَ تَأْوِيلُ ما لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً (۸۲). قال بعض أهل الكتاب: إن موسى هذا الذى رحل إلى الخضر، هو موسى بن ميشا ابن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل، و تابعهم على ذلك بعض من يأخذ من صحفهم و ينقل عن كتبهم، منهم نوف بن فضالة الحميرى الشامى البكالى، و يقال: إنه دمشقى و كانت أمه زوجة كعب الأحبار، و الصحيح الذى دل عليه ظاهر سياق القرآن و نص الحديث الصحيح الصريح المتفق عليه، أنه موسى بن عمران صاحب بنى إسرائيل. قال البخارى: حدثنا الحميدى، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، أخبرنى سعيد ابن جبير، قال: قلت لابن عباس: إن نوفا البكالى يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس هو موسى صاحب بنى إسرائيل، قال ابن عباس: كذب عدو اللّه، حدثنا أبى بن كعب أنه سمع رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يقول: (إن موسى قام خطيبا فى بنى إسرائيل، الآثار و التاريخ، ص: ۱۶۰ فسئل: أى الناس أعلم؟ فقال: أنا فعتب اللّه عليه، إذ لم يرد العلم إليه، فأوحى اللّه إليه: إن لى عبدا بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال موسى: يا رب، و كيف لى به؟ قال: تأخذ معك حوتا فتجعله بمكتل، فحيثما فقدت الحوت فهو ثم، فأخذ حوتا فجعله بمكتل، ثم انطلق و انطلق معه فتاه يوشع بن نون، حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رءوسهما فناما، و اضطرب الحوت فى المكتل، فخرج منه فسقط فى البحر، فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَباً، و أمسك اللّه عن الحوت جرية الماء، فصار عليه مثل الطاق، فلما استيقظ نسى صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما و ليلتهما، حتى إذا كان من

الغد قال موسى لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً و لم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذى أمره اللّه به قالَ له فتاه أَ رَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَ ما أَنْسانِيهُ إِلَّا الشَّيْطانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَ اتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَباً قال فكان للحوت سربا، و لموسى و لفتاه عجبا قالَ ذلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلى آثارِهِما قَصَصاً قال: فرجعا يقصان أثرهما حتى انتهيا إلى الصخرة، فإذا رجل مسجى بثوب، فسلم عليه موسى، فقال الخضر: و أنى بأرضك السلام، قال: أنا موسى، قال: موسى بنى إسرائيل، قال: نعم، أتيتك لتعلمنى مما علمت رشدا، قالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً يا موسى إنى على علم من علم اللّه، علمنيه اللّه، لا تعلمه أنت و أنت على علم من علم اللّه، علمكه اللّه لا أعلمه، فقال: .. سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً وَ لا أَعْصِي لَكَ أَمْراً قال له الخضر: فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلا تَسْئَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (۷۰) فَانْطَلَقا ... يمشيان على ساحل البحر، فمرت سفينة فكلمهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول، فلما ركبا فى السفينة لم يفاجأ إلّا و الخضر قد قلع لوحا من ألواح السفينة بالقدوم، فقال له موسى: قوم حملونا بغير نول، عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ... لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً (۷۱) قالَ أَ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (۷۲) قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما الآثار و التاريخ، ص: ۱۶۱ نَسِيتُ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (۷۳)، قال: و قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: (و كانت الأولى من موسى نسيانا، قال: و جاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر فى البحر نقرة، فقال له الخضر: ما علمى و علمك فى علم اللّه إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر، ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل إذ بصر الخضر غلاما يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده، فقتله، فقال له موسى: أَ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً قال: أَ لَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً قال و هذه أشد من الأولى: قالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَها فَلا تُصاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً (۷۶) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا أَتَيا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَما أَهْلَها فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُما فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ، قال: مائل، فقال: الخضر بيده فَأَقامَهُ فقال موسى: قوم أتيناهم فلم يطعمونا و لم يضيفونا لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (۷۷) قالَ هذا فِراقُ بَيْنِي وَ بَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ ما لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً)، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: (وددنا أن موسى كان صبر حتى يقص اللّه علينا من خبرهما). قال سعيد بن جبير: فكان ابن عباس يقرأ: (و كان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة غصبا) و كان يقرأ: (و أما الغلام فكان كافرا و كان أبواه مؤمنين). ثم رواه البخارى أيضا عن قتيبة، عن سفيان بن عيينة، بإسناده نحوه. و فيه: (فخرج موسى و معه فتاه يوشع بن نون و معهما الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة، فنزلا عندها، قال: فوضع موسى رأسه فنام). قال سفيان: و فى حديث غير عمرو قال: (و فى أصل الصخرة عين يقال لها: الحياة، لا يصيب من مائها شيء إلا حيى، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، قال: فتحرك و انسل من المكتل، و دخل البحر، فلما استيقظ قالَ موسى لِفَتاهُ آتِنا غَداءَنا لَقَدْ لَقِينا ... و ساق الحديث). و قال: (و وقع عصفور على حرف السفينة، فغمس منقاره فى البحر، فقال الخضر لموسى: ما علمى و علمك و علم الخلائق فى علم اللّه إلا مقدار ما غمس هذا العصفور منقاره)، و ذكر تمام الحديث. و قال البخارى: حدثنا إبراهيم بن موسى، حدثنا هشام بن يوسف أن ابن جريج الآثار و التاريخ، ص: ۱۶۲ أخبرهم، قال: أخبرنى يعلى بن مسلم و عمرو بن دينار، عن سعيد بن جبير، يزيد أحدهما على صاحبه، و غيرهما قد سمعته يحدثه عن سعيد بن جبير، قال: إنا لعند ابن عباس فى بيته إذ قال: سلونى، فقلت: أى أبا عباس، جعلنى اللّه فداك، بالكوفة رجل قاص يقال له: نوف، يزعم أنه ليس بموسى بنى إسرائيل، أما عمرو فقال لى: قال: قد كذب عدو اللّه، و أما يعلى فقال لى: قال ابن عباس: حدثنى أبى بن كعب، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: (موسى رسول اللّه، قال: ذكر الناس يوما، حتى إذا فاضت العيون، و رقت القلوب ولى، فأدركه رجل، فقال: أى رسول اللّه، هل فى الأرض أحد أعلم منك؟ قال: لا، فعتب اللّه عليه إذ لم يرد العلم إلى اللّه، قيل: بلى، قال: أى رب، فأين؟ قال: بمجمع البحرين، قال: أى رب اجعل لى علما أعلم ذلك به. قال لى عمرو: قال: حيث يفارقك الحوت، و قال لى يعلى: قال خذ حوتا ميتا حيث ينفخ فيه الروح، فأخذ حوتا فجعله فى مكتل، فقال لفتاه: لا أكلفك إلا أن تخبرنى بحيث يفارقك الحوت، قال: ما كلفت كبيرا فذلك قوله: وَ إِذْ قالَ مُوسى لِفَتاهُ يوشع بن نون، ليست عن سعيد ابن جبير، قال: فبينما هو فى ظل صخرة فى مكان ثريان، إذ اضطرب الحوت و موسى نائم، فقال فتاه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسى أن يخبره، و اضطرب

الحوت حتى دخل البحر، فأمسك اللّه عنه جريـة البحر، حتى كأن أثره فى حجر، قال لى عمرو: هكـذا كأن أثره فى حجر، و حلق بين إبهاميه، و اللتين تليانهما لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً (۶۲) قـال: و قـد قطع اللّه عنك النصب، ليست هـذه عن سعيد، أخبره فرجعا، فوجدا خضرا. قال لى عثمان بن أبى سليمان: على طنفسة خضراء على كبد البحر، قال سعيد: مسجى بثوبه، قد جعل طرفه تحت رجليه، و طرفه تحت رأسه، فسلم عليه موسى، فكشف عن وجهه، و قـال: هـل بأرض من سـلام؟ من أنت؟ قال: أنا موسـى، قال: موسـى بنى إسرائيل، قال: نعم، قال: فما شأنك؟ قال: جئتك لتعلمنى مما علمت رشدا، قال: أما يكفيك أن التوراة بيديك، و أن الوحى يأتيك يا موسى، إن لى علما لا ينبغى لك أن تعلمه، الآثار و التاريخ، ص: ۱۶۳ و إن لـك علما لا ينبغى لى أن أعلمه، فأخـذ طائر بمنقاره من البحر، فقـال: و اللّه، مـا علمى و علمـك فى جنب علم اللّه إلا كما أخـذ هـذا الطائر بمنقاره من البحر حَتَّى إِذا رَكِبا فِي السَّفِينَةِ وجـدا معابر صغارا تحمل أهل هذا الساحل إلى أهل هذا الساحل الآخر، عرفوه، فقالوا: عبد اللّه الصالح، قال: فقلنا لسعيد: خضر؟ قال: نعم، لا نحمله بأجر ف خَرَقَها و وتـد فيها وتـدا قالَ موسـى أ خَرَقْتَها لِتُغْرِقَ أَهْلَها لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً قال مجاهد: منكرا قالَ أ لَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً كانت الأولى نسيانا، و الوسطى شرطا، و الثالثة عمدا قالَ لا تُؤاخِذْنِي بِما نَسِيتُ وَ لا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (۷۳) فَانْطَلَقا حَتَّى إِذا لَقِيا غُلاماً فَقَتَلَهُ، قال يعلى: قال سـعيد: وجد غلمانا يلعبون، فأخذ غلاما كافرا ظريفا فأضـجعه، ثم ذبحه بالسـكين قالَ أ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً لم تعمل بالخبث، ابن عباس قرأها: (زكيـة زاكيـة مسـلمة). كقولك: غلاما زكيا، فانطلقا فَوَجَدا فِيها جِداراً يُرِيـدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامَهُ قال: بيده هكذا، و رفع يده فاستقام، قال يعلى: حسبت أن سعيدا قال: فمسحه بيده فاستقام قالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً قال سعيد: أجرا نأكله وَ كانَ وَراءَهُمْ و كان أمامهم، قرأها ابن عباس: (أمامهم)، ملك يزعمون، عن غير سعيد، أنه هدد بن بدد، و الغلام المقتول: يزعمون جيسور مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً فإذا هى مرت به يدعها بعيبها، فإذا جاوزوا أصلحوها فانتفعوا بها، منهم من يقول: سدوها بقارورة، و منهم من يقول: بالقار فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْنِ و كان كافرا فَخَشِينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَ كُفْراً أى يحملهما حبه على أن يتابعاه على دينه فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً لقوله أ قَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً وَ أَقْرَبَ رُحْماً هما به أرحم منهما بالأول الذى قتل خضـر، و زعم سـعيد بن جبير: أنه ابن لا جاريـة، و أما داود بن أبى عاصم، فقال عن غير واحـد: إنها جارية. و قد رواه عبد الرزاق عن معمر، عن أبى إسـحاق، عن سـعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: خطب موسـى بنى إسرائيل، فقال: ما أحد أعلم باللّه و بأمره منى، فأمر الآثار و التاريـخ، ص: ۱۶۴ أن يلقى هـذا الرجل، فـذكر نحو ما تقـدم. و هكذا رواه محمد بن إسـحاق عن الحسن بن عمارة، عن الحكم بن عيينـة، عن سـعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن أبى بن كعب، عن رسول اللّه صـلّى اللّه عليه و سـلم كنحو ما تقـدم أيضا. و رواه العوفى عنه موقوفـا. و قـال الزهرى عن عبيـد اللّه بن عبـد اللّه بن عتبـة، عن ابن عبـاس، أنه تمـارى هو و الحر بن قيس بن حصـن الفزارى فى صاحب موسى، فقال ابن عباس: هو خضر، فمر بهما أبى بن كعب، فدعاه ابن عباس، فقال: إنى تماريت أنا و صاحبى هذا فى صاحب موسـى الذى سأل السبيل إلى لقيه، فهل سـمعت من رسول اللّه فيه شـيئا؟ قال: نعم، و ذكر الحديث. و قد تقصينا طرق هذا الحـديث و ألفاظه، فى تفسـير سورة الكهف و للّه الحمـد. و قوله: وَ أَمَّا الْجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ قال السـهيلى: و هما أصـرم و صـريم ابنا كاشـح وَ كانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُما قيل: كان ذهبا، قاله عكرمـة. و قيل: علما، قاله ابن عباس. و الأشـبه أنه كان لوحا من ذهب، مكتوبا فيه علم. قال البزار: حـدثنا إبراهيم بن سـعيد الجوهرى، حـدثنا بشر بن المنذر، حدثنا الحرث بن عبد اللّه اليحصبى، عن عيـاش بن عباس الغسانى، عن ابن حجيرة، عن أبى ذر رفعه، قال: إن الكنز الـذى ذكر اللّه فى كتابه لوح من الـذهب مصـمت: عجبت لمن أيقن بالقـدر كيف نصب؟ و عجبت لمن ذكر النـار لم ضـحك؟ و عجبت لمن ذكر الموت كيف غفـل؟ لا ـ إله إلا اللّه. و هكـذا روى عن الحسن البصـرى و عمر مولى عفرة و جعفر الصادق نحو هذا. و قوله: وَ كانَ أَبُوهُما صالِحاً و قد قيل: إنه كان الأب السابع، و قيل: العاشـر، و على كل تقدير فيه دلالة على أن الرجل الصالح يحفظ فى ذريته، فاللّه المستعان. و قوله: رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ دليل على أنه كان نبيا، و أنه ما فعل شيئا من تلقاء نفسه، بل بأمر ربه، فهو نبى، و قيل: رسول، و قيل: ولى، و أغرب من هذا من قال: كان ملكا، قلت: و قد أغرب جدا من قال: هو ابن فرعون، و قيل: إنه ابن الضحاك الذى ملك الدنيا ألف سنة، قال ابن جرير: و الذى عليه جمهور أهل

الكتاب: أنه كان فى زمن أفريـدون، و يقال: إنه كان على مقدمـة ذى القرنين، الذى قيل إنه كان أفريدون، و ذو الفرس هو الذى كان فى زمن الخليل، و زعموا: أنه شـرب من ماء الحياة فخلـد، و هو الآثار و التاريخ، ص: ۱۶۵ باق إلى الآن، و قيل: إنه من ولـد بعض من آمن بـإبراهيم و هـاجر معه من أرض بابـل، و قيل: اسـمه ملكان، و قيل: أرميا بن خلقيا، و قيل: كان نبيّا فى زمن سـباسب بن لهراسب، قال ابن جرير: و قد كان بين أفريدون و بين سباسب دهور طويلة لا يجهلها أحد من أهل العلم بالأنساب، قال ابن جرير: و الصحيح أنه كان فى زمن أفريدون، و اسـتمر حيا إلى أن أدركه موسـى عليه السـلام، و كانت نبوة موسى فى زمن منوشهر، الذى هو من ولد أبرج بن أفريـدون، أحـد ملوك الفرس، و كان إليه الملك بعد جده أفريدون لعهده، و كان عادلا و هو أول من خندق الخنادق، و أول من جعل فى كل قرية دهقانا، و كانت مدة ملكه قريبا من مائة و خمسـين سـنة، و يقال: إنه كان من سـلالة إسـحاق بن إبراهيم، و قد ذكر عنه من الخطب الحسان، و الكلم البليغ النافع الفصـيح، ما يبهر العقل و يحير السامع، و هذا يدل على أنه من سلالة الخليل، و اللّه أعلم. و قد قال اللّه تعالى: وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قالَ أَ أَقْرَرْتُمْ الآية. فأخذ اللّه ميثاق كل نبى على أن يؤمن بمن يجىء بعده من الأنبياء و ينصـره، و استلزم ذلك الإيمان و أخذ الميثاق لمحمد صـلّى اللّه عليه و سـلم لأنه خاتم الأنبياء فحق على كل نبى أدركه أن يؤمن به و ينصره فلو كان الخضر حيا فى زمانه لما وسعه إلاـ اتبـاعه و الاجتماع به و القيام بنصـره، و لكان من جملـة من تحت لوائه يوم بـدر كما كان تحتها جبريل و سادات من الملائكـة، و قصارى الخضر عليه السلام أن يكون نبيا، و هو الحق، أو رسولا، كما قيل، أو ملكا، فيما ذكر، و أيا ما كان: فجبريل رئيس الملائكة، و موسـى أشـرف من الخضر، و لو كان حيا لوجب عليه الإيمان بمحمد و نصرته، فكيف إن كان الخضر وليا كما يقوله طوائف كثيرون، فـأولى أن يـدخل فى عموم البعثـة و أحرى، و لم ينقل فى حـديث حسن، بل و لا ضـعيف، يعتمـد أنه جاء يوما واحـدا إلى رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، و لا اجتمع به، و ما ذكر من حديث التغرية فيه، و إن كان الحاكم قد رواه فإسناده ضعيف، و اللّه أعلم.

حديث الفتون المتضمن قصة موسى من أولها إلى آخرها

حـديث الفتون المتضـمن قصة موسـى من أولها إلى آخرها قال الإمام أبو عبد الرحمن النسائى، فى كتاب التفسير من سـننه، عند قوله تعالى فى سورة طه: وَ قَتَلْتَ نَفْساً فَنَجَّيْناكَ مِنَ الْغَمِّ وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً: حـديث الفتون حـدثنا عبـد اللّه بن محمـد، حـدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا أصبـغ بن زيـد، حـدثنا القاسم بن أبى أيوب، أخبرنى سـعيد بن جبير، قال: سألت عبد اللّه بن عباس عن قول اللّه تعالى: وَ فَتَنَّاكَ فُتُوناً فسأله عن الفتون ما هو؟ فقال: اسـتأنف النهار يا ابن جبير، فإن لها حديثا طويلا، فلما أصبحت غدوت إلى ابن عباس لأنتجز منه ما وعدنى من حديث الفتون، فقال: تذكّر فرعون و جلساؤه ما كان اللّه وعد إبراهيم عليه السـلام أن يجعل فى ذريته أنبياء و ملوكا، فقال بعضـهم: إن بنى إسـرائيل ينتظرون ذلك، ما يشكون فيه، و كانوا يظنون أنه يوسف بن يعقوب، فلما هلك قالوا: ليس هكذا كان وعد إبراهيم، فقال فرعون: فكيف ترون؟ فأتمروا، و أجمعوا أمرهم على أن يبعث رجالا معهم الشـفار يطوفون فى بنى إسرائيل، فلا يجدون مولودا ذكرا إلاـ ذبحوه، ففعلوا ذلك، فلما رأوا أن الكبار من بنى إسـرائيل، يموتون بآجالهم، و الصـغار يـذبحون، قالوا: توشـكون أن تفنوا بنى إسـرائيل، فتصـيروا إلى أن تباشـروا من الأعمال و الخدمـة الذى كانوا يكفونكم، فاقتلوا عاما كل مولود ذكر فتقل أبناؤهم، و دعوا عامـا فلاـ تقتلوا منهم أحـدا، فيشب الصـغار مكان من يموت من الكبار، فإنهم لن يكثروا بمن تسـتحيون منهم، فتخافوا مكاثرتهم إيـاكم، و لن تفنوا بمن تقتلون، و تحتـاجون إليهم، فـأجمعوا أمرهم على ذلك، فحملت أم موسـى بهارون فى العام الـذى لا تقتل فيه الغلمان، فولـدته علانيـة آمنـة، فلما كان من قابل، حملت بموسـى عليه السـلام، فوقع فى قلبها الهم و الحزن، و ذلك من الفتون يا ابن جبير، ما دخل عليه فى بطن أمه مما يراد، فأوحى اللّه إليها أن لا تخافى، و لا تحزنى إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَ جاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ فأمرها إذا ولـدت أن تجعله فى تابوت و تلقيه فى اليم، فلما ولـدت فعلت ذلك، فلما توارى عنها ابنها أتاها الشـيطان، فقالت فى نفسـها: ما فعلت بابنى لو ذبـح عندى فواريته و كفنته، كان أحب إلىّ من أن ألقيه إلى الآثار و التاريخ، ص: ۱۶۷ دواب البحر و حيتانه، فانتهى الماء به

حتى أوفى عند فرضة تستقى منها جوارى امرأة فرعون، فلما رأينه أخذنه، فهممن أن يفتحن التابوت، فقال بعضهن: إن فى هذا مالا، و إنا إن فتحناه لم تصدقنا امرأة الملك بما وجدنا فيه، فحملنه كهيئته لم يخرجن منه شيئا، حتى دفعنه إليها، فلما فتحته رأت فيه غلاما، فألقى عليه منها محبة لم تلق منها على أحد قط، وَ أَصْبَحَ فُؤادُ أُمِّ مُوسى فارِغاً: من ذكر كل شىء إلا من ذكر موسى، فلما سمع الذباحون بأمره أقبلوا بشفارهم إلى امرأة فرعون ليذبحوه، و ذلك من الفتون يا ابن جبير، فقالت لهم: أقروه، فإن هذا الواحد لا يزيد فى بنى إسرائيل، حتى آتى فرعون فأستوهبه منه، فإن وهبه منى كنتم قد أحسنتم و أجملتم، و إن أمر بذبحه لم ألمكم، فأتت فرعون فقالت: قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَ لَكَ فقال فرعون: يكون لك، فأما لى فلا حاجة لى فيه: فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: (و الذى يحلف به، لو أقر فرعون أن يكون قرة عين له كما أقرت امرأته لهداه اللّه كما هداها، و لكن حرمه ذلك) فأرسلت إلى من حولها، إلى كل امرأة لها لأن تختار ظئرا، فجعل كلما أخذته امرأة منهن لترضعه لم يقبل على ثديها، حتى أشفقت امرأة فرعون أن يمتنع من اللبن فيموت فأحزنها ذلك، فأمرت به فأخرج إلى السوق و مجمع الناس، ترجو أن تجد له ظئرا يأخذه منها، فلم يقبل، و أصبحت أم موسى والها، فقالت لأخته: قصى أثره و اطلبيه، هل تسمعين له ذكرا؟ أ حى ابنى أم قد أكلته الدواب؟ و نسيت ما كان اللّه وعدها فيه، فَبَصُرَتْ بِهِ أخته عَنْ جُنُبٍ وَ هُمْ لا يَشْعُرُونَ، و الجنب أن يسمو بصر الإنسان إلى شىء بعيد و هو إلى جنبه لا يشعر به، فقالت من الفرح حين أعياهم الظؤرات: هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلى أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَ هُمْ لَهُ ناصِحُونَ (۱۲)، فقالوا: ما يدريك ما نصحهم؟ هل يعرفونه، حتى شكوا فى ذلك، و ذلك من الفتون يا ابن جبير، فقالت: نصحهم له، و شفقتهم عليه، و رغبتهم فى صهو الملك، و رجاء منفعة الملك، فأرسلوها، فانطلقت إلى أمها، فأخبرتها الخبر، فجاءت أمه، فلما وضعته فى حجرها نزا إلى ثديها فمصه، حتى امتلأ جنباه ريا، و انطلق البشير إلى امرأة فرعون يبشرها أن قد وجدنا لابنك ظئرا، فأرسلت إليها، فأتت بها و به، فلما رأت ما يصنع بها، قالت: امكثى ترضعى ابنى الآثار و التاريخ، ص: ۱۶۸ هذا، فإنى لم أحب شيئا حبه قط، قالت أم موسى: لا أستطيع أن أترك بيتى و ولدى فيضيع، فإن طابت نفسك أن تعطينيه، فأذهب به إلى بيتى، فيكون معى، لا آلوه خيرا، فعلت، فإنى غير تاركة بيتى و ولدى، و ذكرت أم موسى ما كان اللّه وعدها، فتعاسرت على امرأة فرعون، و أيقنت أن اللّه منجز موعوده، فرجعت إلى بيتها من يومها، و أنبته اللّه نباتا حسنا، و حفظ لما قد قضى فيه، فلم يزل بنو إسرائيل و هم فى ناحية القرية ممتنعين من السخرة و الظلم ما كان فيهم، فلما ترعرع، قالت امرأة فرعون لأم موسى: أرينى ابنى، فوعدتها يوما تريها إياه فيه، و قالت امرأة فرعون لخازنها و ظئورها و قهارمتها: لا يبقين أحد منكم إلا استقبل ابنى اليوم بهدية و كرامة، لأرى ذلك فيه، و أنا باعثة أمينا يحصى كل ما يصنع كل إنسان منكم، فلم تزل الهدايا و الكرامة و النحل تستقبله من حين خرج من بيت أمه إلى أن دخل على امرأة فرعون، فلما دخل عليها نحلته و أكرمته، فرحت به، و نحلت أمه بحسن أثرها عليه، ثم قالت: لآتين به فرعون فلينحلنه و ليكرمنه، فلما دخلت به عليه، جعله فى حجره، فتناول موسى لحية فرعون فمدها إلى الأرض، فقال الغواة من أعداء اللّه لفرعون: أ لا ترى ما وعد اللّه إبراهيم نبيه أنه زعم أنه يرثك و يعلوك و يصرعك؟ فأرسل إلى الذباحين ليذبحوه، و ذلك من الفتون يا ابن جبير بعد كل بلاء ابتلى به و أريد به، فجاءت امرأة فرعون تسعى إلى فرعون، فقالت: ما بدا لك فى هذا الغلام الذى و هبته لى؟ فقال: أ لا ترينه يزعم أنه يصرعنى و يعلونى؟ فقالت: اجعل بينى و بينك أمرا تعرف فيه الحق، ائت بجمرتين و لؤلؤتين فقربهن إليه، فإن بطش باللؤلؤتين و اجتنب الجمرتين عرفت أنه يعقل، و إن تناول الجمرتين و لم يرد اللؤلؤتين، علمت أن أحدا لا يؤثر الجمرتين على اللؤلؤتين و هو يعقل، فقرب إليه، فتناول الجمرتين، فانتزعهما منه مخافة أن يحرقا يده، فقالت المرأة: أ لا ترى؟ فصرفه اللّه عنه بعد ما كان هم به، و كان اللّه بالغا فيه أمره، فلما بلغ أشده و كان من الرجال، لم يكن أحد من آل فرعون يخلص إلى أحد من بنى إسرائيل معه بظلم و لا سخرة، حتى امتنعوا كل الامتناع، فبينما موسى عليه السلام يمشى فى ناحية المدينة إذا هو برجلين يقتتلان، أحدهما فرعونى، و الآخر إسرائيلى، الآثار و التاريخ، ص: ۱۶۹ فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى، فغضب موسى غضبا شديدا لأنه تناوله و هو يعلم منزلته من بنى إسرائيل، و حفظه لهم ما لم يطلع عليه غيره، فوكز موسى الفرعونى فقتله، و ليس يراهما أحد إلا اللّه عز و جل و الإسرائيلى، فقال موسى حين قتل الرجل: هذا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطانِ

إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ثم قال: قالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (١۶) قالَ رَبِّ بِما أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيراً لِلْمُجْرِمِينَ (١٧) فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قالَ لَهُ مُوسى إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ (١٨)، (القصص) ... الأخبار، فأتى فرعون، فقيل له: إن بنى إسرائيل قتلوا رجلا من آل فرعون، فخذ لنا بحقنا، و لا ترخص لهم، فقال: ابغونى قاتله من يشهد عليه، فإن الملك و إن كان صفوة مع قومه لا ينبغى له أن يقتل بغير بينة و لا ثبت، فاطلبوا لى علم ذلك آخذ لكم بحقكم، فبينما هم يطوفون لا يجدون بينة، إذا موسى من الغد قد رأى ذلك الإسرائيلى يقاتل رجلا من آل فرعون آخر، فاستغاثه الإسرائيلى على الفرعونى، فصادف موسى قد ندم على ما كان منه، و كره الذى رأى، فغضب الإسرائيلى و هو يريد أن يبطش بالفرعونى، فقال للإسرائيلى لما فعل بالأمس و اليوم: إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ فنظر الإسرائيلى إلى موسى بعد ما قال له ما قال، فإذا هو غضبان كغضبه بالأمس الذى قتل فيه الفرعونى، فخاف أن يكون بعد ما قال له: إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ أن يكون إياه أراده، و لم يكن أراده إنما أراد الفرعونى، فخاف الإسرائيلى، و قال لموسى: أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ، و إنما قال له مخافة أن يكون إياه أراد موسى ليقتله فتتاركا، و انطلق الفرعونى فأخبرهم بما سمع من الإسرائيلى من الخبر حين يقول: أَ تُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَما قَتَلْتَ نَفْساً بِالْأَمْسِ، فأرسل فرعون الذباحين ليقتلوا موسى، فأخذ رسل فرعون الطريق الأعظم يمشون على هينتهم يطلبون موسى و هم لا يخافون أن يفوتهم، فجاء رجل من شيعة موسى من أقصى المدينة فاختصر طريقا حتى سبقهم إلى موسى فأخبره، و ذلك من الفتون يا ابن جبير، فخرج موسى متوجها نحو مدين لم يلق بلاء قبل ذلك، الآثار و التاريخ، ص: ١٧٠ و ليس له بالطريق علم إلا حسن ظنه بربه عز و جل، فإنه قال: عَسى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَواءَ السَّبِيلِ (٢٢) وَ لَمَّا وَرَدَ ماءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودانِ يعنى بذلك حابستين غنمهما، فقال لهما: ما خَطْبُكُما معتزلتين لا تسقيان مع الناس؟ قالتا: ليس لنا قوة تزاحم القوم، و إنما ننتظر فضول حياضهم، فسقى لهما، فجعل يغرف من الدلو ماء كثيرا حتى كان أول الرعاء، و انصرفتا بغنمهما إلى أبيهما، و انصرف موسى فاستظل بشجرة فَقالَ رَبِّ إِنِّي لِما أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ (٢۴)، و استنكر أبوهما سرعة صدورهما بغنمهما حفلا بطانا، فقال: إن لكما اليوم لشأنا، فأخبرتاه بما صنع موسى، فأمر إحداهما أن تدعوه، فأتت موسى فدعته فلما كلمه قالَ لا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢۵)، ليس لفرعون و لا لقومه علينا من سلطان، و لسنا فى مملكته ف قالَتْ إِحْداهُما يا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ (٢۶) فاحتملته الغيرة على أن قال لها: ما يدريك ما قوته؟ و ما أمانته؟ فقالت: أما قوته: فما رأيت منه فى الدلو حين سقى لنا، لم أر رجلا قط أقوى فى ذلك السقى منه، و أما الأمانة: فإنه نظر إلى حين أقبلت إليه و شخصت له، فلما علم إنى امرأة صوب رأسه فلم يرفعه حتى بلغته رسالتك، ثم قال لى: امشى خلفى، و انعتى لى الطريق، فلم يفعل هذا إلا و هو أمين، فسرى عن أبيها، و صدقها، و ظن به الذى قالت، فقال له: هل لك إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هاتَيْنِ عَلى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْراً فَمِنْ عِنْدِكَ وَ ما أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٢٧) ففعل، فكانت على نبى اللّه موسى ثمان سنين واجبة، و كانت السنتان عدة منه، فقضى اللّه عنه عدته فأتمها عشرا- قال سعيد، هو ابن جبير فلقينى: رجل من أهل النصرانية من علمائهم، قال: هل تدرى أى الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا، و أنا يومئذ لا أدرى، فلقيت ابن عباس، فذكرت ذلك له، فقال: أما علمت أن ثمانية كانت على نبى اللّه واجبة لم يكن نبى اللّه لينقص منها شيئا، و تعلم أن اللّه كان قاضيا عن موسى عدته الآثار و التاريخ، ص: ١٧١ التى وعده، فإنه قضى عشر سنين، فلقيت النصرانى، فأخبرته ذلك، فقال: الذى سألته فأخبرك أعلم منك بذلك؟ قلت: أجل، و أولى- فلما سار موسى بأهله كان من أمر النار و العصى و يده ما قص اللّه عليك فى القرآن، فشكا إلى اللّه تعالى ما يتخوف من آل فرعون فى القتيل و عقدة لسانه، فإنه كان فى لسانه عقدة تمنعه من كثير من الكلام، و سأل ربه أن يعينه بأخيه هارون و يكون له ردءا و يتكلم عنه بكثير مما لا يفصح به لسانه، فآتاه اللّه عز و جل و حل عقدة من لسانه، و أوحى اللّه إلى هارون فأمره أن يلقاه، فاندفع موسى بعصاه حتى لقى هارون، فانطلقا جميعا إلى فرعون، فأقاما على بابه حينا لا يؤذن لهما، ثم أذن لهما بعد حجاب شديد، فقالا: إِنَّا رَسُولا رَبِّكَ، فقال: فَمَنْ رَبُّكُما؟ فأخبره بالذى قص اللّه عليك فى القرآن، قال: فما تريدان؟ و ذكره القتيل، فاعتذر

بما قد سمعت، قال: أريد أن تؤمن باللّه، و ترسل معى بنى إسرائيل، فأبى عليه، و قال ":ائت بآية إن كنت من الصادقين، "فألقى عصاه، فإذا هى ثعبان عظيمة فاغرة فاها، مسرعة إلى فرعون، فلما رآها فرعون قاصدة إليه خافها، و اقتحم عن سريره، و استغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل ثم أخرج يده من جيبه فرآها بيضاء من غير سوء، يعنى من غير برص ثم ردها فعادت إلى لونها الأول فاستشار الملأ حوله فيما رأى فقالوا له: هذانِ لَساحِرانِ يُرِيدانِ أَنْ يُخْرِجاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِما وَ يَذْهَبا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلى (۶۳) يعنى ملكهم الذى هم فيه و العيش، و أبوا على موسى أن يعطوه شيئا مما طلب، و قالوا له: اجمع السحرة فإنهم بأرضك كثير، حتى تغلب بسحرك سحرهما، فأرسل إلى المدائن، فحشر له كل ساحر متعالم، فلما أتوا فرعون قالوا بم يعمل السحر؟ قالوا: يعمل بالحيات، قالوا: فلا و اللّه ما أحد من الأرض يعمل السحر بالحيات، و الحبال و العصى الذى نعمل، و ما أجرنا إن نحن غلبنا؟ قال لهم: أنتم أقاربى و خاصتى، و أنا صانع إليكم كل شيء أحببتم، فتواعدوا يَوْمُ الزِّينَةِ وَ أَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (۵۹) قال سعيد: فحدثنى ابن عباس: أن يوم الزينة: اليوم الذى أظهر اللّه فيه موسى على فرعون و السحرة، هو يوم عاشوراء، فلما اجتمعوا فى صعيد، قال الناس بعضهم لبعض: انطلقوا فلنحضر هذا الأمر، لَعَلَّنا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كانُوا هُمُ الآثار و التاريخ، ص: ۱۷۲ الْغالِبِينَ (۴۰)، يعنون موسى و هارون استهزاء بهما، فقالوا: يا موسى، بعد تريثهم بسحرهم: إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَ إِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (۱۱۵) قال: بل ألقوا، فألقوا حبالهم و عصيهم، و قالوا: بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون، فرأى موسى من سحرهم ما أوجس فى نفسه، خيفة فأوحى اللّه إليه: أَنْ أَلْقِ عَصاكَ، فلما ألقاها صارت ثعبانا عظيمة فاغرة فاها، فجعلت العصى تلتبس بالحبال حتى صارت جرزا على الثعبان أن تدخل فيه، حتى ما أبقت عصا و لا حبلا إلا ابتلعته، فلما عرف السحرة ذلك، قالوا: لو كان هذا سحرا لم تبلغ من سحرنا كل هذا، و لكنه أمر من اللّه تعالى آمنا باللّه و بما جاء به موسى، و نتوب إلى اللّه مما كنا عليه، فكسر اللّه ظهر فرعون فى ذلك الموطن و أشياعه، و ظهر الحق وَ بَطَلَ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۱۸) فَغُلِبُوا هُنالِكَ وَ انْقَلَبُوا صاغِرِينَ (۱۱۹)، و امرأة فرعون بارزة مبتذلة تدعوا للّه بالنصر لموسى على فرعون و أشياعه، فمن رآها من آل فرعون ظن أنها إنما ابتذلت للشفقة على فرعون و أشياعه، و إنما كان حزنها و همها لموسى، فلما طال مكث موسى بمواعيد فرعون الكاذبة، كلما جاء بآية وعده عندها أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا مضت أخلف من غده، و قال: هل يستطيع ربك أن يصنع غير هذا؟ فأرسل اللّه على قومه الطوفان و الجراد و القمل و الضفادع و الدم آيات مفصلات، كل ذلك يشكو إلى موسى، و يطلب إليه أن يكفها عنه، و يوافقه على أن يرسل معه بنى إسرائيل، فإذا كف ذلك عنه أخلف بوعده و نكث عهده، حتى أمر موسى بالخروج بقومه، فخرج بهم ليلا، فلما أصبح فرعون و رأى أنهم قد مضوا، أرسل فى المدائن حاشرين، فتبعه بجنود عظيمة كثيرة، و أوحى اللّه إلى البحر: إذا ضربك موسى عبدى بعصاه فانفلق اثنتى عشرة فرقة، حتى يجوز موسى و من معه، ثم التقى على من بقى بعد من فرعون و أشياعه، فنسى موسى أن يضرب البحر بالعصى، و انتهى إلى البحر و له قصيف، مخافة أن يضربه موسى بعصاه و هو غافل، فيصير عاصيا للّه عز و جل فَلَمَّا تَراءَا الْجَمْعانِ و تقاربا قالَ أَصْحابُ مُوسى إِنَّا لَمُدْرَكُونَ (۶۱) افعل ما أمرك به ربك، فإنه لم يكذب، و لم تكذب، قال: وعدنى ربى إذا أتيت البحر انفرق اثنتى عشرة فرقة حتى أجاوزه، ثم ذكر بعد ذلك العصى، فضرب الآثار و التاريخ، ص: ۱۷۳ البحر بعصاه حين دنا اوائل جند فرعون من أواخر جند موسى، فانفرق البحر كما أمره ربه، و كما وعد موسى، فلما جاوز موسى و أصحابه كلهم البحر، و دخل فرعون و أصحابه التقى عليهم البحر كما أمر، فلما جاوز موسى قال أصحابه: إنا نخاف أن لا يكون فرعون غرق، و لا نؤمن بهلاكه، فدعا ربه، فأخرجه له ببدنه حتى استيقنوا بهلاكه، ثم مروا بعد ذلك على قوم يعكفون على أصنام لهم قالُوا يا مُوسَى اجْعَلْ لَنا إِلهاً كَما لَهُمْ آلِهَةٌ قالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ (۱۳۸) إِنَّ هؤُلاءِ مُتَبَّرٌ ما هُمْ فِيهِ وَ باطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (۱۳۹) قد رأيتم من العبر و سمعتم ما يكفيكم، و مضى فأنزلهم موسى منزلا، و قال: أطيعوا هارون فإن اللّه قد استخلفه عليكم، فإنى ذاهب إلى ربى، و أجلهم ثلاثين يوما أن يرجع إليهم فيها، فلما أتى ربه عز و جل و أراد أن يكلمه فى ثلاثين يوما، و قد صامهن ليلهن و نهارهن و كره أن يكلم ربه و ريح فيه ريح فم الصائم، فتناول موسى شيئا من نبات الأرض فمضغه، فقال له ربه حين أتاه: لم أفطرت، و هو أعلم بالذى كان، قال: يا رب، إنى كرهت أن أكلمك إلا و فمى طيب الريح، قال: أ و ما علمت يا

موسی أن ریح فم الصائم أطیب من ریح المسک، ارجع فصم عشرا ثم ائتنی، ففعل موسی ما أمره به ربه، فلما رأی قوم موسی أنه لم یرجع إلیهم فی الأجل ساءهم ذلک، و کان هارون قد خطبهم، فقال: إنکم خرجتم من مصر و لقوم فرعون عندکم عواری و ودائع، و لکم فیها مثل ذلک، و أنا أری أن تحتسبوا مالکم عندهم، و لا أحل لکم ودیعة استودعتموها و لا عاریة، و لسنا برادین إلیهم شیئا من ذلک و لا ممسکیه لأنفسنا، فحفر حفیرا، و أمر کل قوم عندهم من ذلک متاع أو حلیة أن یقذفوه فی ذلک الحفیر، ثم أوقد علیه النار فأحرقه، فقال: لا یکون لنا و لا لهم، و کان السامری من قوم یعبدون البقر جیران لبنی إسرائیل، و لم یکن من بنی إسرائیل، فاحتمل مع موسی و بنی إسرائیل حین احتملوا، فقضی له أن رأی أثرا، فقبض منه قبضة، فمر بهارون، فقال له هارون: یا سامری، إلا تلقی ما فی یدیک، و هو قابض علیه لا یراه أحد طوال ذلک، فقال: هذه قبضة من أثر الرسول الذی جاوز بکم البحر، و لا ألقیها لشیء إلا أن تدعو اللّه إذا ألقیتها أن یکون ما أرید، فألقاها، و دعا له هارون، فقال: أرید أن تکون عجلا، الآثار و التاریخ، ص: ۱۷۴ فاجتمع ما کان فی الحفرة من متاع أو حلیة أو نحاس أو حدید فصار عجلا أجوف، لیس فیه روح، له خوار. قال ابن عباس: لا و اللّه ما کان فیه صوت قط، إنما کانت الریح تدخل من دبره و تخرج من فیه، فکان ذلک الصوت من ذلک، فتفرق بنو إسرائیل فرقا، فقالت فرقة: یا سامری، ما هذا و أنت أعلم به؟ قال: هذا ربکم، و لکن موسی أضل الطریق، و قالت فرقة: لا نکذب بهذا حتی یرجع إلینا موسی، فإن کان ربنا لم نکن ضیعناه و عجزنا فیه حتی رأیناه، و إن لم یکن ربنا فإنا نتبع قول موسی، و قالت فرقة: هذا من عمل الشیطان، و لیس بربنا، و لا نؤمن به و لا نصدق، و أشرب فرقة فی قلوبهم الصدق بما قال السامری فی العجل، و أعلنوا التکذیب به، فقال لهم هارون علیه السلام: یا قوم، إنما فتنتم به، و إن ربکم الرحمن، لیس هذا، قالوا: فما بال موسی وعدنا ثلاثین یوما ثم أخلفنا، هذه أربعون یوما قد مضت؟ قال سفهاؤهم: أخطأ ربه فهو یطلبه و یبتغیه، فلما کلم اللّه موسی، و قال له ما قال، أخبره بما لقی قومه من بعده، فرجع إلی قومه غضبان أسفا، فقال لهم ما سمعتم ما فی القرآن وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِیهِ یَجُرُّهُ إِلَیْهِ و ألقی الألواح من الغضب، ثم إنه عذر أخاه بعذره، و استغفر له، فانصرف إلی السامری فقال له: ما حملک علی ما صنعت؟ قال: قبضت قبضة من أثر الرسول، و فطنت لها و عمیت علیکم فقذفتها قالَ بَصُرْتُ بِما لَمْ یَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُها وَ کَذلِکَ سَوَّلَتْ لِی نَفْسِی (۹۶) قالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَکَ فِی الْحَیاةِ أَنْ تَقُولَ لا مِساسَ وَ إِنَّ لَکَ مَوْعِداً لَنْ تُخْلَفَهُ وَ انْظُرْ إِلی إِلهِکَ الَّذِی ظَلْتَ عَلَیْهِ عاکِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِی الْیَمِّ نَسْفاً (۹۷)، (طه). و لو کان إلها لم یخلص إلی ذلک منه، فاستیقن بنو إسرائیل بالفتنة، و اغتبط الذین کان رأیهم فیه مثل رأی هارون، فقالوا لجماعتهم: یا موسی، سل لنا أن یفتح لنا باب توبة نصنعها فتکفر عنا ما عملنا، فاختار موسی قومه سبعین رجلا لذلک، لا یألوا الخیر، خیار بنی إسرائیل، و من لم یشرک فی الحق، فانطلق بهم یسأل لهم التوبة، فرجفت بهم الأرض، فاستحیا نبی اللّه علیه السلام من قومه و من وفده حین فعل بهم ما فعل، فقال: لَوْ شِئْتَ أَهْلَکْتَهُمْ مِنْ الآثار و التاریخ، ص: ۱۷۵ قَبْلُ وَ إِیَّایَ أَ تُهْلِکُنا بِما فَعَلَ السُّفَهاءُ مِنَّا و فیهم من کان اللّه اطلع منه علی ما أشرب قلبه من حب العجل و إیمان به، فلذلک رجفت بهم الأرض، فقال:* وَ اکْتُبْ لَنا فِی هذِهِ الدُّنْیا حَسَنَةً وَ فِی الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنا إِلَیْکَ قالَ عَذابِی أُصِیبُ بِهِ مَنْ أَشاءُ وَ رَحْمَتِی وَسِعَتْ کُلَّ شَیْءٍ فَسَأَکْتُبُها لِلَّذِینَ یَتَّقُونَ وَ یُؤْتُونَ الزَّکاةَ وَ الَّذِینَ هُمْ بِآیاتِنا یُؤْمِنُونَ (۱۵۶) الَّذِینَ یَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِیَّ الْأُمِّیَّ الَّذِی یَجِدُونَهُ مَکْتُوباً عِنْدَهُمْ فِی التَّوْراةِ وَ الْإِنْجِیلِ یَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ یَنْهاهُمْ عَنِ الْمُنْکَرِ وَ یُحِلُّ لَهُمُ الطَّیِّباتِ وَ یُحَرِّمُ عَلَیْهِمُ الْخَبائِثَ وَ یَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلالَ الَّتِی کانَتْ عَلَیْهِمْ فَالَّذِینَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّرُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِی أُنْزِلَ مَعَهُ أُولئِکَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (۱۵۷)، (الأعراف). فقال: یا رب، سألتک التوبة لقومی، فقلت: إن رحمتی کتبتها لقوم غیر قومی، فلیتک أخرتنی حتی تخرجنی فی أمة ذلک الرجل المرحوم، فقال له: إن توبتهم أن یقتل کل رجل من لقی من والد و ولد، فیقتله بالسیف لا یبالی من قتل فی ذلک الموطن، و تاب أولئک الذین کان خفی علی موسی و هارون، و اطلع اللّه من ذنوبهم فاعترفوا بها، و فعلوا ما أمروا، و غفر اللّه للقاتل و المقتول، ثم سار بهم موسی علیه السلام متوجها نحو الأرض المقدسة، و أخذ الألواح بعد ما سکت عنه الغضب، فأمرهم بالذی أمر به من الوظائف، فثقل ذلک علیهم، و أبوا أن یقروا بها و نتق اللّه علیهم الجبل کأنه ظلة، و دنا منهم، حتی خافوا أن یقع علیهم، و أخذوا الکتاب بأیمانهم و هم مصغون ینظرون إلی الجبل و

الكتاب بأيديهم، و هم من وراء الجبل مخافة أن يقع عليهم، ثم مضوا حتى أتوا الأرض المقدسة، فوجدوا مدينة فيها قوم جبارون، خلقهم خلق منكر، و ذكر من ثمارهم أمرا عجبا من عظمها، فقالوا: يا موسى، إن فيها قوما جبارين لا طاقة لنا بهم، و لا ندخلها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون- قيل ليزيد: هكذا قرأه؟ قال: نعم من الجبارين- آمنا بموسى و خرجنا إليه، فقالوا: نحن أعلم بقومنا إن كنتم إنما تخافون ما رأيتم من أجسامهم و عددهم فإنهم لا قلوب لهم و لا منعة عندهم، فادخلوا عليهم الباب، فإذا الآثار و التاريخ، ص: ۱۷۶ دخلتموه فإنكم غالبون، و يقول أناس: إنهم من قوم موسى، فقال الذين يخافون من بنى إسرائيل قالُوا يا مُوسى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَها أَبَداً ما دامُوا فِيها فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ (۲۴) فأغضبوا موسى، فدعا عليهم، و سماهم: فاسقين، و لم يدع عليهم قبل ذلك لما رأى منهم من المعصية و إساءتهم، حتى كان يومئذ فاستجاب اللّه له، و سماهم كما سماهم: فاسقين، فحرمها عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض، يصبحون كل يوم فيسيرون ليس لهم قرار، ثم ظلل عليهم الغمام فى التيه، و أنزل عليهم المن و السلوى، و جعل لهم ثيابا لا- تبلى و لا تتسخ، و جعل بين ظهرانيهم حجرا مربعا، و أمر موسى فضربه بعصاه، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا، فى كل ناحية ثلاثة أعين، و أعلم كل سبط عينهم التى يشربون منها، فلا يرتحلون من محلة إلا وجدوا ذلك الحجر بالمكان الذى كان فيه بالأمس. رفع ابن عباس هذا الحديث إلى النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و صدق ذلك عندى: أن معاوية سمع من ابن عباس هذا الحديث، فأنكر عليه أن يكون الفرعونى الذى أفشى على موسى أمر القتيل الذى قتل، فقال: كيف يفشى عليه و لم يكن علم به، و لا ظهر عليه إلا الإسرائيلى الذى حضر ذلك، فغضب ابن عباس، فأخذ بيد معاوية، فانطلق به إلى سعد بن مالك الزهرى، فقال له: يا أبا إسحاق، هل تذكر يوم حدثنا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم عن قتيل موسى الذى قتل من آل فرعون، الإسرائيلى الذى أفشى عليه أم الفرعونى؟ قال: إنما أفشى عليه الفرعونى بما سمع الإسرائيلى الذى شهد ذلك و حضره. هكذا ساق هذا الحديث الإمام النسائى، و أخرجه ابن جرير و ابن أبى حاتم فى تفسيرهما من حديث يزيد بن هارون، و الأشبه، و اللّه أعلم، أنه موقوف، و كونه مرفوعا فيه نظر، و غالبه متلقى من الإسرائيليات، و فيه شيء يسير مصرح برفعه فى أثناء الكلام، و فى بعض ما فيه نظر و نكارة، و الأغلب أنه كلام كعب الأحبار، و قد سمعت شيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول ذلك، و اللّه أعلم.

بناء قبة الزمان

بناء قبة الزمان قال أهل الكتاب: و قد أمر اللّه موسى عليه السلام بعمل قبة من خشب الشمشاذ و جلود الانعام و شعر الأغنام، و أمر بزينتها بالحرير المصبغ و الذهب و الفضة، على كيفيات مفصلة عند أهل الكتاب، و لها عشر سرادقات، طول كل واحد ثمانية و عشرون ذراعا، و عرضه أربعة أذرع، و لها أربعة أبواب، و أطناب من حرير و دمقس مصبغ، و فيها رفوف و صفائح من ذهب و فضة، و لكل زاوية بابان، و أبواب أخر كبيرة، و ستور من حرير مصبغ، و غير ذلك مما يطول ذكره. و بعمل تابوت من خشب الشمشار يكون طوله ذراعين و نصفا، و عرضه ذراعين، و ارتفاعه ذراعا و نصفا، و يكون مضببا بذهب خالص من داخله و خارجه، و له أربع حلق فى أربع زواياه، و يكون على حافتيه كروبيان من ذهب- يعنون صفة ملكين بأجنحة، و هما متقابلان، صفة رجل اسمه بصليال- و أمراه أن يعمل مائدة من خشب الشمشار، طولها ذراعا، و عرضها ذراع و نصف، لها ضباب ذهب، و إكليل ذهب بشفة مرتفعة بإكليل من ذهب، و أربع حلق من نواحيها من ذهب، معذرة فى مثل الرمان، من خشب ملبس ذهبا و اعمل صحافا، و مصافى و قصاعا على المائدة، و اصنع منارة من الذهب، دلى فيها ست قصبات من ذهب من كل جانب ثلاثة، على كل قصبة ثلاث سرج، و ليكن فى المنارة أربع قناديل، و لتكن هى و جميع هذه الآنية من قنطار من ذهب، صنع ذلك بصليال أيضا، و هو الذى عمل المذبح أيضا، و نصب هذه القبة أول يوم من سنتهم، و هو أول يوم من الربيع، و نصب تابوت الشهادة و هو، و اللّه أعلم، المذكور فى قوله تعالى: إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَ بَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسى وَ آلُ هارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلائِكَةُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ

كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (۲۴۸) و قد بسط هذا الفصل فی كتابهم مطولا جدا، و فيه شرائع لهم و أحكام، و صفة قربانهم و كيفيته، و فيه: أن قبة الزمان كانت موجودة قبل عبادتهم العجل، الذی هو متقدم علی مجیء بيت المقدس، و أنها كانت لهم كالكعبة يصلون فيها و إليها و يتقربون عندها، و أن موسی عليه السلام كان إذا دخلها يقفون عندها، و ينزل عمود الغمام علی بابها، فيخرون عند ذلك سجدا للّه عز و جل، و يكلم الآثار و التاريخ، ص: ۱۷۸ اللّه موسی عليه السلام من ذلك العمود الغمام الذی هو نور، و يخاطبه و يناجيه و يأمره و ينهاه، و هو واقف عند التابوت صامد إلی ما بين الكروبيين، فإذا فصل الخطاب يخبر بنی إسرائيل بما أوحاه اللّه عز و جل إليه من الأوامر و النواهی، و إذا تحاكموا إليه فی شیء ليس عنده من اللّه فيه شیء يجیء إلی قبة الزمان و يقف عند التابوت و يصمد لما بين ذينك الكروبيين، فيأتيه الخطاب بما فيه فصل تلك الحكومة، و قد كان هذا مشروعا لهم فی زمانهم، أعنی استعمال الذهب و الحرير المصبغ و اللئالئ فی معبدهم و عند مصلاهم، فأما فی شريعتنا فلا، بل قد نهينا عن زخرفة المساجد و تزيينها لئلا تشغل المصلين، كما قال عمر بن الخطاب رضی اللّه عنه لما وسع فی مسجد رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم للذی و كله علی عمارته: ابن للناس ما يكنهم، و إياك أن تحمر أو تصفر فتفتن الناس. و قال ابن عباس: لتزخرفنها كما زخرفت اليهود و النصاری كنائسهم. و هذا من باب التشريف و التكريم و التنزيه، فهذه الأمة غير مشابهة من كان قبلهم من الأمم، إذ جمع اللّه هممهم فی صلاتهم علی التوجه إليه و الإقبال عليه، و صان أبصارهم و خواطرهم عن الاشتغال و التفكر فی غير ما هم بصدده من العبادة العظيمة، فللّه الحمد و المنة. و قد كانت قبة الزمان هذه مع بنی إسرائيل فی التيه يصلون إليها، و هی قبلتهم و كعبتهم، و إمامهم كليم اللّه موسی عليه السلام، و مقدم القربان أخوه هارون عليه السلام، فلما مات هارون ثم موسی عليهما السلام استمرت بنو هارون فی الذی كان يليه أبوهم من أمر القربان، و هو فيهم إلی الآن، و قام بأعباء النبوة بعد موسی و تدبير الأمر بعده، فتاه يوشع بن نون عليه السلام، و هو الذی دخل بهم بيت المقدس، كما سيأتی بيانه، و المقصود هنا: أنه لما استقرت يده علی البيت المقدس نصب هذه القبة علی صخرة بيت المقدس، فكانوا يصلون إليها، فلما بادت صلوا إلی محلتها و هی الصخرة، فلهذا كانت قبلة الأنبياء بعده إلی زمان رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم، و قد صلی إليها رسول اللّه صلّی اللّه عليه و سلم قبل الهجرة، و كان يجعل الكعبة بين يديه، فلما هاجر أمر بالصلاة إلی بيت المقدس، فصلی إليها ستة عشر، و قيل: سبعة عشر شهرا، ثم حولت القبلة إلی الكعبة، و هی قبلة إبراهيم فی شعبان سنة ثنتين فی وقت صلاة العصر، و قيل: الظهر، كما بسطنا ذلك فی التفسير عند قوله تعالی:* سَيَقُولُ السُّفَهاءُ مِنَ النَّاسِ ما وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِی الآثار و التاريخ، ص: ۱۷۹ كانُوا عَلَيْها إلی قوله: قَدْ نَری تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِی السَّماءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضاها فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ الآيات.

قصة قارون مع موسی عليه السلام

قصة قارون مع موسی عليه السلام قال اللّه تعالی فی سورة القصص:* إِنَّ قارُونَ كانَ مِنْ قَوْمِ مُوسی فَبَغی عَلَيْهِمْ وَ آتَيْناهُ مِنَ الْكُنُوزِ ما إِنَّ مَفاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِی الْقُوَّةِ إِذْ قالَ لَهُ قَوْمُهُ لا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (۷۶) وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِی الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ (۷۷) قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلی عِلْمٍ عِنْدِی أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ (۷۸) فَخَرَجَ عَلی قَوْمِهِ فِی زِينَتِهِ قالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَياةَ الدُّنْيا يا لَيْتَ لَنا مِثْلَ ما أُوتِیَ قارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (۷۹) وَ قالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً وَ لا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ (۸۰) فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (۸۱) وَ أَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَ يَقْدِرُ لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (۸۲) تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُها لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِی الْأَرْضِ وَ لا فَساداً وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (۸۳). قال الأعمش عن المنهال بن عمرو بن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: كان قارون ابن عم موسی، و كذا قال إبراهيم النخعی و عبد اللّه بن الحرث بن نوفل و سماك ابن حرب و قتادة و مالك بن دينار و ابن جريج، و زاد فقال: هو قارون

بن يصهر بن قاهث. و موسى بن عمران بن هافث، قال ابن جريح: و هذا قول أكثر أهل العلم أنه كان ابن عم موسى، ورد قول ابن إسحاق: إنه كان عم موسى. قال قتادة: و كان يسمى النور، لحسن صوته بالتوراة، و لكن عدو اللّه نافق كما نافق السامرى، فأهلكه البغى لكثرة ماله. و قال شهر الآثار و التاريخ، ص: ۱۸۰ ابن حوشب: زاد فى ثيابه شبرا طولا ترفعا على قومه. و قد ذكر اللّه تعالى كثرة كنوزه، حتى أن مفاتيحه كان يثقل حملها على المئات من الرجال الشداد، و قد قيل: إنها كانت من الجلود، و إنها كانت تحمل على ستين بغلا، فاللّه أعلم. و قد وعظه النصحاء من قومه قائلين: لا تَفْرَحْ أى لا تبطر، بما أعطيت و تفخر على غيرك إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (۷۶) وَ ابْتَغِ فِيما آتاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ يقولون: لتكن همتك مصروفة لتحصيل ثواب اللّه فى الدار الآخرة، فإنه خير و أبقى، و مع هذا: وَ لا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيا أى و تناول منها بمالك ما أحل اللّه لك، فتمتع لنفسك بالملاذ الطيبة الحلال وَ أَحْسِنْ كَما أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ أى و أحسن إلى خلق اللّه كما أحسن اللّه خالقهم و بارئهم إليك وَ لا تَبْغِ الْفَسادَ فِي الْأَرْضِ أى و لا تسىء إليهم، و لا تفسد فيهم، فتقابلهم ضد ما أمرت فيهم، فيعاقبك و يسلبك ما وهبك إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ فما كان جواب قومه لهذه النصيحة الصحيحة الفصيحة إلا أن قالَ إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي يعنى أنا لا أحتاج إلى استعمال ما ذكرتم، و لا إلى ما إليه أشرتم، فإن اللّه إنما أعطانى هذا لعلمه أنى أستحقه، و أنى أهل له، و لو لا أنى حبيب إليه و حظى عنده لما أعطانى ما أعطانى، قال اللّه تعالى ردا عليه و ما ذهب إليه: أَ وَ لَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَ أَكْثَرُ جَمْعاً وَ لا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ أى قد أهلكنا من الأمم الماضين بذنوبهم و خطاياهم من هو أشد من قارون قوة و أكثر أموالا و أولادا، فلو كان ما قال صحيحا، لم نعاقب أحدا ممن كان أكثر مالا منه، و لم يكن ماله دليلا على محبتنا له و اعتنائنا به، كما قال تعالى: وَ ما أَمْوالُكُمْ وَ لا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنا زُلْفى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً، و قال تعالى: أَ يَحْسَبُونَ أَنَّما نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مالٍ وَ بَنِينَ (۵۵) نُسارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْراتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ (۵۶) و هذا الرد عليه يدل على صحة ما ذهبنا إليه من معنى قوله: إِنَّما أُوتِيتُهُ عَلى عِلْمٍ عِنْدِي و أما من زعم أن المراد من ذلك أنه كان يعرف صنعة الكيمياء، أو أنه كان يحفظ الاسم الأعظم فاستعمله فى جمع الآثار و التاريخ، ص: ۱۸۱ الأموال فليس بصحيح، لأن الكيمياء تخييل و صبغة لا تحيل الحقائق و لا تشابه صنعة الخالق، و الاسم الأعظم لا يصعد الدعاء به من كافر به، و قارون كان كافرا فى الباطن منافقا فى الظاهر، ثم لا يصح جوابه لهم بهذا على هذا التقدير، و لا يبقى بين الكلامين تلازم، و قد وضحنا هذا فى كتابنا التفسير، و للّه الحمد. قال اللّه تعالى: فَخَرَجَ عَلى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ذكر كثير من المفسرين أنه خرج فى تجمل عظيم من ملابس و مراكب و خدم و حشم، فلما رآه من يعظم زهرة الحياة الدنيا تمنوا أن لو كانوا مثله، و غبطوه بما عليه و له، فلما سمع مقالتهم العلماء ذوو الفهم الصحيح الزهاد الألباء، قالوا لهم: وَيْلَكُمْ ثَوابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَ عَمِلَ صالِحاً أى ثواب اللّه فى الدار الآخرة خير و أبقى و أجل و أعلى، قال اللّه تعالى: وَ لا يُلَقَّاها إِلَّا الصَّابِرُونَ أى و ما يلقى هذه النصيحة و هذه المقالة و هذه الهمة السامية إلى الدار الآخرة العلية عند النظر إلى زهرة هذه الدنيا الدنية إلا من هدى اللّه قلبه، و ثبت فؤاده و أيد لبه و حقق مراده، و ما أحسن ما قال بعض السلف: إن اللّه يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، و العقل الكامل عند حلول الشهوات، قال اللّه تعالى: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ (۸۱) لما ذكر تعالى خروجه فى زينته و اختياله فيها و فخره على قومه بها قال: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ كما روى البخارى من حديث الزهرى عن سالم، عن أبيه، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: (بينا رجل يجر إزاره إذ خسف به فهو يتجلجل فى الأرض إلى يوم القيامة). ثم رواه البخارى من حديث جرير بن زيد عن سالم، عن أبى هريرة، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم نحوه. و قد ذكر ابن عباس و السدى: أن قارون أعطى امرأة بغيا مالا على أن تقول لموسى عليه السلام و هو فى ملأ من الناس إنك فعلت بى كذا و كذا، فيقال: إنها قالت له ذلك، فأرعد من الفرق، و صلى ركعتين، ثم أقبل عليها فاستحلفها من ذلك على ذلك، و ما حملك عليه؟ فذكرت أن قارون هو الذى حملها على ذلك، و استغفرت اللّه و تابت إليه، فعند ذلك خر موسى للّه ساجدا، و دعا اللّه على قارون، فأوحى اللّه الآثار و التاريخ، ص: ۱۸۲ إليه أنى قد أمرت الأرض أن تطيعك فيه، فأمر موسى الأرض أن تبتلعه و داره، فكان ذلك، فاللّه أعلم، و قد قيل: إن قارون لما خرج

على قومه فى زينته مر بجحفله و بغاله و ملابسه على مجلس موسى عليه السلام، و هو يذكر قومه بأيام اللّه، فلما رآه الناس انصرفت وجوه كثير من الناس ينظرون إليه، فدعاه موسى عليه السلام، فقال له: ما حملك على هذا؟ فقال: يا موسى، أما لئن كنت فضلت علىّ بالنبوة فلقد فضلت عليك بالمال، و لئن شئت لتخرجن، فلتدعون على و لأدعون عليك، فخرج، و خرج قارون فى قومه، فقال له موسى: تدعو أو أدعو؟ قال: أدعو أنا، فدعى قارون، فلم يجب فى موسى، فقال موسى: أدعو؟ قال: نعم، فقال موسى: اللهم مر الأرض فلتطعنى اليوم، فأوحى اللّه إليه: إنى قد فعلت، فقال موسى: يا أرض خذيهم، فأخذتهم إلى أقدامهم، ثم قال: خذيهم، فأخذتهم إلى ركبهم، ثم إلى مناكبهم، ثم قال: أقبلى بكنوزهم و أموالهم، فأقبلت بها حتى نظروا إليها، ثم أشار موسى بيده فقال: اذهبوا بنى لاوى، فاستوت بهم الأرض. و قد روى عن قتادة أنه قال: يخسف بهم كل يوم قامة إلى يوم القيامة. و عن ابن عباس أنه قال: خسف بهم إلى الأرض السابعة. و قد ذكر كثير من المفسرين هاهنا إسرائيليات كثيرة، أضربنا عنها صفحا، و تركناها قصدا. و قوله تعالى: فَما كانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَ ما كانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ لم يكن له ناصر من نفسه و لا من غيره، كما قال: فَما لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَ لا ناصِرٍ (۱۰) و لما حل به ما حل من الخسف، و ذهاب الأموال، و خراب الدار، و إهلاك النفس و الأهل و العقار، ندم من كان تمنى مثل ما أوتى، و شكروا اللّه تعالى الذى يدبر عباده بما يشاء من حسن التدبير المخزون، و لهذا قالوا: لَوْ لا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا لَخَسَفَ بِنا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكافِرُونَ (۸۲). و قد تكلم أهل العلم عن لفظ: (ويك) فى تفاسيرهم. و قد قال قتادة: ويكأن بمعنى: أ لم تر أن. و هذا قول حسن من حيث المعنى، و اللّه أعلم، ثم أخبر تعالى أن الدَّارُ الْآخِرَةُ و هى دار القرار، و هى الدار التى يغبط من أعطيها، و يعزى من حرمها، إنما هى معدة للذين لا يريدون علوا فى الأرض و لا فسادا، فالعلو هو: التكبر و الفخر و الأشر و البطر، و الفساد هو: عمل المعاصى اللازمة و المتعدية من أخذ أموال الآثار و التاريخ، ص: ۱۸۳ الناس و إفساد معايشهم و الإساءة إليهم، و عدم النصح لهم، ثم قال تعالى: وَ الْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (۸۳) و قصة قارون هذه قد تكون قبل خروجهم من مصر، لقوله: فَخَسَفْنا بِهِ وَ بِدارِهِ الْأَرْضَ فإن الدار ظاهرة فى البنيان، و قد تكون بعد ذلك فى التيه، و تكون الدار عبارة عن المحلة التى تضرب فيها الخيام، كما قال عنترة: يا دارا عبلة بالجواء تكلمى و عمى صباحا دار عبلة و اسلمى و اللّه أعلم. و قد ذكر اللّه تعالى مذمة قارون فى غير ما آية من القرآن قال اللّه: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا وَ سُلْطانٍ مُبِينٍ (۲۳) إِلى فِرْعَوْنَ وَ هامانَ وَ قارُونَ فَقالُوا ساحِرٌ كَذَّابٌ (۲۴)، و قال تعالى فى سورة العنكبوت، بعد ذكر عاد و ثمود و قارون و فرعون و هامان: وَ لَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَ ما كانُوا سابِقِينَ (۳۹) فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِباً وَ مِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَ مِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَ مِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَ ما كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَ لكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (۴۰)، فالذى خسف به الأرض قارون، كما تقدم، و الذى أغرق فرعون و هامان و جنودهما إنهم كانوا خاطئين. و قد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنا سعيد، حدثنا كعب بن علقمة، عن عيسى بن هلال الصدفى، عن عبد اللّه بن عمرو، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم أنه ذكر الصلاة يوما فقال: (من حافظ عليها كانت له نورا و برهانا و نجاة يوم القيامة، و من لم يحافظ عليها لم يكن له نور و لا برهان و لا نجاة، و كان يوم القيامة مع قارون و فرعون و هامان و أبى بن خلف). انفرد به أحمد رحمه اللّه.

باب فضائل موسى عليه السلام و شمائله و صفاته و وفائه

باب فضائل موسى عليه السلام و شمائله و صفاته و وفائه قال اللّه تعالى فى سورة مريم: وَ اذْكُرْ فِي الْكِتابِ مُوسى إِنَّهُ كانَ مُخْلَصاً وَ كانَ رَسُولًا نَبِيًّا (۵۱) وَ نادَيْناهُ مِنْ جانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَ قَرَّبْناهُ نَجِيًّا (۵۲) وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِيًّا (۵۳) .. و قال تعالى: قالَ يا مُوسى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسالاتِي وَ بِكَلامِي فَخُذْ ما آتَيْتُكَ وَ كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ (۱۴۴)، (الأعراف: ۱۴۴). الآثار و التاريخ، ص: ۱۸۴ و تقدم فى الصحيحين عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أنه قال: (لا تفضلونى على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة، فأكون أول من يفيق، فأجد موسى باطشا بقائمة العرش، فلا أدرى أصعق فأفاق قبلى؟ أم جوزى بصعقة الطور؟). و قدمنا

أنه من رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم من باب الهضم و التواضع، و إلا فهو صلوات اللّه و سلامه علیه خاتم الأنبیاء، و سید ولد آدم فی الدنیا و الآخرة، قطعا جزما لا یحتمل النقیض، و قال تعالی:* إِنَّا أَوْحَیْنا إِلَیْکَ کَما أَوْحَیْنا إِلی نُوحٍ وَ النَّبِیِّینَ مِنْ بَعْدِهِ وَ أَوْحَیْنا إِلی إِبْراهِیمَ وَ إِسْماعِیلَ وَ إِسْحاقَ وَ یَعْقُوبَ وَ الْأَسْباطِ إلی أن قال: وَ رُسُلًا قَدْ قَصَصْناهُمْ عَلَیْکَ مِنْ قَبْلُ وَ رُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَیْکَ وَ کَلَّمَ اللَّهُ مُوسی تَکْلِیماً (۱۶۴)، و قال تعالی: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَکُونُوا کَالَّذِینَ آذَوْا مُوسی فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ کانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِیهاً (۶۹). قال الإمام أبو عبد اللّه البخاری: حدثنا إسحاق بن إبراهیم بن روح بن عبادة، عن عوف، عن الحسن و محمد و خلاس، عن أبی هریرة قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم: (إن موسی کان رجلا حییا ستیرا، لا یری جلده شیء استحیاء منه، فأذاه من أذاه من بنی إسرائیل، فقالوا: ما یستتر هذا التستر إلا من عیب بجلده، إما برص أو أدرة، و إما آفة، و أن اللّه عز و جل أراد أن یبرأه مما قالوا لموسی، فخلا یوما وحده فوضع ثیابه علی الحجر، ثم اغتسل، فلما فرغ أقبل علی ثیابه لیأخذها و أن الحجر عدا بثوبه، فأخذ موسی عصاه و طلب الحجر، فجعل یقول: ثوبی حجر، ثوبی حجر، حتی انتهی إلی ملأ من بنی إسرائیل، فرأوه عریانا أحسن ما خلق اللّه، و برأه مما یقولون، و قام الحجر فأخذ ثوبه فلبسه، و طفق بالحجر ضربا بعصاه، فو اللّه إن بالحجر لندبا من أثر ضربه ثلاثا أو أربعا أو خمسا، قال فذلک قوله عز و جل: یا أَیُّهَا الَّذِینَ آمَنُوا لا تَکُونُوا کَالَّذِینَ آذَوْا مُوسی فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قالُوا وَ کانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِیهاً (۶۹) ... و قد رواه الإمام أحمد من حدیث عبد اللّه ابن شقیق و همام بن منبه، عن أبی هریرة به. و هو فی الصحیحین من حدیث عبد الرزاق عن معمر، عن همام عنه به. و رواه مسلم من حدیث عبد اللّه بن شقیق العقیلی عنه. الآثار و التاریخ، ص: ۱۸۵ قال بعض السلف: کان من وجاهته أنه شفع فی أخیه عند اللّه و طلب منه أن یکون معه وزیرا فأجابه اللّه إلی سؤاله، و أعطاه طلبته، و جعله نبیا، کما قال: وَ وَهَبْنا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنا أَخاهُ هارُونَ نَبِیًّا (۵۳)، ثم قال البخاری: حدثنا أبو الولید، حدثنا شعبة، حدثنا الأعمش سألت أبا وائل، قال: سمعت عبد اللّه، قال: قسم رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم قسما، فقال رجل: إن هذه قسمة ما أرید بها وجه اللّه، فأتیت النبی صلّی اللّه علیه و سلم فغضب، حتی رأیت الغضب فی وجهه، ثم قال: (یرحم اللّه موسی، قد أوذی بأکثر من هذا فصبر). و کذا رواه مسلم من غیر وجه عن سلیمان بن مهران الأعمش به. و قال الإمام أحمد: حدثنا أحمد ابن حجاج سمعت إسرائیل بن یونس، عن الولید بن أبی هاشم، مولی لهمدان، عن زید ابن أبی زائد، عن عبد اللّه بن مسعود، قال: قال رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم لأصحابه: (لا یبلغنی أحد عن أحد شیئا، فإنی أحب أن أخرج إلیکم و أنا سلیم الصدر). قال: و أتی رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم مال، فقسمه، قال: فمررت برجلین، و أحدهما یقول لصاحبه: و اللّه ما أراد محمد بقسمته وجه اللّه، و لا الدار الآخرة، فثبت حتی سمعت ما قالا، ثم أتیت رسول اللّه، فقلت: یا رسول اللّه، إنک قلت: لنا لا یبلغنی أحد عن أحد من أصحابی شیئا، و إنی مررت بفلان و فلان و هما یقولان کذا و کذا، فاحمر وجه رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم و شق علیه، ثم قال: (دعنا منک، فقد أوذی موسی أکثر من ذلک فصبر). و هکذا رواه أبو داود و الترمذی من حدیث إسرائیل عن الولید بن أبی هاشم به. و فی روایة للترمذی و لأبی داود من طریق ابن عبد، عن إسرائیل، عن السدی، عن الولید به. و قال الترمذی: غریب من هذا الوجه. و قد ثبت فی الصحیحین فی أحادیث الإسراء: (أن رسول اللّه صلّی اللّه علیه و سلم مر بموسی و هو قائم یصلی فی قبره). و رواه مسلم عن أنس. و فی الصحیحین من روایة قتادة، عن أنس، عن مالک بن صعصعة، عن النبی صلّی اللّه علیه و سلم: (أنه مر لیلة أسری به بموسی فی السماء السادسة، فقال له جبریل: هذا موسی، فسلم علیه، قال: فسلمت علیه، فقال: مرحبا بالنبی الصالح، و الأخ الصالح، فلما تجاوزت بکی، قیل له: ما یبکیک؟ قال: أبکی لأن غلاما بعث بعدی یدخل الجنة من أمته أکثر مما یدخلها من أمتی)، و ذکر إبراهیم فی السماء السابعة، و هذا هو المحفوظ. و ما وقع فی الآثار و التاریخ، ص: ۱۸۶ حدیث شریک بن أبی نمر عن أنس: من أن إبراهیم فی السادسة، و موسی فی السابعة بتفضیل کلام اللّه، فقد ذکر غیر واحد من الحفاظ: أن الذی علیه الجادة: أن موسی فی السادسة، و إبراهیم فی السابعة، و أنه مسند ظهره إلی البیت المعمور، الذی یدخله کل یوم سبعون ألفا من الملائکة، ثم لا یعودون إلیه، آخر ما علیهم. و اتفقت الروایات کلها علی أن اللّه تعالی لما فرض علی محمد صلّی اللّه علیه و سلم و أمته خمسین صلاة فی الیوم و اللیلة، فمر بموسی، قال: ارجع إلی ربک فسله التخفیف

لأمتك، فإنى قد عالجت بنى إسرائيل قبلك أشد المعالجة، و أن أمتك أضعف أسماعا و أبصارا و أفئدة، فلم يزل يتردد بين موسى و بين اللّه عز و جل، و يخفف عنه فى كل مرة، حتى صارت إلى خمس صلوات فى اليوم و الليلة. و قال اللّه تعالى: هى خمس و هى خمسون، أى بالمضاعفة، فجزى اللّه عنا محمدا صلّى اللّه عليه و سلم خيرا، و جزى اللّه عنا موسى عليه السلام خيرا. و قال البخارى: حدثنا مسدد، حدثنا حصين بن نمير، عن حصين بن عبد الرحمن، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: خرج علينا رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم يوما، فقال: (عرضت على الأمم، و رأيت سوادا كثيرا سد الأفق، فقيل: هذا موسى فى قومه). هكذا روى البخارى هذا الحديث هاهنا مختصرا، و قد رواه الإمام أحمد مطولا، فقال: حدثنا شريح، حدثنا هشام، حدثنا حصين بن عبد الرحمن، قال: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب الذى انقض البارحة؟ قلت: أنا، ثم قلت: إنى لم أكن فى صلاة، و لكن لدغت، قال: و كيف فعلت؟ قلت: استرقيت، قال: و ما حملك على ذلك؟ قال: قلت: حديث حدثناه الشعبى عن بريدة الأسلمى، أنه قال: (لا رقية إلا من عين أو حمة). فقال سعيد، يعنى ابن جبير: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ثم قال: حدثنا ابن عباس عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: (عرضت على الأمم، فرأيت النبى و معه الرهط، و النبى معه الرجل و الرجلان، و النبى و ليس معه أحد، إذ رفع لى سواد عظيم، فقلت: هذه أمتى، فقيل: هذا موسى و قومه، و لكن انظر إلى الأفق فإذا سواد عظيم، ثم قيل: انظر إلى هذا الجانب، فإذا سواد عظيم، فقيل: هذه أمتك، و معهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب و لا عذاب)، ثم نهض رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم الآثار و التاريخ، ص: ۱۸۷ فدخل، فخاض القوم فى ذلك، فقالوا: من هؤلاء الذين يدخلون الجنة بغير حساب و لا عذاب؟ فقال: بعضهم لعلهم الذين صحبوا النبى صلّى اللّه عليه و سلم، و قال بعضهم: لعلهم الذين ولدوا فى الإسلام و لم يشركوا باللّه شيئا قط، و ذكروا أشياء، فخرج إليهم رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فقال: (ما هذا الذى كنتم تخوضون فيه؟) فأخبروه بمقالتهم، فقال: (هم الذين لا يكتوون، و لا يسترقون، و لا يتطيرون، و على ربهم يتوكلون)، فقام عكاشة بن محيصن الأسدى، فقال: أنا منهم يا رسول اللّه؟ قال: (أنت منهم)، ثم قام آخر، فقال: أنا منهم يا رسول اللّه؟ فقال: (سبقك بها عكاشة). و هذا الحديث له طرق كثيرة جدا و هو فى الصحاح و الحسان و غيرها. و قد ذكر اللّه تعالى موسى عليه السلام فى القرآن كثيرا و أثنى عليه، و أورد قصته فى كتابه العزيز مرارا، و كررها كثيرا، مطولة و مبسوطة و مختصرة، و أثنى عليه بليغا، و كثيرا ما يقرنه اللّه و يذكره، و يذكر كتابه مع محمد صلّى اللّه عليه و سلم و كتابه، كما قال فى سورة البقرة: وَ لَمَّا جاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِما مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ كِتابَ اللَّهِ وَراءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لا يَعْلَمُونَ (۱۰۱)، و قال تعالى: الم (۱) اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ (۲) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ وَ أَنْزَلَ التَّوْراةَ وَ الْإِنْجِيلَ (۳) مِنْ قَبْلُ هُدىً لِلنَّاسِ وَ أَنْزَلَ الْفُرْقانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذابٌ شَدِيدٌ وَ اللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقامٍ (۴)، و قال تعالى فى سورة الأنعام: وَ ما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قالُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ عَلى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتابَ الَّذِي جاءَ بِهِ مُوسى نُوراً وَ هُدىً لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَراطِيسَ تُبْدُونَها وَ تُخْفُونَ كَثِيراً وَ عُلِّمْتُمْ ما لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَ لا آباؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (۹۱) وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَ لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرى وَ مَنْ حَوْلَها وَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَ هُمْ عَلى صَلاتِهِمْ يُحافِظُونَ (۹۲) .. فأثنى تعالى على التوراة، ثم مدح القرآن العظيم مدحا عظيما، و قال تعالى فى آخرها: ثُمَّ آتَيْنا مُوسَى الْكِتابَ تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَ هُدىً وَ رَحْمَةً لَعَلَّهُمْ بِلِقاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ الآثار و التاريخ، ص: ۱۸۸ (۱۵۴) وَ هذا كِتابٌ أَنْزَلْناهُ مُبارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَ اتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (۱۵۵)، (الأنعام). و قال تعالى فى سورة المائدة: إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْراةَ فِيها هُدىً وَ نُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هادُوا وَ الرَّبَّانِيُّونَ وَ الْأَحْبارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتابِ اللَّهِ وَ كانُوا عَلَيْهِ شُهَداءَ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَ اخْشَوْنِ وَ لا تَشْتَرُوا بِآياتِي ثَمَناً قَلِيلًا وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْكافِرُونَ (۴۴)، إلى أن قال تعالى: وَ لْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَ مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ (۴۷) وَ أَنْزَلْنا إِلَيْكَ الْكِتابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتابِ وَ مُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِما أَنْزَلَ اللَّهُ وَ لا تَتَّبِعْ أَهْواءَهُمْ عَمَّا جاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَ مِنْهاجاً وَ لَوْ شاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً واحِدَةً وَ لكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي ما آتاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْراتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُمْ بِما

كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (۴۸) .. فجعل القرآن حاكما على سائر الكتب غيره، و جعله مصدقا لها، و مبينا ما وقع فيها من التحريف و التبديل، فإن أهل الكتاب استحفظوا على ما بأيديهم من الكتب، فلم يقدروا على حفظها، و لا على ضبطها و صونها، فلهذا دخلها ما دخلها من تغييرهم و تبديلهم، لسوء فهومهم، و قصورهم في علومهم، و رداءة قصودهم، و خيانتهم لمعبودهم، عليهم لعائن اللّه المتابعة إلى يوم القيامة، و لهذا يوجد في كتبهم من الخطأ البين على اللّه و على رسوله ما لا يحد و لا يوصف، و ما لا يوجد مثله و لا يعرف. و قال تعالى في سورة الأنبياء: وَ لَقَدْ آتَيْنا مُوسى وَ هارُونَ الْفُرْقانَ وَ ضِياءً وَ ذِكْراً لِلْمُتَّقِينَ (۴۸) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (۴۹) وَ هذا ذِكْرٌ مُبارَكٌ أَنْزَلْناهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ (۵۰) .. و قال اللّه تعالى في سورة القصص: فَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنا قالُوا لَوْ لا أُوتِيَ مِثْلَ ما أُوتِيَ مُوسى أَ وَ لَمْ يَكْفُرُوا بِما أُوتِيَ مُوسى مِنْ قَبْلُ قالُوا سِحْرانِ تَظاهَرا وَ قالُوا إِنَّا بِكُلٍّ كافِرُونَ (۴۸) قُلْ فَأْتُوا بِكِتابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدى مِنْهُما أَتَّبِعْهُ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (۴۹)، فأثنى اللّه على الكتابين، و على الآثار و التاريخ، ص: ۱۸۹ الرسولين، عليهما السلام، و قالت الجن لقومهم: إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى، و قال ورقة بن نوفل، لما قص عليه رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم خبر ما رأى من أول الوحي، و تلا عليه: اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (۱) خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ (۲) اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ (۳) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (۴) عَلَّمَ الْإِنْسانَ ما لَمْ يَعْلَمْ (۵)، قال: سبوح سبوح هذا الناموس الذي أنزل على موسى بن عمران. و بالجملة: فشريعة موسى عليه السلام كانت عظيمة، و أمته كانت أمة كثيرة، و وجد فيها أنبياء و علماء، و عباد و زهاد و ألباء، و ملوك و أمراء و سادات و كبراء، لكنهم كانوا فبادوا و تبدلوا كما بدلت شريعتهم، و مسخوا قردة و خنازير، ثم نسخت بعد كل حساب ملتهم، و جرت عليهم خطوب و أمور يطول ذكرها، و لكن سنورد ما فيه مقنع لمن أراد أن يبلغه خبرها، إن شاء اللّه و به الثقة و عليه التكلان.

حجته عليه السلام إلى البيت العتيق

حجته عليه السلام إلى البيت العتيق قال الإمام أحمد: حدثنا هشام، حدثنا داود بن أبي هند، عن أبي العالية، عن ابن عباس، أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مر بوادي الأزرق، فقال: (أي واد هذا؟) قالوا: وادي الأزرق، قال: (كأني أنظر إلى موسى و هو هابط من الثنية، و له جؤار إلى اللّه عز و جل بالتلبية)، حتى أتى على ثنية هرشاء، فقال: (أي ثنية هذه؟) قالوا: هذه ثنية هرشاء، قال: (كأني انظر إلى يونس بن متى، على ناقة حمراء، عليه جبة من صوف، خطام ناقته خلبة- قال هشيم: يعني ليفا- و هو يلبي). أخرجه مسلم من حديث داود بن أبي هند به. و روى الطبراني عن ابن عباس مرفوعا: (إن موسى حج على ثور أحمر) و هذا غريب جدا. و قال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن أبي عدي، عن ابن عون، عن مجاهد، قال: كنا عند ابن عباس، فذكروا الدجال، فقال: إنه مكتوب بين عينيه: (ك ف ر)، قال: ما يقولون؟ قال: يقولون مكتوب بين عينيه ك ف ر، فقال ابن عباس: لم أسمعه قال ذلك، و لكن قال: (أمّا إبراهيم: فانظروا إلى صاحبكم، و أما موسى: فرجل آدم، جعد الآثار و التاريخ، ص: ۱۹۰ الشعر، على جمل أحمر، مخطوم بخلبة، كأني أنظر إليه و قد انحدر من الوادي يلبي)، قال هشيم: الخلبة الليف، ثم رواه الإمام أحمد عن أسود، عن إسرائيل، عن عثمان بن المغيرة، عن مجاهد، عن ابن عباس، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم (رأيت عيسى ابن مريم و موسى و إبراهيم، فأما عيسى فأبيض جعد عريض الصدر، و أما موسى: فآدم جسيم)، قالوا: فإبراهيم؟ قال: (انظروا إلى صاحبكم). و قال الإمام أحمد: حدثنا يونس، حدثنا شيبان، قال: حدث قتادة عن أبي العالية، حدثنا ابن عم نبيكم ابن عباس، قال: قال نبي اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: (رأيت ليلة أسري بي: موسى بن عمران رجلا طوالا جعدا، كأنه من رجال شنوءة، و رأيت عيسى ابن مريم مربوع الخلق إلى الحمرة و البياض، سبط الرأس)، و أخرجاه من حديث قتادة به. و قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، قال الزهري: و أخبرني سعيد بن المسيب، عن أبي هريرة، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم (حين أسري بي لقيت موسى، فنعته، فقال رجل قال: حسبته قال: مضطرب، رجل الرأس، كأنه من رجال شنوءة- و لقيت عيسى فنعته رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، فقال: ربعة، أحمر، كأنما خرج من ديماس- يعني حماما- قال: و رأيت إبراهيم، و أنا أشبه ولده به). الحديث و قد تقدم غالب هذه الأحاديث في ترجمة الخليل.

ذكر وفاته عليه السلام

ذكر وفاته عليه السلام قال البخارى فى صحيحه: (وفاة موسى عليه السلام) حدثنا يحيى بن موسى، حدثنا عبد الرزاق، أنبأنا معمر، عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبى هريرة، قال: أرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فلما جاءه صكه، فرجع إلى ربه عز و جل، فقال: أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت، قال: ارجع إليه، فقل له: يضع يده على متن ثور، فله بما غطت يده بكل شعرة سنة، قال: أى رب، ثم ما ذا؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن، قال: فسأل اللّه عز و جل أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية بحجر، قال أبو هريرة: فقال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: (فلو كنت ثمّ لأريتكم قبره إلى جانب الطريق عند الآثار و التاريخ، ص: ۱۹۱ الكثيب الأحمر). قال: و أنبأنا معمر، عن همام، عن أبى هريرة، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم نحوه. و قد روى مسلم الطريق الأول من حديث عبد الرزاق به. و رواه الإمام أحمد من حديث حماد بن سلمة عن عمار بن أبى هريرة مرفوعا. و قال الإمام أحمد: حدثنا الحسن، حدثنا ابن لهيعة، حدثنا أبو يونس، يعنى سليم بن جبير، عن أبى هريرة، قال الإمام أحمد: لم يرفعه، قال: جاء ملك الموت إلى موسى عليه السلام، فقال: أجب ربك، فلطم موسى عين ملك الموت، ففقأها، فرجع الملك إلى اللّه، فقال: إنك بعثتنى إلى عبد لك لا يريد الموت، قال: و قد فقأ عينى، قال: فرد اللّه عينه، و قال: ارجع إلى عبدى، فقل له: الحياة تريد؟ فإن كنت تريد الحياة فضع يدك على متن ثور، فما وارت يدك من شعره فإنك تعيش بها سنة، قال: ثم مه؟ قال: ثم الموت، قال: فالآن يا رب من قريب. تفرد به أحمد، و هو موقوف بهذا اللفظ. و قد رواه ابن حبان فى صحيحه من طريق معمر عن ابن طاوس، عن أبيه، عن أبى هريرة، قال معمر: و أخبرنى من سمع الحسن، عن رسول اللّه فذكره. ثم استشكله ابن حبان، و أجاب عنه بما حاصله: أن ملك الموت لما قال له هذا لم يعرفه، لمجيئه له على غير صورة يعرفها موسى عليه السلام، كما جاء جبريل فى صورة أعرابى، و كما وردت الملائكة على إبراهيم و لوط فى صورة شباب، فلم يعرفهم إبراهيم و لا لوط أولا، و كذلك موسى لعله لم يعرفه لذلك، و لطمه ففقأ عينه لأنه دخل داره بغير إذنه، و هذا موافق لشريعتنا فى جواز فقء عين من نظر إليك فى دارك بغير إذن، ثم أورد الحديث من طريق عبد الرزاق عن معمر، عن همام، عن أبى هريرة، قال، قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم (جاء ملك الموت إلى موسى ليقبض روحه، قال له: أجب ربك، فلطم موسى عين ملك الموت، ففقأ عينه). و ذكر تمام الحديث، كما أشار إليه البخارى، ثم تأوله على أنه لما رفع يده ليلطمه قال له: أجب ربك. و هذا التأويل لا يتمشى على ما ورد به اللفظ من تعقيب قوله: أجب ربك، بلطمه، و لو استمر على الجواب الأول لتمشى له، و كأنه لم يعرفه فى تلك الصورة، و لم يحمل قوله هذا على أنه مطابق، إذا لم يتحقق فى الساعة الراهنة أنه ملك كريم، لأنه كان يرجو أمورا كثيرة، كان يحب وقوعها فى حياته، من الآثار و التاريخ، ص: ۱۹۲ خروجه من التيه و دخولهم الأرض المقدسة، و كان قد سبق فى قدرة اللّه أنه عليه السلام يموت فى التيه بعد هارون أخيه، كما سنبينه إن شاء اللّه تعالى. و قد زعم بعضهم أن موسى عليه السلام هو الذى خرج بهم من التيه، و دخل بهم الأرض المقدسة، و هذا خلاف ما عليه أهل الكتاب و جمهور المسلمين، و مما يدل على ذلك قوله لما اختار الموت: (رب أدننى إلى الأرض المقدسة رمية حجر)، و لو كان قد دخلها لم يسأل ذلك، و لكن لما كان مع قومه بالتيه و حانت وفاته عليه السلام، أحب أن يتقرب إلى الأرض التى هاجر إليها و حث قومه عليها، و لكن حال بينهم و بينها القدر رمية بحجر، و لهذا قال سيد البشر، و رسول اللّه إلى أهل الوبر و المدر: (فلو كنت ثم لأريتكم قبره عند الكثيب الأحمر). و قال الإمام: حدثنا عفان، حدثنا حماد، حدثنا ثابت و سليمان التيمى، عن أنس بن مالك، أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: (لما أسرى بى مررت بموسى و هو قائم يصلى فى قبره عند الكثيب الأحمر). و رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة به. و قال السدى عن أبى مالك و أبى صالح، عن ابن عباس و عن مرة، عن ابن مسعود و عن ناس من الصحابة، قالوا: ثم إن اللّه تعالى أوحى إلى موسى: إنى متوف هارون، فائت به جبل كذا و كذا، فانطلق موسى و هارون نحو ذلك الجبل، فإذا هم بشجرة لم تر شجرة مثلها، و إذا هم ببيت مبنى، و إذا هم بسرير عليه فرش، و إذا فيه ريح طيبة، فلما نظر هارون إلى ذلك الجبل، و البيت و ما فيه، أعجبه، قال: يا موسى، إنى أحب أن أنام على هذا

السریر، قال له موسی: فنم علیه، قال: إنی أخاف أن یأتی رب هذا البیت فیغضب علیّ، قال له: لا ترهب، أنا أکفیک رب هذا البیت، فنم، قال: یا موسی، نم معی، فإن جاء رب هذا البیت غضب علیّ و علیک جمیعا، فلما ناما، أخذ هارون الموت، فلما وجد حسه قال: یا موسی، خدعتنی، فلما قبض، رفع ذلک البیت، و ذهبت تلک الشجرة، و رفع السریر به إلی السماء، فلما رجع موسی إلی قومه و لیس معه هارون، قالوا: فإن موسی قتل هارون، و حسده حب بنی إسرائیل له، و کان هارون أکف عنهم و ألین لهم من موسی، و کان فی موسی بعض الغلظة علیهم، فلما بلغه ذلک قال لهم: ویحکم، کان أخی، أ فترونی أقتله؟ فلما أکثروا علیه، قام الآثار و التاریخ، ص: ۱۹۳ فصلی رکعتین، ثم دعا اللّه، فنزل السریر، حتی نظروا إلیه بین السماء و الأرض، ثم إن موسی علیه السلام بینما هو یمشی و یوشع فتاه، إذ أقبلت ریح سوداء، فلما نظر إلیها یوشع ظن أنها الساعة، فالتزم موسی، و قال: تقوم الساعة و أنا ملتزم موسی نبی اللّه، فاستل موسی علیه السلام من تحت القمیص، و ترک القمیص فی یدی یوشع، فلما جاء یوشع بالقمیص آخذته بنو إسرائیل، و قالوا: قتلت نبی اللّه، فقال: لا، و اللّه ما قتلته، و لکنه استل منی، فلم یصدقوه و أرادوا قتله، قال: فإذا لم تصدقونی فأخرونی ثلاثة أیام، فدعا اللّه، فأتی کل رجل ممن کان یحرسه فی المنام، فأخبر أن یوشع لم یقتل موسی، و إنا قد رفعناه إلینا فترکوه، و لم یبق أحد ممن أبی أن یدخل قریة الجبارین مع موسی إلا مات، و لم یشهد الفتح، و فی بعض هذا السیاق نکارة و غرابة، و اللّه أعلم. و قد قدمنا: أنه لم یخرج أحد من التیه ممن کان مع موسی، سوی یوشع بن نون، و کالب بن یوقنا، و هو زوج مریم أخت موسی و هارون، و هما الرجلان المذکوران فیما تقدم، اللذان أشارا علی ملأ بنی إسرائیل بالدخول علیهم. و ذکر وهب بن منبه: أن موسی علیه السلام مر بملإ من الملائکة یحفرون قبرا فلم یر أحسن منه و لا أنضر و لا أبهج، فقال: یا ملائکة اللّه، لمن تحفرون هذا القبر؟ فقالوا: لعبد من عباد اللّه کریم، فإن کنت تحب أن تکون هذا العبد، فادخل هذا القبر، و تمدّد فیه، و توجه إلی ربک، و تنفّس أسهل تنفّس، ففعل ذلک، فمات صلوات اللّه و سلامه علیه، فصلت علیه الملائکة، و دفنوه. و ذکر أهل الکتاب و غیرهم: أنه مات و عمره مائة و عشرون سنة. و قد قال الإمام أحمد: حدثنا أمیة بن خالد و یونس، قالا: حدثنا حماد بن سلمة، عن عمار بن أبی عمار، عن أبی هریرة، عن النبی صلّی اللّه علیه و سلم- قال یونس: رفع هذا الحدیث إلی النبی صلّی اللّه علیه و سلم- قال: (کان ملک الموت یأتی الناس عیانا، قال: فأتی موسی علیه السلام فلطمه، ففقأ عینه، فأتی ربه، فقال: یا رب عبدک موسی فقأ عینی، و لو لا کرامته علیک لعتبت علیه- و قال یونس لشققت علیه- قال له: اذهب إلی عبدی، فقل له: فلیضع یده علی جلد، أو مسک، ثور، فله بکل شعرة وارت یده سنة، فأتاه، فقال له، فقال: ما بعد هذا؟ قال: الموت، قال: فالآن. قال: فشمه شمة، فقبض روحه.) قال یونس: فرد الآثار و التاریخ، ص: ۱۹۴ اللّه علیه عینه، و کان یأتی الناس خفیة. و کذا رواه ابن جریر عن أبی کریب عن مصعب بن المقدام عن حماد بن سلمة به، فرفعه أیضا.

نبوة یوشع و قیامه بأعباء بنی إسرائیل بعد موسی و هارون

نبوة یوشع و قیامه بأعباء بنی إسرائیل بعد موسی و هارون هو: یوشع بن نون بن أفرائیم یوسف بن یعقوب بن إسحاق بن إبراهیم الخلیل علیهم السلام، و أهل الکتاب یقولون: یوشع بن عم هود، و قد ذکره اللّه تعالی فی القرآن غیر مصرح باسمه فی قصة الخضر، کما تقدم من قوله: وَ إِذْ قالَ مُوسی لِفَتاهُ فَلَمَّا جاوَزا قالَ لِفَتاهُ و قدمنا ما ثبت فی الصحیح من روایة أبی بن کعب رضی اللّه عنه عن النبی صلّی اللّه علیه و سلم: (من أنه یوشع بن نون). و هو متفق علی نبوته عند أهل الکتاب، فإن طائفة منهم، و هم السامرة، لا یقرون بنبوة أحد بعد موسی إلا یوشع بن نون، لأنه مصرح به فی التوراة، و یکفرون بما وراءه، و هو الحق من ربهم، فعلیهم لعائن اللّه المتتابعة إلی یوم القیامة. و أما ما حکاه ابن جریر و غیره من المفسرین، عن محمد بن إسحاق: من أن النبوة حولت من موسی إلی یوشع فی آخر عمر موسی، فکان موسی یلقی یوشع فیسأله ما أحدث اللّه من الأوامر و النواهی؟ حتی قال له: یا کلیم اللّه، إنی کنت لا أسألک عما یوحی اللّه إلیک حتی تخبرنی أنت ابتداء من تلقاء نفسک، فعند ذلک کره موسی الحیاة و أحب الموت. ففی هذا نظر لأن موسی علیه السلام لم یزل الأمر و الوحی و التشریع و الکلام من اللّه إلیه من جمیع أحواله حتی توفاه اللّه عز و جل، و لم یزل

معزرا مكرما مدللا وجيها عند اللّه كما قدمنا فى الصحيح من قصة فقئه عين ملك الموت، ثم بعثه اللّه إليه إن كان يريد الحياة، فليضع يده على جلد ثور فله بكل شعرة وارت يده سنة يعيشها، قال: ثم ما ذا؟ قال: الموت، قال: فالآن يا رب، و سأل اللّه أن يدنيه إلى بيت المقدس رمية بحجر. و قد أجيب إلى ذلك صلوات اللّه و سلامه عليه، فهذا الذى ذكره محمد بن إسحاق إن كان إنما يقوله من كتب أهل الكتاب، ففى كتابهم الذى يسمونه التوراة: أن الوحى لم يزل ينزل على موسى فى كل حين يحتاجون إليه إلى آخر مدة موسى، كما هو المعلوم من سياق كتابهم، عند تابوت الشهادة فى قبة الزمان، و قد ذكروا الآثار و التاريخ، ص: ۱۹۵ فى السفر الثالث: أن اللّه أمر موسى و هارون أن يعدا بنى إسرائيل على أسباطهم، و أن يجعلا على كل سبط من الاثنى عشر أميرا، و هو النقيب، و ما ذاك إلا ليتأهبوا للقتال قتال الجبارين عند الخروج من التيه، و كان هذا عند اقتراب انقضاء الأربعين سنة. و لهذا قال بعضهم: إنما فقأ موسى عليه السلام عين ملك الموت لأنه لم يعرفه فى صورته تلك، و لأنه كان قد أمر بأمر كان يرتجى وقوعه فى زمانه، و لم يكن فى قدر اللّه أن يقع ذلك فى زمانه، بل فى زمان فتاه يوشع بن نون عليه السلام. كما أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم كان قد أراد غزو الروم بالشام فوصل إلى تبوك، ثم رجع عامه ذلك فى سنة تسع ثم حج فى سنة عشر، ثم رجع فجهز جيش أسامة إلى الشام طليعة بين يديه، ثم كان على عزم الخروج إليهم امتثالا لقوله تعالى: قاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ لا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لا يُحَرِّمُونَ ما حَرَّمَ اللَّهُ وَ رَسُولُهُ وَ لا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَ هُمْ صاغِرُونَ (۲۹)، (التوبة: ۲۹). و لما جهز رسول اللّه جيش أسامة توفى عليه الصلاة و السلام، و أسامة مخيم بالجرف فنفذه صديقه و خليفته أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه، ثم لما لم شعث جزيرة العرب و ما كان دهى من أمر أهلها و عاد الحق إلى نصابه، جهز الجيوش يمنة و يسرة إلى العراق أصحاب كسرى ملك الفرس، و إلى الشام أصحاب قيصر ملك الروم، ففتح اللّه لهم و مكن لهم و بهم و ملكهم نواصى أعدائهم. و هكذا موسى عليه السلام كان اللّه قد أمره أن يجند بنى إسرائيل و أن يجعل عليهم نقباء كما قال تعالى:* وَ لَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثاقَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَ بَعَثْنا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيباً وَ قالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلاةَ وَ آتَيْتُمُ الزَّكاةَ وَ آمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَ عَزَّرْتُمُوهُمْ وَ أَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضاً حَسَناً لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَ لَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (۱۲)، (المائدة: ۱۲) .. يقول لهم: لئن قمتم بما أوجبت عليكم، و لم تنكلوا عن القتال كما نكلتم أول مرة، لأجعلن ثواب هذه مكفرا لما وقع عليكم من عقاب تلك، كما قال تعالى لمن الآثار و التاريخ، ص: ۱۹۶ تخلف من الأعراب عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم فى غزوة الحديبية: قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَ إِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (۱۶)، و هكذا قال تعالى لبنى إسرائيل: فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَواءَ السَّبِيلِ (۱۲) ثم ذمهم تعالى على سوء صنيعهم و نقضهم مواثيقهم، كما ذم من بعدهم من النصارى على اختلافهم فى دينهم و أديانهم. و المقصود: أن اللّه تعالى أمر موسى عليه السلام أن يكتب أسماء المقاتلة من بنى إسرائيل ممن يحمل السلاح، و يقاتل ممن بلغ عشرين سنة فصاعدا، و أن يجعل على كل سبط نقيبا منهم (السبط الأول): سبط روبيل، لأنه بكر يعقوب كان عدة المقاتلة منهم ستة و أربعين ألفا و خمسمائة، و نقيبهم منهم و هو: اليصور بن شديئورا، (السبط الثانى): سبط شمعون، و كانوا تسعة و خمسين ألفا و ثلاثمائة، و نقيبهم شلوميئل بن هوريشداى، (السبط الثالث): سبط يهوذا، و كانوا أربعة و سبعين ألفا و ستمائة، و نقيبهم نحشون بن عمينا داب، (السبط الرابع): سبط إيساخر، و كانوا أربعة و خمسين ألفا و أربعمائة، و نقيبهم نشائيل بن صوغر، (السبط الخامس): سبط يوسف عليه السلام، و كانوا أربعين ألفا و خمسمائة، و نقيبهم: يوشع بن نون، (السبط السادس): سبط ميشا، و كانوا أحدا و ثلاثين ألفا و مائتين، و نقيبهم جمليئيل بن فدهصور، (السبط السابع): سبط بنيامين، و كانوا خمسة و ثلاثين ألفا و أربعمائة، و نقيبهم أبيدن بن جدعون، (السبط الثامن): سبط حاد، و كانوا خمسة و أربعين ألفا و ستمائة و خمسين رجلا، و نقيبهم إلياساف بن رعوئيل، (السبط التاسع): سبط أشير، و كانوا أحدا و أربعين ألفا و خمسمائة، و نقيبهم فجعيئيل بن عكرن، (السبط العاشر): سبط دان، و كانوا اثنين و ستين ألفا و سبعمائة، و نقيبهم أخيعزر ابن عمشداى، (السبط الحادى عشر): سبط نفتالى، و كانوا ثلاثة و خمسين ألفا و أربعمائة، و نقيبهم أخيرع

بن عين، (السبط الثانى عشر): سبط زبولون، و كانوا سبعة و خمسين ألفا و أربعمائة، و نقيبهم الباب بن حيلون. هذا نص كتابهم الذى بأيديهم، و اللّه أعلم. و ليس منهم بنو لاوى، فأمر اللّه موسى أن لا يعدهم معهم، لأنهم موكلون بحمل قبة الآثار و التاريخ، ص: ۱۹۷ الشهادة و ضربها و نصبها و حملها إذا ارتحلوا، و هم سبط موسى و هارون عليهما السلام، و كانوا اثنين و عشرين ألفا من ابن شهر فما فوق ذلك. و هم فى أنفسهم قبائل إلى كل قبيلة طائفة من قبة الزمان يحرسونها و يحفظونها و يقومون بمصالحها و نصبها و حملها و هم كلهم حولها ينزلون و يرتحلون أمامها و يمنتها و شمالها و وراءها. و جملة ما ذكر من المقاتلة غير بنى لاوى: خمسمائة ألف و أحد و سبعون ألفا و ستمائة و ستة و خمسون، لكن قالوا: فكان عدد بنى إسرائيل ممن عمره عشرون سنة فما فوق ذلك ممن حمل السلاح ستمائة ألف و ثلاثة آلاف و خمسمائة و خمسة و خمسين رجلا، سوى بنى لاوى، و فى هذا نظر، فإن جميع الجمل المتقدمة إن كانت كما وجدنا فى كتابهم لا تطابق الجملة التى ذكروها، و اللّه أعلم، فكان بنو لاوى الموكلون بحفظ قبة الزمان يسيرون فى وسط بنى إسرائيل و هم القلب، و رأس الميمنة بنو روبيل، و رأس الميسرة بنو ران، و بنو نفتالى يكونون ساقه، و قرر موسى عليه السلام بأمر اللّه تعالى له الكهانة فى بنى هارون كما كانت لأبيهم من قبلهم، و هم ناداب و هو بكره، و أبيهو و العازر و يثمر. و المقصود: أن بنى إسرائيل لم يبق منهم أحد ممن كان نكل عن دخول مدينة الجبارين الذين قالوا: فَاذْهَبْ أَنْتَ وَ رَبُّكَ فَقاتِلا إِنَّا هاهُنا قاعِدُونَ (۲۴) قاله الثورى عن أبى سعيد عن عكرمة عن ابن عباس، و قاله قتادة و عكرمة، و رواه السدى عن ابن عباس و ابن مسعود و ناس من الصحابة حتى قال ابن عباس و غيره من علماء السلف و الخلف: و مات موسى و هارون قبله كلاهما فى التيه جميعا. و قد زعم ابن إسحاق: أن الذى فتح بيت المقدس هو موسى، و إنما كان يوشع على مقدمته و ذكر فى مروره إليها قصة بلعام بن باعوراء الذى قال تعالى فيه: وَ اتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْناهُ آياتِنا فَانْسَلَخَ مِنْها فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطانُ فَكانَ مِنَ الْغاوِينَ (۱۷۵) وَ لَوْ شِئْنا لَرَفَعْناهُ بِها وَ لكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَ اتَّبَعَ هَواهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (۱۷۶) ساءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنا وَ أَنْفُسَهُمْ كانُوا يَظْلِمُونَ (۱۷۷)، (الأعراف) .. و قد ذكرت الآثار و التاريخ، ص: ۱۹۸ قصته فى التفسير، و أنه كان فيما قاله ابن عباس و غيره يعلم الاسم الأعظم، و أن قومه سألوه أن يدعو على موسى و قومه، فامتنع عليهم و لما ألحوا عليه ركب حمارة له ثم سار نحو معسكر بنى إسرائيل، فلما أشرف عليهم ربضت به حمارته، فضربها حتى قامت فسارت غير بعيد و ربضت، فضربها ضربا أشد من الأول، فقامت ثم ربضت، فضربها فقالت له: يا بلعام، أين تذهب؟ أما ترى الملائكة أمامى تردنى عن وجهى هذا؟ أ تذهب إلى نبى اللّه و المؤمنين تدعو عليهم، فلم ينزع عنها فضربها حتى سارت به حتى أشرف عليهم من رأس جبل حسبان، و نظر إلى معسكر موسى و بنى إسرائيل، فأخذ يدعو عليهم فجعل لسانه لا يطيعه إلا أن يدعو لموسى و قومه و يدعو على قوم نفسه فلاموه على ذلك، فاعتذر إليهم بأنه لا يجرى على لسانه إلا هذا، و اندلع لسانه حتى وقع على صدره، و قال لقومه: ذهبت منى الآن الدنيا و الآخرة و لم يبق إلا المكر و الحيلة، ثم أمر قومه أن يزينوا النساء و يبعثوهن بالأمتعة يبعن عليهم و يتعرضن لهم حتى لعلهم يقعون فى الزنا، فإنه متى زنى رجل منهم كفيتموهم، ففعلوا و زينوا نساءهم و بعثوهن إلى المعسكر فمرت امرأة منهم اسمها كستى برجل من عظماء بنى إسرائيل، و هو زمرى بن شلوم، يقال إنه: كان رأس سبط بنى شمعون بن يعقوب، فدخل بها قبته، فلما خلا بها أرسل اللّه الطاعون على بنى إسرائيل، فجعل يجوس فيهم، فلما بلغ الخبر إلى فنحاص بن العزار بن هارون أخذ حربته و كانت من حديد، فدخل عليهما القبة فطعنهما جميعا فيها، ثم خرج بهما على الناس و الحربة فى يده و قد اعتمد على خاصرته و أسندها إلى لحيته و رفعهما نحو السماء، و جعل يقول: اللهم هكذا نفعل بمن يعصيك، و رفع الطاعون، فكان جملة من مات فى تلك الساعة سبعين ألفا، و المقلل يقول: عشرين ألفا، و كان فنحاص بكر أبيه العزار بن هارون فلهذا يجعل بنو إسرائيل لولد فنحاص من الذبيحة اللية و الذراع و اللحى، و لهم البكر من كل أموالهم و أنفسهم. و هذا الذى ذكره ابن إسحاق من قصة بلعام صحيح قد ذكره غير واحد من علماء السلف، لكن لعله لما أراد موسى دخول بيت المقدس أول مقدمه من الديار المصرية، و لعله مراد ابن إسحاق، و لكنه ما فهمه بعض الناقلين عنه. و قد قدمنا عن نص التوراة الآثار و التاريخ، ص: ۱۹۹ ما

يشهد لبعض هذا، و اللّه أعلم. و لعل هذه قصة أخرى كانت فى خلال سيرهم فى التيه فإن فى هذا السياق ذكر حسبان و هى بعيدة عن أرض بيت المقدس، أو لعله كان هذا لجيش موسى الذين عليهم يوشع بن نون حين خرج بهم من التيه قاصدا بيت المقدس كما صرح به السدى، و اللّه أعلم. و على كل تقدير فالذى عليه الجمهور: أن هارون توفى بالتيه قبل موسى أخيه بنحو من سنتين، و بعده موسى فى التيه أيضا، كما قدمنا، و أنه سأل ربه أن يقرب إلى بيت المقدس فأجيب إلى ذلك، فكان الذى خرج بهم من التيه و قصد بهم بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام، فذكر أهل الكتاب و غيرهم من أهل التاريخ: أنه قطع بنى إسرائيل نهر الأردن، و انتهى إلى أريحا، و كانت من أحصن المدائن سورا و أعلاها قصورا و أكثرها أهلا فحاصرها ستة أشهر، ثم إنهم أحاطوا بها يوما و ضربوا بالقرون، يعنى الأبواق، و كبروا تكبيرة رجل واحد فتفسخ سورها و سقط وجبة واحدة، فدخلوها و أخذوا ما وجدوا فيها من الغنائم و قتلوا اثنى عشر ألفا من الرجال و النساء، و حاربوا ملوكا كثيرة، و يقال: إن يوشع ظهر على أحد و ثلاثين ملكا من ملوك الشام، و ذكروا أنه انتهى محاصرته لها إلى يوم جمعة بعد العصر، فلما غربت الشمس أو كادت تغرب و يدخل عليهم السبت الذى جعل عليهم و شرع لهم ذلك الزمان، قال لها: إنك مأمورة و أنا مأمور، اللهم احبسها علىّ، فحبسها اللّه عليه، حتى تمكن من فتح البلد، و أمر القمر فوقف عن الطلوع. و هذا يقتضى أن هذه الليلة كانت الليلة الرابعة عشرة من الشهر، و الأول و هو قصة الشمس المذكورة فى الحديث الذى سأذكره، و أما قصة القمر فمن عند أهل الكتاب، و لا ينافى الحديث بل فيه زيادة تستفاد فلا تصدق و لا تكذب، و لكن ذكرهم أن هذا فى فتح أريحا فيه نظر، و الأشبه و اللّه أعلم، أن هذا كان فى فتح بيت المقدس الذى هو المقصود الأعظم، و فتح أريحا كان وسيلة إليه، و اللّه أعلم. قال الإمام أحمد: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا أبو بكر، عن هشام، عن ابن سيرين، عن أبى هريرة، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: (إن الشمس لم تحبس لبشر إلا ليوشع ليالى سار إلى بيت المقدس). انفرد به أحمد من هذا الوجه، و هو على شرط الآثار و التاريخ، ص: ۲۰۰ البخارى، و فيه دلالة على أن الذى فتح بيت المقدس هو يوشع بن نون عليه السلام لا موسى، و أن حبس الشمس كان فى فتح بيت المقدس لا أريحا، كما قلنا، و فيه: أن هذا كان من خصائص يوشع عليه السلام، فيدل على ضعف الحديث الذى رويناه أن الشمس رجعت حتى صلى على بن أبى طالب صلاة العصر بعد ما فاتته بسبب نوم النبى صلّى اللّه عليه و سلم على ركبته، فسأل رسول اللّه أن يردها عليه حتى يصلى العصر، فرجعت. و قد صححه على ابن صالح المصرى، و لكنه منكر ليس فى شىء من الصحاح و لا الحسان، و هو مما تتوفر الدواعى على نقله، و تفردت بنقله امرأة من أهل البيت مجهولة لا يعرف حالها، و اللّه أعلم. و قال الإمام أحمد: حدثنا عبد الرزاق، حدثنا معمر، عن همام، عن أبى هريرة، قال: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: (غزا نبى من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعنى رجل قد ملك بضع امرأة، و هو يريد أن يبنى بها و لما يبن، و لا آخر قد بنى بنيانا و لم يرفع سقفها، و لا آخر قد اشترى غنما أو خلفات و هو ينتظر أولادها، فغزا فدنا من القرية حين صلى العصر، أو قريبا من ذلك، فقال الشمس: أنت مأمورة و أنا مأمور، اللهم احبسها علىّ شيئا، فحبست عليه، حتى فتح اللّه عليه، فجمعوا ما غنموا فأتت النار لتأكله، فأبت أن تطعمه، فقال: فيكم غلول، يعنى من كل قبيلة رجل فبايعوه، فلصقت يد رجل بيده، فقال: فيكم الغلول، و لتبايعنى قبيلتك فبايعته قبيلته، فلصق بيد رجلين أو ثلاثة، فقال: فيكم الغلول، أنتم غللتم فأخرجوا له مثل رأس بقرة من ذهب، قال: فوضعوه بالمال و هو بالصعيد، فأقبلت النار فأكلته، فلم تحل الغنائم لأحد من قبلنا، ذلك بأن اللّه رأى ضعفنا و عجزنا فطيبها لنا). انفرد به مسلم من هذا الوجه. و قد روى البزار من طريق مبارك بن فضالة، عن عبيد اللّه، عن سعيد المقبرى، عن أبى هريرة، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم نحوه. قال: و رواه محمد بن عجلان عن سعيد المقبرى، قال: و رواه قتادة عن سعيد بن المسيب، عن أبى هريرة، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم. و المقصود: أنه لما دخل بهم باب المدينة أمروا أن يدخلوها سجدا، أى ركعا متواضعين شاكرين للّه عز و جل، على ما من به عليهم من الفتح العظيم، الذى كان اللّه الآثار و التاريخ، ص: ۲۰۱ وعدهم إياه، و أن يقولوا حال دخولهم حطة، أى حط عنا خطايانا التى سلفت من نكولنا الذى تقدم منا، و لهذا لما دخل رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم مكة يوم فتحها دخلها و هو راكب ناقته و هو متواضع حامد شاكر، حتى أن عثنونه، و هو طرف لحيته، ليمس مورك رحله مما يطأطئ رأسه خضعانا للّه عز و

جل، و معه الجنود و الجيوش ممن لا يرى منه إلا الحدق و لا سيما الكتيبة الخضراء التى فيها رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم، ثم لما دخلها اغتسل، و صلى ثمانى ركعات، و هى صلاة الشكر على النصر على المنصور من قولى العلماء، و قيل: إنها صلاة الضحى، و ما حمل هذا القائل على قوله هذا إلا ـ لأنها وقعت وقت الضحى، و أما بنو إسرائيل فإنهم خالفوا ما أمروا به قولا و فعلا دخلوا الباب يزحفون على استاههم، يقولون: حبة فى شعرة، و فى رواية: حنطة فى شعرة، و حاصله: أنهم بدلوا ما أمروا به و استهزءوا به كما قال تعالى حاكيا عنهم فى سورة الأعراف و هى مكية: وَ إِذْ قِيلَ لَهُمُ اسْكُنُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ وَ كُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ وَ قُولُوا حِطَّةٌ وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُمْ خَطِيئاتِكُمْ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (١۶١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَظْلِمُونَ (١۶٢)، و قال فى سورة البقرة و هى مدنية مخاطبا لهم: وَ إِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْها حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَداً وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً وَ قُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطاياكُمْ وَ سَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ (۵٨) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ (۵٩)، و قال الثورى عن الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس وَ ادْخُلُوا الْبابَ سُجَّداً قال: ركعا من باب صغير. رواه الحاكم و ابن جرير و ابن أبى حاتم، و كذا روى العوفى عن ابن عباس، و كذا روى الثورى عن ابن إسحاق، عن البراء، قال مجاهد و السدى و الضحاك: و الباب هو باب حطة من بيت إيلياء بيت المقدس. قال ابن مسعود: فدخلوا مقنعى رءوسهم ضد ما أمروا به، و هذا لا ـ ينافى قول ابن عباس: أنهم دخلوا يزحفون على استاههم. و هكذا فى الحديث الذى سنورده بعد، فإنهم دخلوا يزحفون و هم مقنعو رءوسهم و قوله: وَ قُولُوا الآثار و التاريخ، ص: ٢٠٢ حِطَّةٌ الواو هنا حالية لا عاطفة، أى ادخلوا سجدا فى حال قولكم: حطة. قال ابن عباس و عطاء و الحسن و قتادة و الربيع: أمروا أن يستغفروا. قال البخارى: حدثنا محمد، حدثنا عبد الرحمن بن مهدى، عن ابن المبارك، عن معمر، عن همام بن منبه، عن أبى هريرة، عن النبى صلّى اللّه عليه و سلم قال: (قيل لبنى إسرائيل: ادخلوا الباب سجدا، و قولوا: حطة، فدخلوا يزحفون على استاههم، فبدلوا، و قالوا: حطة حبة فى شعرة). و كذا رواه النسائى من حديث ابن المبارك ببعضه. و رواه عن محمد بن إسماعيل ابن إبراهيم عن ابن مهدى به، موقوفا. و قد قال عبد الرزاق: أنبأنا معمر، عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة يقول: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: (قال اللّه لبنى إسرائيل: ادخلوا الباب سجدا، و قولوا حطة، نغفر لكم خطاياكم، فبدلوا، فدخلوا الباب يزحفون على استاههم، فقالوا: حبة فى شعرة). و رواه البخارى و مسلم و الترمذى من حديث عبد الرزاق، و قال الترمذى: حسن صحيح. و قال محمد بن إسحاق: كان تبديلهم كما حدثنى صالح بن كيسان، عن صالح، مولى التوأمة، عن أبى هريرة، و عمن لا أتهم عن ابن عباس أن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم قال: (دخلوا الباب الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجدا يزحفون على استاههم، و هم يقولون: حنطة فى شعيرة). و قال أسباط عن السدى، عن مرة، عن ابن مسعود، قال فى قوله: فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِى قِيلَ لَهُمْ قال: قالوا: (هطى سقاثا أزمة مزبا)، فهى فى العربية: (حبة حنطة، حمراء، مثقوبة، فيها شعرة سوداء). و قد ذكر اللّه تعالى أنه عاقبهم على هذه المخالفة، بإرسال الرجز الذى أنزله عليهم، و هو الطاعون. كما ثبت فى الصحيحين من حديث الزهرى عن عامر بن سعد، و من حديث مالك عن محمد بن المنكدر، و سالم أبى النضر عن عامر بن سعد، عن أسامة بن زيد، عن رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم أنه قال: (إن هذا الوجع، أو السقم، رجز عذب به بعض الأمم قبلكم). و روى النسائى و ابن أبى حاتم و هذا لفظه من حديث الثورى، عن حبيب بن أبى ثابت، عن إبراهيم بن سعد بن أبى وقاص، عن أبيه و أسامة بن زيد و خزيمة بن الآثار و التاريخ، ص: ٢٠٣ ثابت، قالوا: قال رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلم: (الطاعون رجز، عذاب عذّب به من كان قبلكم). و قال الضحاك عن ابن عباس: الرجز العذاب. و كذا قال مجاهد و أبو مالك و السدى و الحسن و قتادة. و قال أبو العالية: هو الغضب. و قال الشعبى: الرجز إما الطاعون، و إما البرد. و قال سعيد بن جبير: هو الطاعون، و لما استقرت يد بنى إسرائيل على بيت المقدس استمروا فيه و بين أظهرهم نبى اللّه يوشع، يحكم بينهم بكتاب اللّه التوراة، حتى قبضه اللّه إليه و هو ابن مائة و سبع و عشرين سنة، فكان مدة حياته بعد موسى سبعا و عشرين سنة. الآثار و التاريخ، ص: ٢٠۴

أعمال المؤلف

أعمال المؤلف ١. كتاب (المنظار الهندسی للقرآن الكريم)، دار المسيرة، عمان- الأردن، ط/ ١، ١۴٢٢ ه- ٢٠٠١ م. ٢. كتاب (المنظار الهندسی للقرآن الكريم)، دار المسيرة، عمان- الأردن، ط/ ٢، ١۴٢۵ ه- ٢٠٠۴ م. ٣. كتاب (أنت و الأنترنت- جلّ ما تحتاجه من خدمات الشبكة العالمية-)، دار الرشد، ط/ ١، ١۴٢٢ ه- ٢٠٠١ م. ۴. كتاب (القرآن منهل العلوم)، طبع الجامعة الإسلامية، بغداد، ط/ ١، ١۴٢٣ ه- ٢٠٠٢ م. ۵. كراس (مواصفات الفحوص المختبرية لأعمال الهندسة المدنية)، مع مجموعة من المختصين، ١۴٢٣ ه- ٢٠٠٢ م. ۶. كتاب (القوانين القرآنية للحضارات- النسخة المختصرة، ١٢۵ صفحة من القطع الصغير-)، طبع ببغداد عام ١۴٢۴ ه- ٢٠٠٣ م. ٧. سلسلة كتب (ومضات إعجازية من القرآن و السنة النبوية- ١۵ جزءا-)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان. أ. التأريخ و الآثار. ب. المادة و الطاقة. ت. الفلك. ث. الأرض. ج. الرياح و السحب. ح. المياه و البحار. خ. النبات و الإنبات. د. الحيوانات و الحشرات. الآثار و التاريخ، ص: ٢٠۵ ذ. الطب. ر. الصيدلة و الأمراض. ز. الوراثة و الاستنساخ. س. الجملة العصبية و الطب النفسی. ش. الأحلام و الباراسايكولوجی. ص. الاقتصاد و الاجتماع. ض. آخر الزمان. ٨. كتاب (القوانين القرآنية للحضارات- النسخة المفصلة، ٣۶۵ صفحة من القطع الكبير)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان .. ٩. كتاب (تفصيل النحاس و الحديد فی الكتاب المجيد)، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان. ١٠. عدة بحوث فی مجال الهندسة المدنية منشورة فی مجلات و مؤتمرات هندسية مرموقة داخل العراق و خارجه. ١١. عدة بحوث و مقالات فی مجال الإعجاز القرآنی منشورة فی صحف و مجلات و مؤتمرات مرموقة داخل العراق. ١٢. عدة أعمال مرئية تلفازية و حاسوبية فی محطات محلية و أخرى فضائية عربية.

مشاريع كتب للمؤلف

مشاريع كتب للمؤلف كتاب (استنباط الحلول من أسباب النزول)، قيد التأليف. كتاب جامعی عن المواد الهندسية، قيد التأليف. تصاميم شبكات الخدمات المائية و الصحية، قيد الإعداد.

فهرس المحتويات

تعریف المرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

جاهِدُوا بِأَمْوالِکُمْ وَ أَنْفُسِکُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱). قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنا... یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلّامة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷). مؤسّس

مُجتمَع" القائميّة "الثّقافيّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آيـة الله" الشمس آباذى – "رَحِمَهُ اللهُ – كان أحـداً من جَهابذة هـذه المدينة، الـذى قـدِ اشـتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَيت النبيّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علىّ بن موسَى الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فى سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لَم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَى و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم. مركز" القائميّة "للتحرِّى الحاسوبىّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامىّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجى الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالاتٍ شتّى: دينيّة، ثقافيّة و علميّة... الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشّباب و عموم الناس إلى التّحَرِّى الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ على أساس معارف القرآن و أهل البيت – عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلّاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فى الجامعة، و... – مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التى يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، على أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فى آكناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فى أنحاء العالَم – مِن جهةٍ اُخرَى. – من الأنشطة الواسعة للمركز: الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فى الحاسوب و المحمول ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و... د) إبداع الموقع الانترنتى" القائميّة "www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَى ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فى القنوات القمريّة و) الإطلاق و الدَّعم العلمىّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴) ز) ترسيم النظام التلقائىّ و اليدوىّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS ح) التعاون الفخرىّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و... ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع" ما قبلَ المدرسة "الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فى الجلسة ى) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّى (حضوراً و افتراضاً) طيلةَ السَّنَةِ المكتب الرّئيسىّ: إيران/أصبهان/ شارع"مسجد سيّد/ "ما بينَ شارع"پنج رَمَضان" ومُفترَق"وفائى/"بناية"القائميّة "تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة) رقم التسجيل: ۲۳۷۳ الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶ الموقع: www.ghaemiyeh.com البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱) الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱) مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱) التّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹ امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱) ملاحَظة هامّة: الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِى الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم – فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.


مركز القائمية اصفهان للبحوث والتحريات الكمبيوترية
www
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٠٩